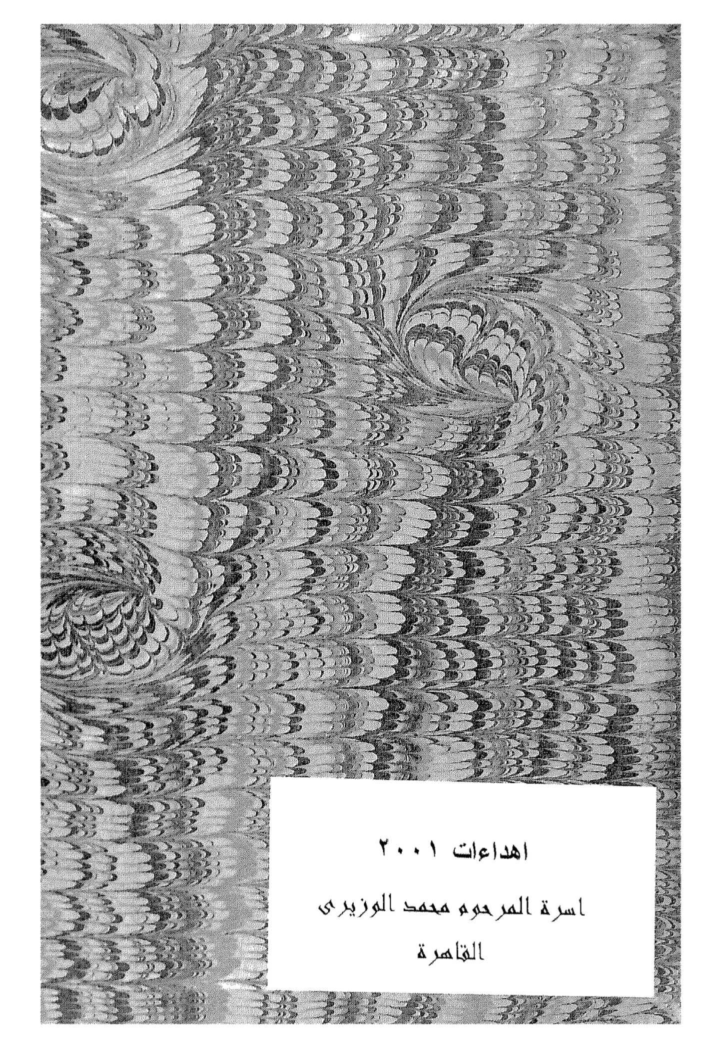
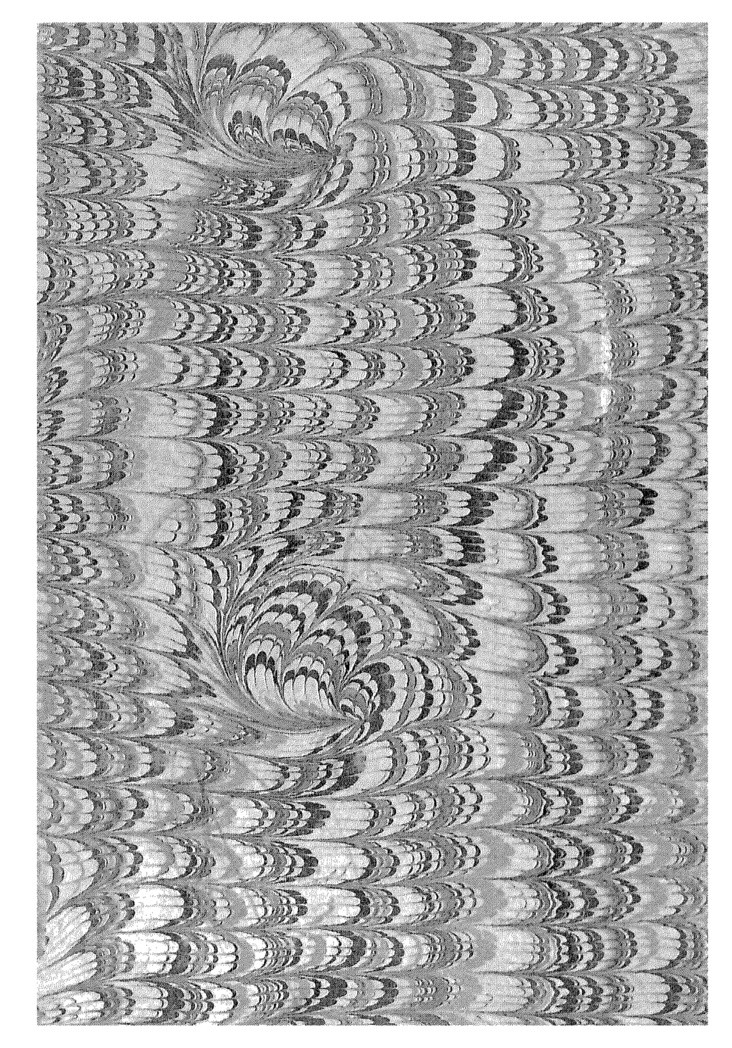
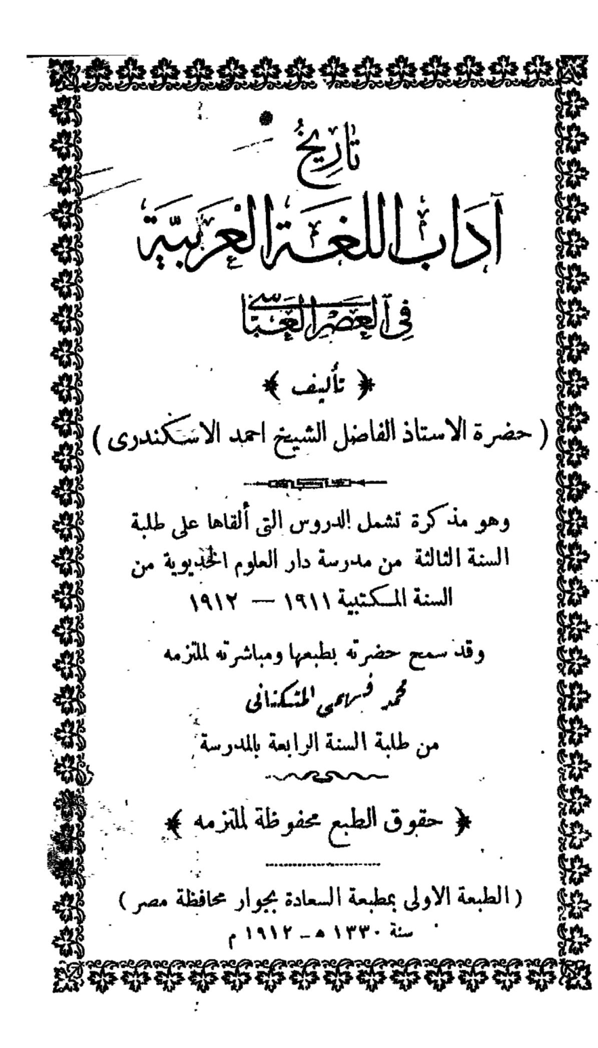




اهداءات ٢٠٠١
اسرة المرحوم محمد الوزيرى
القاهرة







تاريخ آداب اللغة العربية

في العصر العباسي

﴿ تأليف ﴾

(حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد الاسكندرى)

وهو مذكرة تشمل الدروس التى ألقاها على طلبة السنة الثالثة من مدرسة دار العلوم الخديوية من السنة المكتبية ١٩١١ — ١٩١٢

وقد سمح حضرته بطبعها ومباشرته لملتزمه

محمد فسامى المشكنانى

من طلبة السنة الرابعة بالمدرسة

(الطبعة الاولى بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أما بعد﴾ حمد الله على مزيد نواله ، والصلاة والسلام على محمد وآله ، فقد أسعدنا الحظ بتلقى مقرر السنة الثالثة فى دروس آداب اللغة العربية من حضرة أستاذنا الفاضل الشيخ أحمد الاسكندرى ، فأملى علينا مذكرة لا نكذب الله ان قلنا انها حوت زبدة فنون الأدب فى عصر الدولة العباسية ، فاقترحنا على حضرته ان يطبعها ليعم نفعها ، فأظهر الاستهانة بطبع عجالة كهذه ليست الا جزءا من كتاب ، ووعدنا اذا أتيح له تدريس جميع مقرر المدرسة فى الأدب ان يستصفى ملخصا من كتابه الكبير الذى يعانى تأليفه فى الأدب ، ويطبعه لجمهور الطلبة . ولم يجبنا الى أكثر من ذلك . ولكننا أشفقنا من ضياع هذه المذكرة وتركها نهبا للمغيرين والمنتحلين ، فاستأذناه فى طبعها على نفقتنا ونشرها بين الطلبة ، فأذن لنا بشرط ألاّ يباشر طبعها بنفسه وان تكون عهدة تصحيحها ملقاة على عاتقنا

فاستخرنا الله تعالى وبذلنا كل جهدنا بجعل طبعها مطابقا لأصلها من كل وجه بقدر الامكان . فاذا عثر القارئ على شيء من التصحيف أو التحريف (ونرجو ألا يكون) فذلك مما ندّ عن حرصنا ، وخرج عن وسعنا ،

وعسى ان نكون بذلك قد ألقينا لنا دلوا بين دلاء المشتغلين بخدمة اللغة العربية الشريفة . حرسها الله وخلدها أبد الآبدين آمين

محمد فهمى المتكنانى

العصر العباسى

من عصور نمو العربية وارتقاء آدابها وعلومها

وينقسم الى عصرين عصر تقدم وعصر وقوف

العصر الأول

عصر التقدم

١٣٢ — ٣٣٤ هجرية

ان تاريخ لغة أمة وآدابها يرتبط شدة الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظهرانى هذه الأمة .

وسقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس من الأمور التى نشأ عنها كثير من الحوادث المختلفة ذات الأثر البيّن فى اللغة والعلم والأدب

ولذلك ناسب أن يُجعل زمان ذلك مبدأ لعصر جديد من عصور حياة اللغة ونموها ، غير أن هذا العصر لم يدم أكثر من قرنين أى الى سنة ٣٣٤ حين وضع بنو بُوَيه من الدَّيلم أيديهم على شؤون الملك والخلافة ببغداد ، ودخل فى قبضتهم معظم الممالك الشرقية الاسلامية ، فتلاه عصر آخر أخذ بعده سلطان العرب فى الشرق فى التناقص شيئا فشيئا . وهو أول عصور اضمحلال العربية وعلومها وآدابها . وابتدأت الآداب الفارسية من ذلك الحين تدبّ فيها الحياة حتى نُشرت للوجود ولكن بصورة تغاير صورتها زمن الاكاسرة . وبقيت العربية تدافع سيلها ثم سيل التركية الجارف فى الشرق

حافظة لنفسها منزلة اللغة الرسمية حتى سقطت بغداد فى يد التتار ، فكان ذلك آخر العهد بغلبة سلطانها على الشرق ، ولكنها خلّفت فيه دينا وشرائع وآدابا لاتمحوها الايام ، ولا تنسخها الحوادث، حتى يرث الله الارض ومن عليها . ونبدأ بحالة اللغة فى العصر الاول من عصرى الدولة . فنقول :

حالة اللغة العربية فى ذلك العصر

كانت العرب فى أواخر دولة بنى أمية قد فتحت معظم المعروف فى ذلك العهد من الدنيا القديمة ، فكانت مملكتهم تمتد من الهند والصين الى جبال البرانس من أوربا ، وكانت جمهرتهم فى كل مملكة يفتتحونها لها السلطان والولاء على سكانها ، ودينها هو الغالب ، ولغتها هى الرسمية ، ولذلك تسارع الاعاجم والموالى الى تعلم أحكام الدين وعلومه وحفظ اللغة العربية وضبط علومها تقرّبا للغالب واستدرارا للرزق . فنبغ منهم كثيرون كانوا فى طليعة العلماء والشعراء والخطباء والوعاظ والقُصّاص والمحدّثين، ظهرت آثارهم فى صدر الدولة العباسية ، وزاد هذا الامر تمكنا تعصب بنى أمية للعرب والعربية

فلما هم بنو العباس بتأسيس دولتهم لم يروا فى العرب من الانصار مثل من وجدوه من الفرس الناقمين على حكم بنى أمية ، فثاروا بهم واكتسحوا ممالك بنى أمية ، وأنشئوا مملكة قوية كان للفرس فيها من النفوذ قسط وافر، وأصبحت عاصمتها بغداد أقرب الامصار الى بلادهم ، وزادت الثقة بالاعاجم فاستخدمهم الخلفاء والامراء فى كل شئ ، من سقاية الماء الى قيادة الجيوش والوزارة فنشأ من ذلك عدة أمور ، منها مايتعلق بأصول الاجتماع كالامور الآتية :

(١) دخول العناصر الفارسية والدَّيلميه والتركيه فى تكوين هيكل الدولة وتمازجهم مع العرب بالتزاوج والتناسل لضعف النُّعَرة العربية فى كبرائهم ومنحهم الشعوب الوطنية من المزايا مالا يتيسر للعربى نيله

(٢) ضعف النفوذ العربى فى أقاصى خراسان ، فجلاعنها العرب وتراجعوا الى العراق بالتدريج ، ومن بقى منهم بالقاصية غلبت عليه العجمة وانقرض ، فأخذ شأن العربية فى التناقص فى شرق خراسان وخصوصا بعد زمن المأمون

(٣) ظهور المقالات المختلفة فى الالحاد والسياسة ، لان الحرية التى مُنحتها الأعاجم أظهرت منهم فرق الشُّعوبيّة والزنادقة ، وولّدت فيهم فكرة استرجاع ملكهم ، وولَجوا لذلك عدة أبواب ، بعضها أُرتج فى وجوههم ، وبعضها فتح لهم .

(٤) امتزاج المدنية الآريّة بالمدنية الساميّة ، وترتب على هذا الامتزاج شيوع عادات وأخلاق وتصورات وخيالات واعتقادات وأمراض اجتماعية لم تكن فشت فى العرب بعد . وكان لكل ذلك أثر بيِّن فى اللغة لفظها وشعرها وكتابتها وتأليفها . وحاول الخلفاء مقاومتها بنشر العلم ومعاضدة الفضيلة والفتك بالزنادقة والملاحدة فأجدى ذلك بعض الشئ . ونشأ عن ذلك عاداتٌ وأخلاقٌ واعتقاداتٌ ممتزجة ضاعت معها أصول المدنيّتين ومنها أمور تتعلق باللغة والادب ، وانما موضوعنا ما يرتبط باللغة العربية وما طرأ عليها وعلى آدابها من التغيرات بهذا الانقلاب .

ويرجع التغير الطارئ على اللغة فى هذا العصر الى ثلاثة أمور

(الاول) ما يتعلق بالاغراض التى تؤديها اللغة

(الثانى) مايتعلق بالمعانى والتصورات الفكرية

(الثالث) مايتعلق بالالفاظ والاساليب

اغراض اللغة

كانت أحوال الدولة العربية فى عصر بنى أمية تقرب من الفضاضة والبداوة ، لاشتغالها بالآداب العربية الاسلامية ، فلم تكن اللغة تتناول من الاغراض غير مايتعلق بالدين والمعيشة الساذجة . فلما امتزجت المدنية السامية بالآرية فى الدولة العباسية تمام الامتزاج ، تناولت اللغة اغراضا كثيرة لم تُعهد فيها قبل بنقل علوم الامم المغلوبة وآدابها وعاداتها ، ومن وجهة أخرى كان المسلمون من العرب وغيرهم قد ارتاحت عقولهم ، ونضج استعدادهم لوضع القوانين واستنباط أحكام الشريعة من أصولها ، وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين فكان من تلك الاغراض مايأتى

(١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية

(٢) الترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية

(٣) وضع اصطلاحات الصناعات المختلفة

(٤) وضع اصطلاحات الدواوين ونظام الدفاتر والكتب والرسائل

(٥) ضبط الامور السياسية من المعاهدات والمشارطات والبيعات

(٦) ازدياد وصف الاشياء النفيسة كالقصور والآنية والحُلىّ والرياحين والثمار ومجالس الشرب والمنادمة ومصايد الوحوش والطيور والسمك واللعب بالكرة والصولجان وغير ذلك

(٧) التهاني والتهادى فى الاعياد الفارسية كالنيروز والمِهرجان

(٨) التغنى والمجانة والخلاعة والسُّخرية والتّظرّف

(٩) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل والتقاضى وتدريس العلوم

(١٠) التزهيد فى الدنيا والوعظ والقصص

المعانى والتصورات الفكرية

ان الامور التى حدثت فى الانقلابات السياسية والاجتماعية كان لها نتيجة ظاهرة فى الحركة الفكرية والخيالية للمتكلمين بالعربية . ظهر ذلك فى عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة فمن ذلك

(١) الاكثار من الحجج والبراهين الشعرية والعقلية وانتحاء مذاهب الفلاسفة فى الشعر والخطابة ولا سيما بعد عصر ترجمة الكتب

(٢) التصورات الغربية والمعاني الدقيقة الظاهر أثرها فى شعر بشار وأبى نواس وأبى العتاهية ومسلم وأبى تمام والبُحترى وأضرابهم . وفى مثل كتابة ابن المقفّع والعتّابى وعمرو بن مَسعَدة وسهل بن هرون والجاحظ ،والاجوبة المُسكتة للجمّاز وأبى نواس وأبى العيناء وأبى على البصير ، وفى دقة الكنايات والرموز والحكم وارسال المثل

(٣) الخيال البديع الظاهر فى التشبيهات والمجاز وحسن التعليل ومراعاة النظير فى كلام من ذكر وغيرهم

(٤) التهويل والمبالغة فى التفخيم من الامور المقتبسة من اللغة الفارسية سيما بعد عصر المعتصم مما حسن اللغة من جهة وشوهها من أخرى

الألفاظ والأساليب

ان عبارة اللغة العربية فى آخر عصر بنى أمية كانت قد مالت الى انتحاء السهولة فى اللفظ ، والتفنن فى أساليب الكلام والاطالة فى الترسل منه

وقد أربى الحال على ذلك فى النصف الاول من عصر بنى العباس بما أدخله الكتاب والشعراء من أبناء الفرس والترك ومترجمى السريان ومن عاشرهم من أبناء العرب من المحسنات البديعية والاساليب المختلفة التى وَسِعتها أصولُ اللغة العربية بصدر رحب ، وازدادت بها وضوحا وفراهة ، ناقلين لها من عبارات بُلغاء الفرس والهند واليونان والروم فمن ذلك

(١) انتقاء الالفاظ الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل ، لاستعمال الروية وقلة الحاجة الى الارتجال

(٢) ازدياد الميل الى استعمال ألفاظ القرآن ، ومحاكاة أساليبه ، واقتباس آياته ، والاستشهاد بها ، لان الدولة العباسية قامت بدعوة دينية ترمى على زعم زعمائها الى صلاح ما أفسدته الاموية من معالم الدين ، وعطّلت من شعائره، وهتكت من حُرُماته . فكانت خطب أبى مسلم وداود وعبد الله ابنى على بن عباس والسفّاح والمنصور والمهدى والخارجين على دولتهم من العلويين وكتبهم ومنشوراتهم كلها مفعمةً بآى القرآن الكريم ، امّا اقتباسا للتبرُّك والتعبُّد، وامّا استدلالا على تأييد دعوتهم ولو بالتأويل البعيد والاشارة الخفية. واطّردَ ذلك فى أكثر شارات الدولة من البنود والاعلام والطراز والسكة

(٣) التوسع والاكثار من ألفاظ التشبيه والمجاز والتمثيل والكناية

والمحسنات اللفظية كالجناس والطباق وغير ذلك

(٤) التوسع فى ادخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء صونا لاعلامهم الشخصية من الابتذال، وحجباً لها عن امتهانها فى ألسنة السوقة ، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والامين والمأمون والمعتصم بالله والواثق بالله والمتوكل على الله الى آخر الدولة . ثم سرى ذلك فى وزرائهم وأمرائهم بعد ضعف الخلفاء

(٥) دخول كثير من الكلمات الأعجمية فى أسماء ألوان الاطعمة وأنواع الآنية والفُرُش وأدوات الصناعة بنوع من التحريف لتوافق مخارج الحروف العربية وأبنية كلماتها . وتسمى الكلمة حينئذ معربة [١]

(٦) وضع كلمات عربية جديدة بطريق المجاز أو الاشتقاق والقياس لاصطلاحات العلوم والفنون والصنائع وادارة الحكومة وآلات الحرب وغيرها

(٧) التأنق فى صوغ العبارات وجعلها فى غاية الاحكام والبلاغة وسهولة التراكيب والتفنن فيها ، وتوخّى الألفاظ الرائعة الطنانة ، ونقل كثير من كيفيات الاداء فى لغات أخرى كالفارسية وغيرها على طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ

(٨) الازدواج فى الكلام وربما كان سجعا

(٩) الاسهاب فى العهود والمنشورات والرسائل التى يراد بها شدة التأثير والتهويل ، وتصوير المعنى بعبارات طويلة وجمل مترادفة

---

(١) التعريب من حق العرب الذين يصح منهم الوضع وقد انقضى عصرهم فلا حق لنا فيه

وعكس ذلك من الايجاز والتعمق في بلاغة الرسائل القصيرة حتى تصل الى حد التوقيع بل الرمز والاشارة ، مما يعلم منه أن اللغة في ذلك العصر أوشكت أن تصير صناعة لا ملكة طبيعية

(١٠) استعمال كثير من ألفاظ السُّخْف والبَذاء وعبارات المجُون

(١١) حدوث لغة تأليفية ولغة فنية ، لتعليم العلوم والصناعات ، تقاس بمعيار المنطق والفلسفة لا بمعيار البلاغة

ولم تحدث هذه اللغة الا في أواخر العصر الذي نحن بصدد الكلام فيه وفي العصور التالية له حتى تغلبت على لغة الأدب والبلاغة . ثم ازدادت تعقيدا بكثرة تأليف الأعاجم كما سيأتي بيانه

وقصارى القول أن اللغة العربية في صدر الدولة العباسية ضعف شأنها بالتدريج بين عامة الناس في القاصية الشرقية وقوى في الممالك الوسطى حيث كان لها من مؤازرة رجال الدولة وتناصر أهل الملة في تدوين أصولها وتوفُّر العلماء على استنباط العلوم وترقية الفنون مازادها بلاغة وفراهة ، وأحلّها من الكمال منزلة لم تُسعِدها المقاديرُ أن تتعداها

ولما كان الكلام العربي لا يخرج عن أن يكون نثراً أو شعراً ، والاول ، ناما محادثة ، واما خطابة ، واما كتابة ، كان من الملائم أن نُفرِدَ لكل مبحث موضوعا يشرح حاله على سبيل الاختصار . والله الموفق

النثر

المحادثة ـ أو لغة التخاطب

لم تكد الامة العربية تمتزج بغيرها من الأمم حتى نشأ الاختلال فى لغة أبناء جاليتها ، لنقص ملكة اللغة فيهم ، واضطراب تربيتها بمزاحمة ملكات اللغات الاعجمية لها ، مما اضطر أولى الامر لوضع علم النحو

وبالرغم من قبض العرب على زمام السلطة فى كل شئ ، ودخول أكثر شعوب الممالك المفتتحة فى الاسلام المنزل بلسان عربى مبين ، بقى داء العجمة يتفشّى ويزداد خطبه بين العامة من الأكرة والصناع ونظرائهم ممن لا يترفعون عن مَعابَة العُجْمة من وُضعاء العرب ، ولا يتطلعون الى شرف من العجم ، حتى نشأ فى كل اقليم لغة عامية خاصة به مؤلفة من العربية الممزوجة بشئ من ألفاظ لغة الاقليم الوطنية وأساليبها .

وهذه اللغات العامية استقلت عن العربية وتميّزت تميزا بَيِّناً عنها فى الجيل الناشئ فى صدر الدولة العباسية بَعْدَوَهْيِ حبل العصبية العربية وشدة التمازج بين العناصر حتى أصبحت لسان التخاطب بين عامة الأمم الاسلامية فى جميع بقاع الارض ، واذ كان فى استفحال أمر هذه اللغة خطر على اللغة الفصحى ونسخٌ لها ، وهى لسان القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، جَزِع الأئمة والمتألهون من أشراف الأمة وذوى النُّعَرة العربية من هذا الهول ، وأشفقوا على القرآن من استغلاق فهمه على الناس ، وطمس معالم السنة ، وهما كل الدين ، فهبُّوا لمحاربة هذا الوباء بالتحضيض على

التعلم ، وتدوين علوم اللسان ، من اللغة والنحو وضبط أصول السنة والشريعة ، و بشّعوا صورة العامية ، ومقتوا كل من يتكلم بها . ولم يقصّر الخلفاء ورجال الدولة فى شد أزر هذه النهضة والاغداق على الأئمة القائمين بنُصرتها بالعطاء الكثير ، وفتحوا أبوابهم للشعراء وأهل الادب ، وأسالوا عليهم الذهبَ النضار وحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم وخاصتهم ، ترفيها للعربية الفصحى ، وعملا على تخليدها ، وربئاً بأنفسهم أن يدانوا السُّوقة وخَشاش الناس ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة ، وطردوا كل قليل البصر بصناعات العربيّة والفقه فى الدين ، وعرف الناس ذلك منهم فتقربوا اليهم بالعلم والادب واللغة ، ولم يعزّ على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتطالّ اليه بالعلم والادب فنبغ فيها كثير من الموالى والفرس والسريان حتى الجوارى والقيان ، وأضحت لغة تخاطب الخاصة هى العربية الفصحى . وبالرغم من كل هذه المطاردة للعامية لم يسكن تيارسيلها الجارف واستمر فى طُغيانه

نعم أنها صغرت عن ان تصير لغة قراءة وكتابة ، ولكنها صبغت بصبغتها السنة طبقات العامة والدّهماء فى العراق ومصر والشام وشمال أفريقية والاندلس منذ ابتداء القرن الثالث ، وأصبحت لغة التعامل والتحادث فيما بينهم كما أصبت عُرضةً للاستحالة والتغير حسب تغير الأحوال والعصور

. أما لغة التخاطب فى فارس وخراسان والسند وما افتُتح من ممالك الترك والدّيلم والكرَج وأرمَينيّة والنُّوبة وجنوب ولايات أفريقية الشمالية ، فكانت

بين العامة هى اللغات الاعجمية الوطنية لـكل مملـكة ، وكانت بين الخاصة سيما أهل الحل والعقد منهم هى العربيـة الفصحى . وبقيت اللغات الوطنية سائدة فى تلك الجهات الى عصرنا هذا . أما لغة التخاطب في جزيرة العرب فقد بقيت العربية الفصحى الى أواسط القرن الرابع ، وان كانت قبل ذلك اضمَحلتْ فيها القوة الادبية لتناقص العمران فيها

ولا ندرى أمن حسن الحظ أم من سوئه عدم اهتمام اسلافنا بتدوين هذه اللغات العامية وما احتوت عليه من الآداب والافـكار، حتى كنا نكون على بيّنة من تدرُّجها فى أطوار التاريخ ، وحتى نتعرف ما كان عليـه عامة العصور الغابرة من الاخـلاق والعادات ، اذ هم الشعب الحقيق لـكل أمة ، ولكنهم رحمهم الله أشفقوا من جعل العامية لغة قراءة وكتابة أن تَبتزّ الفصحى ، وتنسخ ظلها من الوجود (لاقـدر الله) مع انها اللسان العـام (الاسبرانتو) بين جميع ممالك الاسلام ، فيرتج باب الدين ، وتتقاطع الامم الاسلامية ، فتقتصر كل أمة على كتبها ولغتها ، وفى ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية مالايخفى

نعم اننا رأينا فى بعض الـكتب وخصوصا كتب المتأخرين بعض ألفاظ وعبارات وشيئا من النظم باللغة العامية ، وعثرنا على أوراق أثرية من معاملات العوام مكتوبة بالعربيـة الملحونة ، ولـكن كل ذلك لايرينا صورة واضحة لتاريخ هذه اللغات ، لان أكثر الـكتب وضع للشداة والخواص من الكتاب لا للعوام ، وفي فصيح ثعلب وذيل الفصيح وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدى ونحوها ممـا أُلّف فى اصلاح العامية كثير من الألفاظ

والتراكيب التي كانت تنطق بها العامة والصحيح غيرها

هذا ويظهر لمن تتبع أغلاط المولدين أن العامية تكونت من عدة أمور كاهمالهم الاعراب ، وتوسعهم فى نحت الكلمات ، وتوسعهم في قياس المشتقات والمصادر وأبواب الفعل والنسب والجموع ، وتحريفهم أوتصحيفهم الكلمات العربية ، وادخالهم كثيراً من الالفاظ الأعجمية، وتوسعهم فى أساليب الكلام، من حيث التقديم والتأخير والنفى والاثبات والتعريف والتنكير ونحوها وسلوكهم كثيراً من طرق التصور والتفاهم المألوفه عند الامم الاعجمية وغير ذلك،

الخطابة والخطباء

لما كان قيام دولة بنى العباس من الأمور التى نشأعنها كثير من الانقلابات السياسيه والمذهبيه والاجتماعيه ، وكان ذلك يستدعى تأليف العصابات ، ودعوة الناس الى التشيع الى بنى هاشم ، والانكار على ما انتهكه الأموية من حُرمات الدين ، وكان التفاهم بالعربية الفصيحة والانخداع بالبلاغة والشعريات لايزال متوفراً فى صدر الدولة العباسية ، كانت الداعية الى الخطابة متوفرة لتوفر أسبابها و وجود أهلها

ولذلك كان من دُعاة العباسيه وقوادها وخلفائها و ولاتها خطباء مصاقع لايقلون عمن اشتهر من نظائرهم فى الدولة الاموية ، ولكن لما فترت هذه الدواعى باستقرار الدولة واشتد اختلاط العرب بالأعاجم ، وتولى كثير من الموالي قيادة الجيوش وعمالة الولايات والمواسم ، ضعف شأن الخطابة لضعف

قدرتهم عليها ولقلة المجيبين لها ، لتناقص العناصر العربيه فى الجند وأهل النّجدة ، فلم يمض قرن من قيام الدولة حتى بطل شأن الخطابة السياسية والمذهبية، وبقيت الخطابة قاصرة على خطب الجمعة والمواسم وخطب الزّواج ونحو ذلك

وبقيت الخطابة ببعض أنواعها فى البادية زمنا طويلا بعد اضمحلالها فى الأمصار ، لتباطؤ فساد اللغة فى جزيرة العرب ، لقلة اختلاطهم بالأعاجم، حتى كانت فتن الزنج والقَرامِطة ، فامتزج كثير من الأعاجم بعرب الجزيرة ، وضاعت النعرة العربية فيهم ، ودب الفساد الى لغتهم «فرجعوا الى جهالة لم تعهد فيهم حتى فى عصورهم الجاهلية»

وأشهر خطباء هذا العصر كانوا من بنى هاشم كداود وعبد الله بنى على ابن عبد الله بن عباس وأبى جعفر المنصور والمهدى والرشيد والمأمون وعبد الملك بن صالح ، ومن خطباء الأمصار خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ونذكر بعض هؤلاء وشيئاً من خطبهم . فنقول :

داود بن على

هو داود بن على بن عبد الله بن العباس . نشأهو واخوته وكانوا اثنين وعشرين ولدا ذكرا ـ فى قرية الحُمَيْمَة من أرض الشَّراة من أعمال عَمّان فى أطراف الشام (الكَرَك الآن) . وهى قرية كان الوليد بن عبد الملك أجلى على بن عبد الله بن عباس وأهل بيته اليها سنة ٩٥ للهجرة غضبا عليه . وأخذوا علمهم وأدبهم عن أبيهم علىّ حبر قريش وابن حبرها وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو

النازلين فيهم من قبائل لخم وجُذام وتَنُوح وغسّان وقيس ، فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال واباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف والملذات والعكوف على الملاهى .

وكان داود أحد النابغين من اخوته فى هذه الصفات ، ويزيد عليهم أنه كان خطيبهم ولسانهم، فكان أخطب بنى العباس فى وقته . وعاجلته منيته قبل ان يستطير سلطانه فى الدولة .

ورُوى انه وابنه موسى كانا بالعراق أو غيرها . فخرجا يريدان الشراة فلقيهما أبو العباس ومعه أهل بيته ومواليه . فقال داود : أين تريدون وما قصتكم؟ فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليَظْهروا بها ويُظهِروا أمرهم ، فقال له داود : يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحَرّان مُطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة بالعراق فى حَلْبة العرب . فقال أبو العباس من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الأعشى

فما مِيتةٌ ان مِتُّها غيرَ عاجز ... بعار اذا ما غالتِ النفسَ غُولُها

فالتفت داود الى ابنه موسى فقال : صدق والله ابنُ عمك ، فارجع بنا نعش أعزاء أو نمت كراما ، فرجعوا جميعاً . فكان عيسى بن موسى يقول : اذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهليهم يطلبون مطالبنا لعظيمٌ همهُم كبيرةٌ أنفسُهم شديدةٌ قلوبُهم

ولاه أبو العباس عقب بيعته بالكوفة ولاية الكوفة وسوادها ثم ولاّه

امارة الحاج فى هذه السنة ،وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة، فقتل من ظفر به من بنى أمية فى مكة والمدينة

وحج بالناس فى هذا العام وهو عام سنة ١٣٢ هـ وهو أول موسم ملكه بنو العباس وخطبهم خطبة مشهورة . ثم ذهب عقب الموسم الى المدينة فتوفى بها بعد شهرين من قدومه اليها فى شهر ربيع الأول

ومن خطبه خطبته التى خطبها يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة وهى:

« الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذى أهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم . أيها الناس ، الآن أقشعت (١) حنادِس (٢) الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وانشقت أرضُها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزَغه ، وأخذ القوسَ باريها ، وعاد السهم الى منزِعه ، ورجع الحق الى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم . أيها الناس إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لُجَيْنا ولا عِقيانا (٣) ، ولا نحفِر نهرا ، ولا نبنى قصرا ، وانما أخرَجنا الأنفةُ من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا ، وما كَرَثنا (٤) من أموركم ، وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم تُرمِضُنا ونحن على فُرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرةِ بنى أمية فيكم وخُرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمةُ الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكمَ فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله

(١) تفرقت وزالت (٢) جمع حندس وهي الظلمة (٣) الذهب (٤) كرثه الغم اشتد عليه

ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم . تبًّا تبًّا لبني حرب بن أمية وبني مروان . آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الانام ، وانتهكوا المحارم ، وغَشُوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسُنّتهم في البلاد التي استلذوا بها تَسَرْبُل الاوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا في أعنّة المعاصي وركَضوا في ميادين الغي جهلا باستدراج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديثَ ومُزّقوا كل مُمزّق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدا لنا الله من مروان وقد غرّه بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عِنانه حتى عَثَر في فضل خِطامه ، فظن عدو الله ان لن يُقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومَحَق ضلاله وجعل دائرة السّوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد الينا حقنا وأرثنا . أيها الناس ان أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً انما عاد الى المنبر بعد الصلاة انه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وانما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استحنفر (١) فيه شدةُ الوعك (٢) وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدوّ الرحمن وخليفةِ الشيطان المتبع للسّفلة الذين أفسدوا في الارض بعد صلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشابّ المتكهّل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الاخيار الذين أصلحوا الارض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج

(١) استقام له واتسع له (٢) وجع الحمى والمرض

التقوى (فعج الناس له بالدعاء) . ثم قال :

يأهل الكوفة . انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيابهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، واليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، و بيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان ، وعز الاسلام ، ومَنَّ عليكم بأمام منحه العدالة وأعطاه حسن الأيالة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تُخدَعوا عن أنفسكم فان الامر أمركم ، فان لكل أهل بيت مصرا وأنكم مصرنا . الا وأنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أميرُ المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبى العباس) . فاعلموا أن هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا »

أبو جعفر المنصور

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رجل بنى العباس والمؤسس الثانى لدولتهم وأحد أساطين السياسة والبلاغة والفقه بالدين والسنة واللغة والادب وأخبار الناس

وكان أفحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا ، جماعا للمال تاركا للهو واللعب ، كامل العقل ، متزهدا متعففا فى عيشته . قتل خلقا كثيرا حتى استقام له ملكه

ولد بالحُميمة سنة ٩٥ وتولى الخلافة بعهد من أخيه سنة ١٣٦ وتوفى سنة ١٥٨ وكان أكبر من أخيه السفاح بتسع سنوات وانما عهد للسفاح بالخلافة قبله لان أمه عربية من بنى الحارث من اليمانية ، ليكون له عصبية من أخواله فى قيام الدولة

وتقلبت به أحوال كثيرة فى الرحلة لطلب العلم والتصرف. وكان نادرة عصره فى علوم العربية والاسلام ، ووقائعه فى امتحان العلماء ومناظرة الرواة والفقهاء ومناقضته الشعراء مشهورة . وله فى تاريخ العلم والادب أعظم أثر لحضه العلماء على تدوين العلوم ، والمترجمين على نقل تواريخ الامم السالفة وآدابها .

وأخبار المنصور فى السياسة والحزم والدهاء والاقتصاد أُفْعِمَتْ بها التواريخ السياسية فلتراجع ثمة

ويكفينا هنا أن نعده من فحول خطباء بنى العباس اذ كانت الخَطابة من أظهر شِعار الامامة . وفى ذلك يقول بعضهم : لم يكن أحد من بنى العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور وأخيه العباس بن محمد وعمهما داود بن على

ويشهد بصدق هذا الكلام مارواه المؤرخون من غير وجه أنه خطب يوما فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له (فاعترضه رجل فقال : أيها الانسان أذكرك من ذكرت به) فقال : مرحبا مرحبا . لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وسمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله ان أكون جبارا عنيدا ، وتأخذنى

العزة بالاثم ، لقد ضللت اذن وما أنا من المهتدين. وأنت ياقائلها فأحلفُ بالله ما اللهَ أردتَ بها ولكن أن يقال : قام فقال فعوقب فصبَر ، وأهْوِنْ (١) بقائلها لو هممتُ (٢) ، فاهتبِلْها (٣) ويلَك اذ عفوت ، اياك واياكم معاشرَ المسلمين وأختَها فأن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فَصَلت ، فردوا الامر الى أهله ، توردوه موارده وتصدروه مصادره (ثم عاد الي خطبته) فقال : وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فكأنما يقرؤها من قرطاس

وروى الطبرى فى تاريخه أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال . يأهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان أهل بيتى هؤلاء من وُلد على بن أبى طالب تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافةَ فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير . فقام فيها على بن أبي طالب فتلطخ وحكّم عليه الحكمين ، فافترقت عنه الامة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وَثبت عليه شيعتُه وَأنصاره وَأصحابه و بِطانته ورِثقاته فقتلوه . ثمَّ قام من بعده الحسن بن على ، فوالله ما كان فيها برجل قد عُرضت عليه الاموال فقبلها فدس اليه معاوية : انى أجعلك ولى عهدى من بعدى . فخدعهم فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه . فاقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن

(١) فعل تعجب من هان (٢) أى هممت المقار (٣) اغتنمها

على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق . والاغراق في الفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشارالى الكوفة) . فوالله ماهى بحرب فاحارِبَها ، ولاسلم فاسالمها ، فرق الله بينى و بينها . فخذلوه وأسلموه حتى قُتِل ثم قام من بعده زيد بن على ، فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له: انا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل ، وأتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكُناسة [١] ثم وثب علينا بنو أمية فاماتوا شرفنا وأذهلوا عزنا . والله ما كانت لهم عندنا تِرة [٢] يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا فيهم و بسبب خروجهم عليهم ، فنفَونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشّراة [٣] حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهلَ خراسان ، ودمغ بحقكم أهلَ الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا و بغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علىّ وجُبْنا عن عدوهم لبئست الخَلّتان الجهل والجبنُ

---

(١) الكناسة بالضم موضع قرب الكوفة (٢) ثأر (٣) موضع على الطريق بين دمشق والمدينة (الكرك الآن)

فاني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الامر ما أتيت بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم والتعرّم ، وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يافلان قم يافلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله مابقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على فلا يرون انى أتيت ذلك على غير يقين ، .ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الاية (وحيل بينهم و بين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب) قال وخطب المنصور بالمدائن عند قتل أبى مسلم فقال

« أيها الناس لاتخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولاتُسِرّوا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكرة الا ظهرت فى آثار يده ، أو فلتات لسانه وأبداها الله لامامه باعزاز دينه واعلاء حقه . انا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه ، ان من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبيءَ هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على انه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه »

المأمون

هو عبد الله أبو العباس بن هرون الرشيد عالم بنى العباس وحكيمهم وأحلمهم وأسمحهم وأكثرهم ايثارا وتكريما للفرس والاعاجم على العرب

ولد سنة ١٧٠ واستقل بالخلافة بقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ وا كتني بأبي جعفر ، ثم توفى غازيا على حدود الروم ودفن بطرسوس وأمه أم ولد فارسية تسمى مراجل

اعتنى الرشيد بتربيته واخوته شديد العناية ، فعهد بتنشئة كل منهم الى جمع من خاصة الدولة وجلة العلماء والمؤدبين ، فاختص أبو محمد اليزيدى بتأديب المأمون ، فحفظ القرآن كله و برع فى اللغة والاخبار ، والادب والفقه من صغره ، ثم لما قوى عقله نظر فى كتب الأوائل التى تقدم أبو جعفر المنصور والرشيد والبرامكة بترجمتها ، وحبب البرامكة وشيعتهم اليه الفلسفة وعلم النجوم والنظر فى عقائد الامم الغابرة وآدابها ، فاحدث كل ذلك فيه حب الفرس وقدماء اليونان والعمل بالحكمة ، ولكن ذلك والحمد لله زاده تشددا فى دينه وتأييدا له تأييدا أخرجه أحيانا عن حد الانصاف فى معاملة الخصوم ، اذ كان معتزليا متشددا ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن وخاصة العلماء وأصحاب الحديث ، فامتنع عليه كثير منهم أحمد بن حنبل كما سنذكره فى ترجمته . وكان من أشد الناس اغراء له على هذه المقالة قاضيه أحمد بن أبى دُؤاد

وتاريخ المأمون السياسى والعلمى ونقله كتب الاوائل الى العربية وتصحيح اغلاطها من الامور المشهورة ، ولا يسعنا هنا الا أن نعده فى عداد الخطباء (اذا كانت الخطابة من خاصة شعار الأئمة) ... وله خطب كثيرة منها خطبته التى خطبها حين بلغه بخراسان قتل أخيه وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فانه صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال

« أيها الناس انى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لاتحله حدوده وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ، ولا نحلة تحرم على ولا أحكم بهواى فى غضبي ولا رضاى الا ما كان فى الله وله ، جعلت كاه لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا انى أفى رغبة فى زيادته اياي فى نعمتى ورهبة من مسألته اياى عن حقه وخلقه . فان غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا وللنكال متعرضا . وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب اليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى و بين معصيته »

عبد الملك بن صالح الهاشمى

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس من أبناء الجيل الثانى من بنى العباس واحد بلغائهم وخطبائهم وقوادهم وسواسهم

نشأ فى حجر الدولة وغزا الصوائف وتولى الولايات وكان أنبل أهل بيته وأنبههم شأنا وأظهرهم نُسكا وأعظمهم وقارا وهيبة

ولى للرشيد بلاد الجزيرة وجُندَ قنسرين والعواصم والشام ومصر ولكنه لم يدخل هذه وأناب عنه

وكان حبله متصلا بالبرامكة فلما نكبهم الرشيد أوحشه أعداء عبد الملك منه وزينوا له أن يتطلع للخلافة وانه يكيد لابنيه الامين والمأمون حتى يفرق بينهما و يستقل بها وأغرى أعداؤه ابنه عبد الرحمن وكاتبه قُمامه أن يشهدا عند الرشيد بغدره . فقبض عليه ثم ألقى فى السجن حتى مات الرشيد وولى الامين . فولاه الجزيرة والعواصم لتسكين فتنه فى الجزيرة .

ومن كلامه انه بعد أن خرج من السجن ذكر له ظلم الرشيد فقال :
«والله ان الملك لشئ مانويته ولا تمنيته ولا قصدت اليه ولا ابتغيته ولو أردته لكان من أسرع الى من السيل الى الحَدور[١] ومن النار الى يابس العَرْفَجَ وانى لمأخوذ بما لم أجن ، ومسؤل عما لا أعرف ، ولكنه والله حين رآنى للملك قمنا وللخلافة خطرا ، ورأى لى يدا تنالها اذا مدت ، وتبلغها اذا بسطت ، ونفسا تكمل لخصالها وتستحقها بخلالها ، وان كنت لم أختر تلك الخصال ولا اصطنعت تلك الخلال ، ولم أترشح لها فى سر ، ولا أشرت اليها فى جهر . ورآها تحن الى حنين الوالدة وتميل الى ميل الهلوك[٢] وخاف أن تنزع الى أفضل منزع وترغب فى خير مرغب ، عاقبنى عقاب من قد سهر فى طلبها ، ونصب فى التماسها وتفرد لها بجهده ، وتهيأ لها بكل وسعه ، فان كان انما حبسنى على أنى أصلح لها وتصلح لى وأليق بها وتليق بى فليس ذلك بذنب فاتوب منه ولا تطاولت اليه فاحط نفسى عنه ، وان زعم انه لاصرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، الا بان أخرج له من الحكم والعلم والحزم والعزم فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظا كذا لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا. وسواء عليه عاقبنى على عقلى أم عاقبنى على طاعة الناس لى. ولو أردتها لاعجلته من التفكير وشغلته عن التدبير ولم يكن لما كان من الخطب الا اليسير ، ومن بذل المجهود الا القليل »

٧ شبيب بن شيبة الأهتمي [٣]

(١) المكان المنحدر (٢) الفاجرة المتساقطة على الرجال (٣) يوجد هذا الاسم فى بعض الكتب مصحفا هكذا (شبيب بن شبة) وهو كما فى شذرات الذهب وتهذيب الكمال فى أسماء الرجال وغيرها من كتب التراجم والتواريخ كما ضبطناه

هو شيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الاهتم المنقرى التميمى وهو ابن عم خالد بن صفوان وكان خطيب بنى تميم فى زمنه

نشأ في البصرة وامتاز بنبالة نفس . وسخاء كف وحسن تواضع . ونزاهة لسان كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حد الاعجاز

ورآه خالد بن صفوان وهو يتكلم فى رهطه فقال يابنى .لقد نعى الى نفسى احسانك فى كلامك لانا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط الا مات من قبله فقال له شبيب بل يبقيك الله ويجعلنى فداءك

وعاش خالد حتى نبه شأن شبيب فنفس عليه حظوته عند قومه ونفاق سوقه عند الامراء ووجوه الناس .ولم يعد الأمر بهما حد التعريض ولحن القول

وقد قال الجاحظ ويقال انهم لم يروا خطيبا بلديا الا وهو فى أول تكلفه بتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيام رياضته كلها الى أن يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الالفاظ الا شبيب بن شيبة ، فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . وقد يطول حتى يقول فيه الراجز

اذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب المنصور قبل خلافته ثم اتصل به بعدها فجعله فى حاشية ولى عهده المهدى . وبقى كذلك حتى ولى المهدى الخلافة فصار من خيرة سماره وجلسائه الى أن مات فى خلافته سنة ١٦٥

ومن خطبه القصار انه لما مات المنصور أظهر عليه المهدى جزعا شديدا ووردت الوفود عليه يعزونه فجعل كل قوم يقولون ما أمكنهم حتى دخل شبيب بن شيبة فعزاه

ثم قال ياأمير المؤمنين « ان الله لم يرض لك اذ قسم لك الدنيا الا بأسناها وأرفعها فلا ترض لنفسك من الآخرة الا بمثل مارضى الله لك من الدنيا وعليك بتقوى الله فانها عليكم نزلت ومنكم أخذت واليكم ردت » ومات للمهدى ابنة تسمى البانوقة وكان ولعا بها ، فشق عليه موتها ، وجزع عليها ، وأكثر الناس فى التعازى واجتهدوا فى البلاغة ، وفى الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب . فاجمعوا على انهم لم يسمعوا تعزية أعجب ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة فانه قال

« اعطاك الله ياأمير المؤمنين على مارزئت أجرا ، وأعقبك صبرا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمه ، ولا نزع منك نعمه ، ثواب الله خير لك منها ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ماصبر عليه مالا سبيل الى رده »

وقال للمهدى « أراك الله فى بنيك ماأرى أباك فيك . وأرى الله بنيك فيك ماأراك فى أبيك »

الكتابة والكتاب

كانت الكتابة فى الدولة الأموية قاصرة على كتابة الدواوين وانشاء الرسائل ، وكان الخلفاء كثيرا مايملون رسائلهم على كتابهم أو يكتبونها بأيديهم

لمكانهم من البلاغة ، ورسوخ ملكة الارتجال فيهم ، فكانت وظيفة الكاتب : اما العمل فى دواوين الجباية والاعطية ونحوها ، واما كتابة الخط الحسن بين يدى الخليفة . ثم لما اتسعت رقعة المملكة وقرت أمور الدولة ، ازدادت الاعمال ، وشغل الخلفاء على أن يلوا الكتابة بأنفسهم ، فعهدوا بها الى كبار كتابهم ، فتوفروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولتهم أن تصير صناعة عتيدة متميزة الاصول ، متشعبة الفروع ، بما أدخله الجيل الناشئ من أبناء الكتاب والموالى بعد نقل الدواوين الى العربية . وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهى لغات أمم ذات علوم وحضارة ونظام ورسوم . ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل وأستاذ عبد الحميد الكاتب الذى آلت اليه زعامة الكتابة ، فمهد سبلها ، ووضح معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختمها ، والاطناب فيها مرة ، والايجاز أخرى ، فكان بذلك شيخ كتاب الرسائل على الاطلاق . ونشأ معه جيل على طريقته كابن المقفع والقاسم بن صُبَيح وعِمارة بن حمزة ويحيى بن زياد وأبى عُبيد الله وزير المهدى ويعقوب بن داود وزيره بعده ، كل هؤلاء كملوا مافات عبد الحميد ، ووصلوا بكتابة الرسائل فى صدر الدولة العباسية الى غاية بعيدة فى البلاغة والبراعة . ولما آل سلطان العرب الى الدولة العباسية لم تعد الكتابة قاصرة على الدواوين والرسائل ، بل تعدتها الى عدة أغراض من أنواع التصنيف والترجمة .

ولذلك وجب علينا أن نفرد لكل قسم من الأقسام الثلاثة مبحثا خاصا به

كتابة الدواوين والرسائل

الدواوين

لما كان انتقال الملك الى الدولة العباسية لم يستدع أكثر من استئصال شأفة الأموية فى المشرق واخماد بعض الفتن ، لم يمض عليهم طويل زمن حتى التفتوا الى تأثيل سلطانهم ، وتنسيق دواوينهم ، فاستعانوا على ذلك بكل ذى معرفة من جميع الأمم ، وخاصة أبناء الفرس ، فأول نظام أدخلوه فى الدولة كان على يد المنصور وكتابه ، ثم تلاه نظام آخر ، ثم على أيدى أبى عُبيد الله ويعقوب بن دواد وزيرى المهدى ، وكتابهما ثم أعقبهما نظام آخر أدق وضعا وأتم ضبطا كان على أيدى يحيى بن خالد بن برمك وولديه الفضل وجعفر

وبقى نظام البرامكة معمولا به مع شئ من التغيير حتى حل محله النظام السلجوقى . وتبع كل هذه التعديلات فى نظام الدولة أن تميزت أعمال كتابة الدواوين وتنوعت أغراضها بتنوعها ، فكان منها ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الخراج والنفقات ، وديوان الجيش ، وديوان المَعاون ، وديوان الرسائل بفرعيه من ديوان الخاتم والتوقيع ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان البريد وديوان الضياع والاقطاعات ، وديوان الخواص ، وغير ذلك وكانت أعمال الكتابة فى كل هذه الدواوين عدا ديوان الرسائل وفرعيه

هى التدوين فى الدفاتر والسجلات وحُسبان الدَّخل والخَرْج ، وما يتبع ذلك من الرسائل التى لاتستدعي تأنقا . ولا مبحث للاديب فى نوع هذه الكتابة، وانما همه معرفة حال الرسائل والتوقيعات فى أزمانها المختلفة ، اذ كانت مثارا للبلاغة ومجالا لسوابق البراعة

الرسائل

ديوان الرسائل

كانت رسائل الدولة ذوات البال من ديوان الرسائل تصدر ، واليه ترد ، ولذلك كان لايتولاه من رجالات الدولة الا فحول البلاغة ، وأهل العلم والادب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم الملوك

وكان النظر فيه غالبا للوزير ، اما مستقلا به ، أو مستنيبا عنه ، لموضعه من ضبط أسرار الدولة ، وحفظ كرامتها ، وتفخيم شأنها فى أعين الرعية والملوك فكان وزراء الامراء فى ذلك العهد ، هم شيوخ الكتاب وأستاذيهم

كتابة الرسائل

قلنا ان كتابة الرسائل فى أوائل حكم بنى العباس كانت جارية على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أمية سالكة الطريق الذى سلكه عبد الحميد وابن المقفع ونظراؤهما من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الاوضاع والاساليب ، لايقصد بها الا افهام المعنى الجيد بوضوح و بلاغة وقوة حجة ،

غير منظور فيها الى زخرف اللفظ ومحسناته ، وبقيت كذلك بل زادت حسنا وجمالا ومراعاة لمقتضى الاحوال نحو مائة وخمسين سنة ، ثم غلبت عليها الصناعات اللفظية بضعف ملكة البلاغة ، وتقاصر الهمم عن استيفاء أدواتها، وما زالت فى جمود وتناقص حتى ابتدأ عصر اضمحلالها بسقوط الدولة العباسية أو قبيله كما سيأتى فى موضعه .

ومجمل التغيرات التى حدثت فى الكتابة في صدر الدولة ـ أى فى العصر الذى نحن بصدد الكلام عليه ـ يرجع الى ما يأتى

(١) تعدد موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم العديدة التى استحدثت فى الدولة من كتابة بيعة لخليفة أو ولى عهد أو عهد لوال أو قاض ، أو منشور باعلان أمر سياسى أو دينى ، أو رسالة مطولة فى تقرير مذهب كرسائل الخميس التى كانت تقرأ فى خراسان على شيعة بنى هاشم ، ونحو ذلك وبعض هذه الامور ـ ككتابة عهد الوالى أوالقاضى ـ كان يكتب فى عصر بنى أمية والخلفاء الراشدين ، غيرأنه كان وجيزاساذجا، يقتصر فيه على نص التولية ، أما فى عصر العباسية فقد كان كل نوع من الانواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب ،فالبيعة كانت تشحن بالايمان المحرجة التى تفنن الكتاب والفقهاء فى اختراعها ، وكان يفصل فيها مايجب للخليفة على الامة ، ومايجب للامة على الخليفة ، وعهد الوالى أو القاضى يفصل فيه الصفات الحسنة التى رغبت الخليفة فى اختياره،وعدد البلدان والنواحى التى يتولاها ونوع العمل الذى يعمله ، من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء ، والوصايا بالامور التى يجب أن يأخذ

بها الرعية ، وغير ذلك مما لم يكن له أصل فى الاموية ، أو كان له أصل غير مستوفى .

(٢) الغلو فى طرفى الاطناب والايجاز ، بحسب مقتضيات الاحوال، فقد كانت الكتب التى تقرأ على العامة من بيعة أو منشور أو أخذ بسياسة أو احتجاج لمذهب أو تفصيل انتصار جيش أو نحو ذلك تكتب بغاية الاسهاب والتبيين والايضاح تقريرا لها في أذهان العامة ، وتفخيما لشأن السلطان ، وتعظيما لنعم الله عليه وعلى أهل بيته . ومثل ذلك الكتب التى يكتبها الولاة للسلطان بتقرير حادثة أو تفصيل لامور احدثت اختلالا فى سياسة أو جباية خراج أو تنصل من تهمة لحقته أو نحو ذلك

وعلى عكس ذلك كانت الكتب التي تصدر من الخليفة أو الوزير أو الرئيس الى الولاة والمرءوسين فى أمر أو نهى أو سؤال عن حدث ونحوها الا فى أحوال خاصة تستدعى الاطناب ، فقد كان غلوهم فى الايجاز يصل الى درجة الاشارة والرمز ، ويخل بشرط البلاغة . وفى ايثار الايجاز يقول جعفر ابن يحيي لكتابه : ان قدرتم ان تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكان مع اعجابه بالايجاز يقول : متى كان الايجاز أبلغ كان الاكثار عيا ، ومتى كانت الكتابة فى موضع الاكثار كان الايجاز تقصيرا .

وأمثلة الاطناب كثيرة يضيق مقامنا عن ذكر مثال منها فى ذلك العصر وتراها ممثلة فى الكتابات التى دارت بين المنصور ومحمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية وفى رسائل الخميس لعمارة بن حمزة وأحمد بن يوسف وابراهيم الصولى وغيرهم

أما أمثلة الايجاز فكثيرة أيضا. فمن المحمود فيها ما كتب به جعفر الى عامل شكى له (قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت)

وقول عمرو بن مسعدة فى وصاة (كتابى اليك كتاب معنىً بمن كتب له واثق بمن كتب اليه ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية)

(٣) سهولة العبارة وانتقاء الفاظها وجودة رصفها فوق ما اتبعه المتأخرون من كتاب بنى أمية كقول بعض كتاب العباسيين : ولولا ان أجود الكلام ما يدل قليله على كثيره وتغنى جملته عن تفصيله لوسعت نطاق القول فيما انطوى عليه من خلوص المودة وصفاء المحبة فجال مجال الطرف فى ميدانه وتصرف تصرف الروض فى افتنانه لكن البلاغة بالايجاز أبلغ من البيان بالاطناب

(٤) زيادة أنواع البدء والختام فى الرسائل فكانت تبتدأ العهود بعبارات غير ما تبتدأ به المنشورات والرسائل المطولة ، ورسائل السلطان تبتدأ بغير ما تبتدأ به رسائل العمال أو الاخوان، ومثل ذلك الختام

ويمكننا ان نجمل الاساليب التى كانت تفتتح بها الرسائل الصادرة عن الخلفاء من ديوان الرسائل فى هذا العصر فيما يأتى

« (١) الصورة القديمة التى كانت تفتتح بها كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى امية مع احداث بعض تغيير، واصل الصور هكذا

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله امير المؤمنين الى فلان . سلام عليك اما بعد فانى أحمد اليك الله (اوفان امير المؤمنين يحمد اليك الله) الذى لا اله الا هو وان الامر كذاوكذا)وزاد خلفاءُ بنى العباس فى هذه الصورةغالبا لفظ(الامام) بعد اسم الخليفة ، وغبروا على ذلك الى زمن الرشيد ، فزاد فى كتبه بعد التحميد الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم فصارت سنة بعده ، فكان هذا الاسلوب يكتب هكذا «من عبدالله فلان الامام الفلانى امير المؤمنين الى فلان سلام عليك فان امير المؤمنين يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله ان يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم} فعدت هذه الزيادة من اجل مناقبه

ولما صارت الخلافة الى الامين اكتفى فى كتبه وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ، فكانوا يكتبون « من عبد الله فلان أبى فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين » وربما أخروا فى هذه الصوره * (أما بعد) الى مابعد التحميد والصلاة، وجعلوها أمام الغرض فقالوا « من عبد الله فلان أبى فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين الى فلان سلام عليك فأنى أحمد الخ * أما بعد فان كذا وكذا ولا يقال (السلام عليك ولا أحمد اليك) الا لمسلم طائع ، أما غيرهما فكان يقال : سلام على من اتبع الهدى ، ويحذف فى التحميد لفظ « اليك »

وكتابة العمال الى الخلفاء اذا كانت على هذه الصورة يقال فى أولها (لعبد الله فلان أبى فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين) من فلان ابن فلان

مولى أمير المؤمنين (ان كان من الموالى) سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فأنى أحمد اليه الله الذى لااله الا هو وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله « أما بعد » أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وكرامته وحراسته وأتم نعمته (فى دعاء مثل هذا) ثم يتخلص الى غرضه

(ب) الصورة المختصرة من السابقة وهى

بسم الله الرحمن الرحيم

(أما بعد فأن كذا) وهذه قديمة أيضا منذ أول الاسلام ، أى أما بعد البسملة ، وهذه الصورة كثر استعمالها جدا فى زمن العباسيين وغيرهم فى رسائل السلطان والاخوان لاختصارها

(ج) صورة تقديم البعدية بعد البسملة ثم التعقيب بالحمد اما مفردا أو مكررا

وهذه الصورة من اختراع عبد الحميد ، وتبعه كتاب العباسيين وتفننوا فيها ، وأكثر ماتكتب هذه الصورة فى الحوادث التى تستدعى تعداد نعم الله على الخليفة او على من يكتب له كحوادث النصر والبيعات والعهود والمراسيم والرسائل المطولة ، ويعدد الكاتب فى التحميد ان كان مكررا كثيرا من آلاء الله وتعظيمه وتنزيهه بما يناسب القصة ويشير اليها ، ثم يتشهد ويصلى على النبى ويتخلص الى المقصود

ومثال ذلك ما كتب عن المعتصم الى ولاة الآفاق من المسلمين عند قبض الافشين على بابك الخرمي صاحب البذ الخارج على المأمون والمعتصم

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فالحمد لله الذى جعل العاقبة لدينه ، والعصمة لاوليائه ، والعز لمن نصره ، والفلاح لمن اطاعه ، والحق لمن عرفه ، وجعل دائرة السوء على من عصاه وصرف عنه ، ورغب عن ربو بيته ، وابتغى الها غيره ، لااله الا هو وحده لاشريك له . يحمده أمير المؤمنين حمد من لايعبد غيره ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يفوض أمره الا اليه ، ولا يرجو الخير الا من عنده (الى نحو عشر سجعات ثم قال) والحمد لله الذى تولى أمير المؤمنين بصنعه فثبت له أمره ، وصدق له ظنه ، وأنجح له طلبته (الى نحو من ذلك ثم قال) فالحمد لله كثيرا كما هو أهله ، ونرغب الى الله فى اتمام نعمه ، ودوام صنعه ، وسعة ماعنده بمنه ولطفه ، (ثم تخلص الى المقصود بقوله) ولا يعلم أمير المؤمنين مع كثرة أعداء المسلمين مثل بابك ... الخ)

(٠) صورة البداءة بالحمد لله وأصلها مختلس من الاسلوب السابق ويظهر أنها من ابتداع العباسيين ، ويراعى فى هذه الصورة ماروعى فى غيرها من جميع الوجوه

(ه) صورة الابتداء بالدعاء اما بتقديم « أما بعد » أو بغيرها ، وتكون فى الكتب الصادرة من الخليفة الى أخصائه من أهل بيته أو وزرائه والمقربين اليه . وقيل انها من اختراع الزنادقة مناصبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شاع استعمالها عند غير المتورعين ومن أمثلتها (أمتعنى الله بك ، و بدوام النعمة عندى بك ، وبقاء الموهبة لى منك) وما جرى هذا المجرى . وهذه الصورة هى التى كانت تستعمل غالبا فى رسائل الاخوان،

ثم صاروا في آخر هـذا العصر يكتبون (كتابى اليك) ويردفونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف لحال الكاتب حين الكتابة أو نحو ذلك ، وأكثر ما يكون ذلك بين الاخوان والخواص

(و) أما الامر فى البيعات التى كانت تؤخذ للخلفاء على الناس عند توليهم فقد كانت فى الصدر الاول من الدولة العباسية كما كانت فى الاموية تؤخذ مشافهة ومصافقة ، يقف الخليفة فيخطب بموت سابقه وانه وارثه بعهد منه أو باتفاق أهل الحل والعقد من المسلمين فلما اضطرب الامر وصار يلى الخلافة من لم تستحكم مرته ، ولم يقدر على ارتجال الخطب ، وجهل العامة شروط الخلافة وأيمانها وصيغها ، اضطر وزراء الدولة أن يكتبوا صورها وتتلى على الناس يوم تولية الخليفة ، ويوقع عليها أهل الحل والعقد منهم ، وكانت صورها تفتتح بمثل ما يأتى (وهـذه صورة بيعة المنتصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

تبايعون عبد الله فلان الفلانى أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضى ورغبة بأخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نياتكم ، لامكرهين ولا مجبرين « فى كلام من نحو هـذا » ثم تكتب الايمان المحرجة على الوفاء والطاعة وعدم النكث

(ز) أما الكتابة بولاية العهد فقديمة منذ كتبها أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما ، وبقيت متبعة بصور تكاد يتفق افتتاحها ، وهى :
هـذا ما كتبه عبد الله فلان الفلانى الى خاصة المسلمين وعامتهم انى قد

وليت عليكم فلانا الخ

ثم قد تكتب بنحو (هذا كتاب كتبه عبد الله فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين وأشهد الله على نفسه بجميع مافيه ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وكفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لفلان الفلانى فى أصالة من رأيه ،وعموم من عافية بدنه (ثم يذكر به ولى العهد بخير من رعاية المسلمين والقيام بحقوق الدين ويحث على طاعته

(ح) وعلى مثل هذا كتابة الشروط التى تؤخذ على الخلفاء للرعية من أمان ونحوه ، أو للخلفاء على الرعية ، أو الخارجين عليهم ، أو ملوك دار الحرب من تقديم طاعة ، وعقد هدنة ، وفداء أسرى ، ونحو ذلك

(ط) أما افتتاح عهود الولاة والقضاة فقد كان المتبع فيه فى صدر الدولة ما كان متبعا زمن الخلفاء الراشدين وبنى امية من قولهم « هذا ماعهد به عبد الله فلان الفلانى امير المؤمنين الى فلان بن فلان حين ولاه ولاية كذا اعمالها وخراجها الخ « امره بتقوى الله وطاعته » ثم يذكر بعد من الوصايا مايريد

ثم صارت العهود تكتب بتحميد وصلاة وسلام ومقدمة طويلة فى مزايا الوالى او القاضى ثم التصريح بالتولية ثم الوصايا

(ى) اما المنشورات فكانت تكتب اول هذا العصر هكذا

هذا كتاب من فلان امير المؤمنين الى عامل ولاية كذا والى من قبله من المسلمين « او الى خاصة المسلمين وعامتهم » يأمرهم فيه

بكذا وكذا

ثم صار لماصور افتتاح مختلفة من تحميد طويل ومقدمة تشرح سبب المنشور الخ

وكانت صور الاختتام لاتقل عن صور الافتتاح فكان لفظ (والسلام) هو الغالب والمقدم ، او السلام عليك ورحمة الله وبركاته، ثم استعمل فى الختام « ان شاء الله تعالى » وتأتى بعد المستقبل وما فى معناه كقولهم « فان رايت ان تفعل ذلك فعلت موفقا ان شاء الله تعالى » او بعد (فرايك فى ذلك موفقا ان شاء الله تعالى) او بعد الدعاء .

وقد يكون الختام بمجرد الدعاء . وقد يكون بحمدلة وصلاة وسلام على النبي صلى الله عليه وسلم فى الرسائل المطولة التى تبتدأ بخطب كما قدمنا . وقد يكون الختام بالحسبلة كقولهم (وحسبنا الله ونعم الوكيل) او (وهو حسبي ونعم الوكيل) وتكون مفردة او مع الحمدلة والصلاة على النبي وا كثر ماتكون فى ختام المنشورات والمشارطات ونحوها

وقد تختم العهود بها او بمثل(وكفى بالله شهيدا)

ويكتب الكاتب بعد هذه الخواتم فى سطر مستقل

«وكتب فلان الفلانى في تاريخ كذا»

(٥) زيادة الرسوم فى ألقاب والدعاء واختصاص كل ذى مرتبة بلقب او دعاء لايتعداه . واستفحل هذا الامر فى اواخر هذا العصر. واصل ذلك ان الكتاب كانوا يلهجون مما يطيب عندهم او فى نفوس

رؤسائهم من الدعاء فجرهم ذلك الى الغفلة وعدم الاحتراس والدعاء لكل بما يناسبه ، فكتب بعض عمال السيدة زبيدة على ضياع لها « وأدام كرامتك » فوقعت على ظهر كتابه « أردت أن تدعو لنا فدعوت علينا ، فأصلح خطأك ، والا صرفناك عن جميع أعمالك » فأدركه القلق ، وتصفح الكتاب فلم يظهر له فيه شيء ، فعرضه على بعض حذاق الكتاب فقال : انما كرهت قولك فى صدر الكتاب « وأدام كرامتك » لان كرامة النساء دفنهن فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «دفن البنات من المكرمات» ، فغير ذلك الحرف وأعاد الكتاب اليها فوقّعت على ظهره « أحسنتَ ولا تعدْ »

(٦) اختراع المقدمات فى اوائل الرسائل المطولة وبعض العهود والمنشورات ، حتى صار الكتاب الخالى منها فاقدا الحلية من حلى الصناعة ، ثم تبع ذلك ماسموه براعة الاستهلال وهى افتتاح كل رسالة بما يناسب ما كتبت فيه

(٧) اما جودة المعانى واختراعها ، ودقة الأخيلة وابتداعها ، فكانت غاية كل كاتب مجيد فى اكثر هذا العصر ، ثم جنحت شيئا فشيئا الى جانب التهويل والمبالغة في اواخره ، وفشت في العصر الذي يليه

(٨) وجملة القول ان الكتابة فى هذا العصر كانت ارقى ماوصل اليه التحرير العربي . نسأل الله ان يعيد للبلاغة العربية نشأة اخرى تعيد لها مجدها ، وتجدد آدابها

كتاب الرسائل

طبقاتهم

لانذكر من كتاب الرسائل الامن قرر علينافى برنا مجنادراسة أخبارهم وهم بعض فحول الطبقات الاربع الاول من كتاب العصر الأول من بنى العباس وجميعها ست طبقات

الطبقة الاولى . الطبقة التى أدركت الدولتين وهى طبقة ابن المقفع ويحيي ابن زياد الحارثي وعمارة بن حمزة وأبي أيوب المورياني ممن كتب للمنصور

الطبقة الثانية . طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيري المهدى ويحيي بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتب للمهدى والهادي والرشيد

الطبقة الثالثة . طبقة جعفر بن يحيي وأخيه الفضل واسماعيل بن صبيح والفضل بن سهل والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وأحمد بن أبي خالد الاحول ممن كتب للرشيد والامين والمأمون

الطبقة الرابعة . الطبقة التى ربيت فى عصر المأمون ، وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلية ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ، واليها انتهت البلاغة ، وهي طبقة ابن الزيات وابراهيم الصولى وسعيد بن حميد والحسن بن وهب وسليمان بن وهب وأحمد بن اسرائيل و بني المدبر والحسن بن مخلد ممن كتب للمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد

الطبقة الخامسة . طبقة عبيد الله بن سليمان بن وهب وأبي العباس بن ثوابة وأبي الحسن على بن الفرات وعلى بن عيسى بن الجراح ممن كتب للمعتمد

والمعتضد والمكتفى والمقتدر

الطبقة السادسة . طبقة أبي على بن مقله والحسين بن عبيدالله بن سليمان ابن وهب وأبى الفضل جعفر بن الفرات ممن كتب للمقتدر والقاهر والراضى وأدركت هذه الطبقة العصر الثانى

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع احد فحول البلاغة ، وثانى اثنين مهدا للناس طريق الترسل ، ورفعا لهم معالم صناعة الانشاء ، أولهما عبد الحميد بن يحيي

منشؤه ومرباه : كان ابن المقفع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب ، وأصل أهله من خوز « أرض بين فارس والبصره » ولد حوالى سنة ست ومائة من الهجرة ، ونشأ بالبصرة . وكان والده مجوسيا يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف الثقفى على رواية أو لخالد القسرى على أخرى وهى أقربهما للصحة ، فاتهم فى خيانة فضربه الحجاج أو يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسري فتقفعت يده (أي تشنجت) فسمى من ذلك الحين « المقفع » وكان اسمه الفارسى « داذويه » و يلقب بالمبارك . وأما تسميته بالمقفع لعمله القفاع وهى أوعية تتخذ من سعف النخل فليست بشيء

و بقى ابن المقفع على دين المجوسية أكثر عمره ، وكان يسمى (روزبه) و يكنى أباعمرو ، ثم أسلم في كهولته على يد عيسى بن على بن عبدالله بن عباس وسمى عبدالله ، وكنى أبا محمد

واذ كان أبوه من عمال الخراج وكتاب الدواوين والدولة حينئذ عربية محضة ، أخذه بتعليم صناعة الكتابة واستكمال عتادها، واستيفاء اداتها، بالتفوق في العربية والفارسية فقد كان منتهى شرف الفارسي في ملك بني امية ان يكون كاتبا او مترجما او عالما ، فلم يبلغ روزبة سن الشبيبة حتى جمع كل هذه الخصال بأمور تهيأت له فوق ذكائه المفرط ، وسلامة ذوقه

منها — انه نشأ بالبصرة حلبة العرب وعش الفقهاء والرواة والمحدثين واصحاب اللغة ، وحاضرة البر والبحر ، وقرارة المربد منتدى البلغاء والخطباء والشعراء

ومنها — نشأته هو وابوه في ولاء آل الأهتم بيت الخطابة ومعدن الفصاحة من تميم

ومنها — ملازمته في شبيبته لعبد الحميد فاكتسب كل منهما فضائل صاحبه

ومنها — عنايته بالرواية والأخذ عن الأعراب الذين كانوا يفدون البصرة ولاسيما ابي الجاموس ثور بن يزيد ، وهو اعرابي كان كثير الانتجاع لآل سليمان بن علي ، فتخرج عليه في الفصاحة

تصرفه وعمله : ولما ذاع فضله استكتبه في عصر بني امية داود ابن عمر بن هبيرة ، ثم اتصل في زمن بني العباس بعيسى بن علي ايام ولايته على كرمان فصار كاتبا له وعلى يديه اسلم، جاء اليه يوما وقال له :قد دخل الاسلام في قلبي ، واريد أن اسلم على يدك ، فقال عيسى ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فاذا كان الغد فاحضر. وحضر طعام العشاء فجلس ابن المقفع مع عيسى يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى :

أتزمزم وانت على عزم الاسلام ؟ فقال: اكره ان ابيت على غير دين فلما اصبح اسلم وغير اسمه وكنيته، ثم ألزمه اسمعيل بن على بعض بنيه ليعلمه، ثم كان في خدمة سليمان بن على ايام ولايته على البصرة و يظهر انه اتصل بعد ذلك بأبي جعفر المنصور اتصال معرفة لا اتصال خدمة لاتفاق اكثر المؤرخين على انه ترجم اكثر كتبه الادبية له وهم ايضا يصرحون بانه بقى في خدمة عمى المنصور حتى قتل بالبصرة لمغاضبة ومشاكسة بينه وبين سفيان بن معاوية واليها، فكان ابن المقفع يستطيل عليه محتميا بعيسى وسليمان عمى المنصور، وهذه المنازعة تستدعى اقامة طويلة بالبصرة قبل قتله

عقيدته : — يتهم كثير من أهل الاخبار ابن المقفع في اسلامه، كانهم رأوا أنه رغب بذلك في دنيا يحصلها من دولة بنى هاشم، وأن اتصاله بسليمان وعيسى عمى المنصور وكتابته لهما وتوليه لهما باسلامه أطمعه فى ذلك وهو بعد شاب لم يبلغ من العمر ثلاثين سنة ولهم فى ذلك شبه

منها — أن أكثر كتب الملاحدة من الثنوية كالمانوية والمزدكية والمرقوية وغيرهم ممن كان يطلق عليهم اسم (زنادقه) ترجمها ابن المقفع. وروى جعفر بن سليمان عن المهدى أنه قال ماوجدت كتاب زندقة قط الا وأصله ابن المقفع

ومنها — مصادقته ومصافاته لبضعة عشر نفرا اتهموا كلهم بالزندقة والكيد للاسلام وقتل بعضهم فى ذلك

ومنها — زمزمته على الطعام ليلة بيّت الاسلام

ومنها — مارواه عمر بن شبة أنه قال حدثنى من سمع ابن المقفع

وقد مر علي بيت نار للمجوس بعد ان أسلم ينشد

يابيت عاتكة الذى أتعزل * حذر العدا و بك الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود واننى * قسما اليك مع الصدود لأميل

وأقول « لم تقم في التاريخ حجة قوية على نفى هذه الشبه ، ولا سيما الاولى الا مايوجد فى رسائله الادبية التى كتبها لبنى هاشم وبقيت بعده لخلوها من الزندقة »

علمه وذكاؤه وأخلاقه : ـ المشهور أن ابن المقفع كان نادرة فى الذكاء ، غاية فى جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس . ويقال انه لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ، الا أنه لم يكن كيسا حازما وكان الخليل بن أحمد ، يحب أن يرى ابن المقفع وهو يحب أن يرى الخليل ، فجمعهما بعض الكبراء فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا ، فقيل للخليل : كيف رأيت عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثله ، وعلمه أكثر من عقله . وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل ؟ فقال : مارأيت مثله ، وعقله أكثر من علمه . فقال : بعضهم صدقا فى ذلك ، فان عقل الخليل أداه الى أن مات أزهد الناس ، وان نقص عقل ابن المقفع أداه الى أن كتب أمان عبدالله بن على بصورة أفضت الى قتله

وكان فى سائر أحواله متأدباً متعففا قليل الاختلاط الا بمن على شاكلته كثير الوفاء لاصحابه

فصاحة وبلاغة

كان ابن المقفع أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى الى بيان، غرض وسهولة لفظ ورشاقة اساوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة وقدقيل له: ماالبلاغة ؟ فقال : (هى التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها) ، و بسلوك هذه الطريقة ينصح للكتاب وأهل الصناعة قال لبعضهم : (اياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة ، فان ذلك هو العى الاكبر) — وقال لآخر (عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنب لالفاظ السفلة) وانما صعبت عبارته فى الادبيين ونحوهما لانه ساقها مساق الفلسفة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد فى توخى السهولة وسلاسة التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتاب من أهل زمانهما ومن بعدهما وصارت مثالا يحتذى ، وربما كانت آية لمن بعدهما من الكتاب المشهورين بذلاقة اللسان وسهولة القلم كسهل بن هارون وأحمد بن يوسف والجاحظ

أما الموازنة بينه وبين عبد الحميد فمع شدة تقاربهما ذوقا وخلقا يرى الباحث المدقق أن عبد الحميد غلبت على اساليبه الصبغة العربية المحضة الجارية على منهج السليقة والخيال الفطرى ، اذ لم يعرف أن عبد الحميد تكلم بغير اللسان العربي المبين ، وان ابن المقفع يغلب على اساليبه القياس المنطقى وتصورات الفلاسفة الدقيقة التي قلما تظهر للقارى الا بتعمل وصناعة ، وترى ذلك واضحا فى رسائله فى الادب والاخلاق

مترجماته ومصنفاته : — يُعدّ ابن المقفع من فحول المترجمين والنقلة من اللسان الفارسي . ولولا شهرته بالكتابة لذكرناه فى عداد المترجمين — وكتابه كليلة ودمنة الذى ترجمه من اللغة الفارسية الفهلوية حجة ناطقة بذلك . وله عدة كتب مترجمة عن الفارسية ككتاب مزدك فى بعض مذاهب الثنوية ، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان . وكتب أخرى في عقائد المجوس والاباحيين ، وهو أول من اعتني فى الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية فترجم لابي جعفر أو لعميه من الفارسية عن ترجمة اليها من اليونانية والسريانية كُتب ارسطاطاليس المنطقية ، وكتاب ايساغوجي لفرفريوس الصورى . وله من المصنفات الحسنة البليغة رسالتا الادب الكبير والصغير وكتاب اليتيمة فى طاعة السلطان :

قتله — : المشهور أن قتله كان بسبب الامان الذى كلف من قبل عيسى وسليمان عمى المنصور أن يكتبه عن لسان المنصور لاخيهما عبد الله الذى كان خارجا عليه وهرب عندهما فانه تصعب فيه وتشدد على المنصور فكان مما كتب (ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته)

فاشتد ذلك عليه وخاصة أمر البيعة وحقدها وأوعز الى سفيان والى البصرة أن يقتله خفية فزاره يوما لأمر فامر بتقطيعه وحرقه وتذرية رماده في بطيحة البصرة وطالب عما المنصور بدمه عنده من سفيان فلم يجدا منه مايحبان

والمعقول أن ذلك لم يكن هو السببَ الحقيقى لأن المنصور أمضى [1] هذا الأمانَ وأقرَّه ولم يرُدَّه، فكيف يقبله ويقتل كاتبه . والقريب الى العقل ماذكره المؤرخون من أن ابن المقفع كان كثير الوقيعة فى سفيان ، وكان كثيراً ما يُقرِّعه ويَعيبه فى مجالسه أمام أعيان البصرة ، وأن المنصور كان قد ابتدأ بالفتك بالزنادقة ، فانتهز سفيان الفرصة فاغتاله ، وثبت عند المنصور زَيغُه فتراخى فى المطالبة بدمه . وكانت وفاته سنة ١٤٢

رسائله — . ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال ، ويضيق المقام عن ذكرها هنا ومنها القصار ، ونذكر نَموذجا منها

كتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة

« أما بعد » فان من قضى الحوائج لاخوانه وَاستَوْجَبَ بذلكَ الشكر عليهم فلنَفْسِهِ عمِلَ لا لَهُم . والمعروف اذا وُضِعَ عندَ من لا يشكُرُه فهو زرع لا بُدَّ لزارعه من حَصاده أو لعَقِبِهِ منْ بعدِه وكتبتُ اليك ولحالنا التى نحن بها فيما نذكُر لك حاجةٌ أوَّلُ ما فيها معروفٌ تَستَوْجِبُ به الشكرَ علينا وتدَّخرُ به الأيادىَ قِبلنا »

« وعزى بعضهم فقال »

« أما بعد » فان أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يُدَبِّرهما ، وَيَقْضِى فيهما ما يشاء ، لارادَّ لقضائه ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ ، فان الله خلق الخلقَ بِقُدرَته ، ثم كتبَ عليهم الموتَ بعدَ الحياةِ لئلاّ يَطمَعَ أحدٌ من خلقه فى

(1) انفذ

خلد الدنيا ، ووقّتَ لكل شيء ميقاتَ أجلٍ لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون ، فليس أحدٌ من خلقهِ إلا وهو مُستيقنٌ بالموت لا يرجوان يُخلّصه من ذلك أحدٌ ، نسأل الله تعالى خير المُنقلب

و بلغنى وفاةُ فلان ، فكانت وفاتُه من المصائب العظام التى يُحتسبُ ثوابُها من ربنا الذى اليه مُنقلَبنَا ومعادنا وعليه ثوابنا

فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله . فأنه جعلَ لأهل الصبر صلوات منه ورحمةً وجعلهم من المهتدين »

وله فى السلامة

« أما بعد » فقد أتانى كتابك فيما أخبرتَنا عنه من صلاحك وَصلاح من قِبلَك وفى الذى ذكرتَ من ذلك نعمةٌ مجلّلةٌ عظيمةٌ ، نحمَد عليهاوَليّها المنعم المتفضل المحمودَ ونسأله أن يُلهِمَنا واياك من شكرِه وَذِكرِه مابه تَمزيدُها وتأديةُ حقّها

وسألتَ ان أكتبَ اليك بخبرِنا ونحن من عافيةِ الله وكِفايتهِ وَدِفاعه على حالٍ لو أطنبتُ فى ذكرها لم يكن فى ذلك احصاء للنعمة ، ولا اعتراف لكُنه الحقِّ ، فنرغبُ للذى تزدادُ نِعَمُه علينا فى كل يوم وليلة تظاهُرًا ألا يجعلَ شكرَنا منقوصا ولا مدخولا وان يرزقَنا من كل نعمةٍ كفاءها من المعرفة بفضله فيها ، والعملَ فى أداء حقها انه ولى قدير »

فأنت ترى السهولة والجزالة تتدفقان من رسائله لاخوانه ، وعلى نمطها كتاب كليلة فى أكثر مواضعه ، ولكنك ترى فى كتبه فى الحِكَم والأخلاق

طريقته فى تنسيق الأقيسة وتمحيص الحقائق مما يتضح لك به الفرق بينه وبين عبد الحميد فى بعض الوجوه كما قدمنا ، فمن ذلك ما كتبه فى الأدب الكبير المطبوع باسم اليتيمة خطأ

لِيَكُنْ ما تصرِفُ به الأذى والعذابَ عن نفسك الاّ تكون حسودا فان الحسدَ خُلق لئيمٌ ومن لؤمه انه يوَكّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والخلفاء[1] فليكن ما تقابِلُ به الحسدأن تعلَمَان خيرَ ماتكونُحين تكونُ مع من هو خير منك ، وان غُنْماً لك ان يكونَ عشيرُكَ وخَليطُكَ أفضَلَ منك فى العِلْم ، فتقتبسَ من عِلمه ، وأفضلَ منك فى القُوّةِ ، فيدفعَ عنك بقوته ، وأفضلَ منك فى المال ، فتُفيدَ من ماله ، وأفضلَمنك فى الجاه فتُصيبَ حاجَتكَ بجاهِهِ وأفضل منك فى الدّين ، فتزداد صلاحابصلاحه »

وعلى هذا النمط كل رسائله فى الأخلاق والسياسة وطاعة السلطان

جعفر بن يحيى

هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد وأحد أجوادالدنيا وأشهر وزراءالدولة العباسية سياسةَ ملك ، وقيادةجند ، وفصاحةَ لسان ، وحسن بيان ، وبلاغة توقيع ، وأصل أجداده البرامكة سَدَنةٌ لبَيت النُوبَهار وهو بيتالنار متعبدالمجوس بمدينة بَلْخ فلما فتحالمسلمون هذهالمدينة . وهدموا النوبهار دخل كثير من أهل بلخ فىالاسلام وفيهم خالد بن برمك

(١) الوكلاء

وكان أبوه المسمى جاماس هو برمك البيت ، فهلك على المجوسية ، ودخل خالد فى الدعوة العباسية فكان من أشهر قواد أبي مسلم ، ولبلائه في الدولة ولاه المنصور وزارته ثم جعله واليا على بعض الاقاليم ، فنشأ له ابنه يحيى فى أخلاق الملوك وتربيتهم ، وكان أشهر أهل زمانه علما وعقلا فوكل اليه المهدى تربية ابنه الرشيد فكان رضيعا لابنه الفضل ، واستعمل يحيى الحزم والعزم فى صرف الهادى عن خلع الرشيد من ولاية العهد حين هم الهادى بالعهد لابنه الصبى ، فلما مات الهادى قام بأخذ البيعة للرشيد ، فعرف له سعيه فى تأييد خلافته ، فاتخذه وزيرا ، وألقى اليه مقاليد المملكة ، وكان يخاطبه يا أبت ، ثم أقاله وجعل ابنه الفضل وزيرا ، ثم أقال الفضل وجعل أخاه جعفرا وزيرا ، ويحيى فى كل هذه الاحوال هو المشير المدبر

ولد جعفر سنة ١٤٢ ورباه أبوه تربية الملوك ، وألزمه العلماء والفقهاء والادباء والحذاق فى كل شئ حتى صار نابغة زمانه ، واصطفاه الرشيد وآثره على أخيه بالوزارة ، فكان من نفاذ الأمر وقبول الشفاعة ، وشدة الدالّة عنده بمنزلةٍ لم يَشْرَكه فيها غيره ، وبقى جعفر مدة عمله للرشيد تارة يتولى الوزارة وتارة يلى أعمال ممالك الغرب فيخلفه أبوه على ديوان الخاتَم وهو فى كل ذلك محبوب عند الرشيد حبا غلبه به على كل أمره ، غير أن البرامكة لم يَرْعوا حق هذه الكرامة ، فاستأثروا بأموال الدولة ، ومالئوا العلويين على الرشيد وسعوا فى ازالة ملكه ، ثم تبين له أنهم زنادقة يكيدون فى الباطن للاسلام ، ويحاولون اعادة ملك المجوس ، ويبذلون مالهم وجاههم فى تأييد الشُّعوبية ،

احمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبيح كاتب دولة بنى العباس وأحد فحول المترسلين ، أصل أبائه من قبط مصر وهم موال لبنى عجل بالكوفة وكتبوا لعمال بنى أمية ثم اتصلوا ببنى العباس وكتبوا لهم

درج أحمد فى بيت كتابة و بلاغة وشب على ممارسةٍ لاعمال الدواوين واضطلاع باغراض الملوك ، فخرج كاتبا بليغا مكثرا ، وشاعرا مُقِلّا ، تخرّج على أبيه وكُتّاب زمانه وأخصهم أَنَس بن أبى شيخ كاتب البرامكة ، وكان أبرع أهل بيته كتابة ، وأنبههم ذكرا . وكان أخوه القاسم أشعر منه

بقى أمره بموت أبيه ونكبة البرامكة خاملا بقية أيام الرشيد وأيام بعض الامين ثم ابتدأ فى الظهور بعد قتل المخلوع ، فاتفق الرواة على ان أول ما ارتفع به فى سلطان المأمون كتابُه الذى كتبه عن طاهر بن الحسين يبشر المأمون وهو بمرو بفتح بغداد وقتل الامين ويعتذر عن قتله ، ولكنهم اختلفوا أين كُتب . ومن الذى أمره بكتابته فقال الصُّولى كتب ببغداد . وذلك انه لما قتل المخلوع أمر طاهر الكتاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا . فقال طاهر : أريد أخصر من هذا. فوصف له أحمد بن يوسف فكتب هذا الكتاب المشهور وهو

« أما بعد فان المخلوع وان كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللُّحمه ، فقد فرّق حُكم الكتاب بينه و بينه فى الولاية والحُرمة ، لمفارقته عِصمة الدين وخروجه عن اجماع المسلمين ، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه

« يَانوحُ إنّهُ ليسَ مِنْ أهلكَ انّهُ عَمَلٌ غيرُ صالحٍ » ولا صلةَ لاحد فى معصيةِ الله ، ولا قطيعةَ ما كانت فى ذات الله

وكتبتُ الى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ، وأحصد (١) لأمير المؤمنين أمرَه ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأكنافها أوطأ مِهادٍ لطاعته ، وأتبعُ شئ لمشيئته ،

وقد وجهتُ الى أمير المؤمنين بالدنيا وهى رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُردة والقضيب .

والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهدَه ، ونكث عقْدَه ، حتى ردّ الالفة ، وأقام به الشريعة ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

وقيل كتب هذا الجواب بمَرْو بأمر ذى الرياستين ليُقْرأ على الناس ، والقول الاول أليق بالمقام

وعلى كل فمبدأ تقدمه هذا الكتابُ وبه اتصل بالمأمون وذى الرياستين فلما دخل المأمون بغداد بعد موت ذى الرياستين لم يتخذ وزراء مفوَّضين بل اتخذ جملة من رؤساء الدواوين يسميهم بعض المؤرخين وزراء وبعضهم كتابا . ومنهم أحمد بن يوسف فكان يتولى ديوان الرسائل بعد موت أحمد ابن أبى خالد . وبقى أحمد فى الوزارة محببا للمأمون تصدر عنه أبلغ الرسائل وأطولها وأوجزها حتى غضب عليه غضبة مات بعدها . فقيل انه وُشىَ الى

---

(١) أحصد الامر أبرمه وأحكمه

المأمون ان أحمد قال عندما أراد المأمون تبخيره بمجمرٍ تبخر به : هات المردود وانه قال فى بيته لغلامه : ماهذا البخل على البَخور ؟ لو كان أمر لى ببخور مستأنف لكان أولى بى ، فحقدها عليه وأمر باحضار عنبر جيد كثير وان يبخر به أحمد ويدخل رأسه فى زِيقه ، فكاد يختنق . ومات بضيق النفس فى شهر رمضان سنة ٢١٣

وكان أحمد بن يوسف من أذكى الناس وأسرعهم بديهة جوادا نبيلا فى مأكله ومشربه

ويكفى فى تقدير منزلته فى الفصاحة ، وعلو كعبه فى البلاغة ، انه أحد الذين يضرب بهم المثل فيقال (أبلغ من أحمد بن يوسف)

وله كثير من الرسائل الديوانية والاخوانية . وكانت طريقته فى الكتابة على نحو طريقة عبد الحميد من التوسع فى المعانى والعبارات وجزالة اللفظ مع ميل الى استعمال الغريب فى الرسائل المطولة السلطانية ، وتوخى الدقة وتحميل اللفظ القليل المعنى الكثير فى الرسائل الموجزة .

ومن رسائله المطولة رسالة الخميس ورسالة الشكر وهذه مدونة على تمامها فى كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور (فى الجزء المحفوظ بدار الكتب الخديوية)

ومن كتبه تهنئةٌ له بمولود

« أما بعد فانه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنتُ به بهجا اعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك ، وعرّفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيرا ، وأدام احسانه اليك :

وقد بلغني أن الله وهب لك غلاما سَرِيًا . أجمل لك صورته وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سروري بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارًّا تقيا ، يشد عضُدك ، ويكثر عددك ، ويُقر عينك »

وكتب الى ابراهيم بن المهدى فى هدية استقلها

« بلغني استقلالك لِما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنس سهّل علينا قلةَ الحشد لك في البر ، فاهدينا هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتنم »

وكتب فى تهنئة بافراق من مرض

« قد أذهب الله وَصب العلة ونصبَها ، ووفّر أجرها وثوابها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها ، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أُولاها »

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مَسْعدة بن سعيد بن صُول أحد وزراء المأمون ، وأبلغ كتاب الايجاز ، والمضروب به المثل فى جزالة اللفظ وقلته . وصواب المعنى وكثرته

« كان جده صُول وأخوه فيروزُ ملكيْ جُرجان . وهما من الترك تمجسا وتشبها بالفرس . فلما افتتحها يزيد بن المهلب أسلما على يديه . وصارا من مُحالفيه وقواده . وخرج صول معه على بنى أميـة . فلما قُتل مع يزيد دخل ابناه محمد وسعيد فى دعوة بنى العباس . وكان محمد أحد جلة الدعاة بخراسان . فلما استتب أمر العباسية وتولى السفاح نَقِم محمد بعض أمور على

الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعةُ جند تأخرت أرزاقُهم ، وانقيادُ كُفاةٍ تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم)

فلما قرأته . قال ان استحسانى اياه بعثنى أن أمرت للجند قبَله بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلَّ محله فى صناعته

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبة يستشفع له بالزيادة فى منزلته عنده وجعل كتابته تعريضا

(أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتَطوُّلك علىّ فى ألحاقه بنُظرائه من الخاصة فيما يرتزقون . وأعلمتهُ أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تَعَدّى طاعتِه والسلام)

فكتب اليه المأمون

« قد عرفنا تصريحَك وتعريضَك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووقفناك عليهما »، وكتب الى الحسن بن سهل عن لسان المأمون ، يهنئه بمولود

(أما بعد فان هبةَ الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته اياك فى عددك زيادة له فى عدده لمحلك عنده ، ومكانك من دولته ،

وقد بلغ أمير المؤمنين ان الله وهب لك غلاما سريًّا ، فبارك الله لك فيه وجعله بارًّا تقيا مُباركا سَيدا زكيا)

ومن كلامه .

(أعظم الناس أجرا وأنبههُم ذكرا من لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته وظهور الحجة فى سلطانه ، وايصال المنافع الى رعيتـه فى حياته حتى احتال

فى تخليد ذلك فى الغابرين ، عنايةً بالدين . و رحمةً بالرعية ، وكفايةً لهم من ذلك . ولوعنُوا باستنباطه لكان يعرضُ أحد الامرين ، أما الكدُّ عن أصابة الحق فيه لكثرة ما يَعرِضُ من الالتباس . وأما اصابةُ الرأى بعد طول الفكرة ، ومقاساة التجارب ، واستغلاق كثير من الطُّرق الى دَرْكه وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق فى أيامه ، و بعد وفاته وانقراضه)

٧ محمد بن عبد الملك الزيات

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بن أَبان بن أبى حمزة أحد فحولِ الكتاب والشعراء وأصل آبائه من أهل السواد من قرية تسمى « الدَّسكرة » على الشاطئ الشرقى لدجله جنوبى بغداد ، وكان جده أبان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ويتجر فيه ، ثم أقام هو وولده عبد الملك بمحلة الكرخ ببغداد : فنشأ عبد الملك فى التجارة واجتهد حتى صار من مياسير تجار الكرخ : وحتى اقترض من ابراهيم المهدى حين بويع بالخلافة عشرة آلاف درهم وأنظرَه الى ميسره

ونشأ له ابنه محمد فطناً نبيها فعلمه الكتابة والحساب يريد أن يخلفه فى التجارة والكسب ، ولكن همته ربأت به عن التجارة اذ كانت ممقوتة فى نظر الاشراف ، وهى مهنة العوام والسُّوقة فى ذلك الزمان

فتأدب على علماء زمانه : كابى محمد اليزيدى وغيره ، وتعلم النحو واللغة وكاد يحسب من أئمتهما ، وكانت ترد عليه الاسئلة فيهما من طلاب العلم فيجيب عنها .

وقال ابن الزيات الشعر ، وبلغ فيه غاية لم يبلغها أحد من كتاب بنى العباس ووزرائهم حاشا ابراهيم بن العباس على اقلاله ، ولولا تصرفه فى الكتابة والوزراة لكان من فحول شعراء زمانه ، على انه تكسب بالشعر فى صباه ، وهجا الاشراف ، وخاف الناس من هجائه ، وكان أبوه يلومه على اشتغاله بالادب والشعر ، وملازمته كتاب الدواوين ، وانصرافه عن التجارة مع ما فيها من الربح العاجل حتى مدح الحسن بن سهل بقصيدة بليغة ، فوصله بعشرة آلاف درهم فعاد بها الى أبيه . فقال له لا ألومك بعدها على ما أنت فيه

ولما مطل ابراهيم بن المهدى أباه فى عشرة آلاف الدرهم التى كان اقترضها من أبيه عمل محمد قصيدة طنانة يغرى بها المأمون على الايقاع بابراهيم ويذكر أن طاعته خِبٌّ وخديعة ، وأطلع ابراهيم عليها وهدده بانه ان لم يدفع الى أبيه دينه رفعها الى المأمون . فخاف ابراهيم وقضى الدين . وكان أول أمره فى صناعة الكتابة انه خدم فى الدواوين بعض أيام المأمون وصدرا من أيام المعتصم حتى اذا كانت وزارة أحمد بن عمار بن شادى للمعتصم ورد كتاب من بعض العمال يذكر فيه خصب ناحية وكثرة الكلأ فيها فسأل المعتصم ابن عمار ما الكلأ فلم يدر وكان قليل المعرفة باللغة والادب كما كان المعتصم ضعيفا فى الكتابة . فقال المعتصم : خليفة أمى ، ووزير عامى ! أبصروا من بالباب من الكتاب ! فوجدوا محمد بن الزيات فسأله : فقال له : أول النبات يسمي بقلا . فاذا طال قليلا فهو الكلأ فاذا يبس وجفّ فهو الحشيش فقال

المعتصم لابن عمار: أنظر أنت فى الدواوين . وهذا يعرض على الكتب ثم استوزره وصرف ابن عمار

ولما تولى الوزارة ضبط المملكة ونهض بأمرها نهوضا لم يكن لمن تقدمه من أضرابه . فكانت معرفته بالسياسة وقواعد الملوك تفوق معرفته بالكتابة والعلم والأدب . مع انه كان فى جميعها منقطع النظير . وكان مع عقله وفضله وجده وعفة يده واقتصاده جبارا متكبرا فظا غليظا خشن الجانب شديد القسوة مبغضا للخلق ، وكان له أقبح أثر فى مصادرة الواثق للكتاب ومطالبتهم بالأموال . وكان يقول الرحمة خور فى الطبيعة ، وضعف فى المُنّة [1] والحياء خَنَث . والسخاء حُمق . وبقى وزيرا للمعتصم مدة خلافته . ولما ولى الواثق وكان يعتدّ عليه بأمور كثيرة مدة أبيه ـ أراد أن يُوقِع به . ولما لم يجد مثله فى كفايته غفر له جرمه واستوزره وفوض الأمور اليه فلم يكن له وزير غيره ، ثم توفى الواثق وولى المتوكل ، وكان لابن الزيات عليه اهانة واساءة قبل خلافته فأمهله أربعين يوما حتى يطمئن اليه ثم قبض عليه وسجنه وعُذّب أشد العذاب ، فقيل انه وضع فى تنُّور من حديد فى داخله مسامير مثبتة كان ابن الزيات عمله فى وزارته لتعذيب الناس ، فشُدّ فيه واقفا وقيد بخمسة عشر رطلا من الحديد . فاسترحم معذبيه . فقالوا له : الرحمة خوَر فى الطبيعة ، وهل رحمت أحدا ، فبقى كذلك أربعين يوما حتى مات سنة ٢٣٣ فلم يُرَ الا شامت به فارح بنكبته :

---

(١) القوة

رسائله — : كتب محمد بن عبد الملك الزيات الى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مُقامه بالأهواز كتابا يقول فيه :

« قلة نظرك لنفسك حرَمتك سناء المنزله ، واغفالُك حظّك حطّك عن أعلى الدرجة ، وجهلكَ بقدر النعمة أحلّ بك اليأسَ والنقمة حتى صرتَ من قوة الأمل ، معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد ، متعرّضا يأس الأبد ، وركبتَ مطيةَ المخافة ، بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرتَ مُعرَّضا للرحمة ، بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر

اذا ما بدأتَ امرأ جاهلا ببرّ فقصّر عن حمَلِهِ
ولم ترَهُ قابلا للجميل ولا عرف الفضلَ من أهله
فَسُمْه الهوانَ فان الهوانَ دواءٌ لذى الجهل من جهله

قد فهمت كتابك واغراقك واطنابك ، واضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالأقلام . وفى كفِاية الله غنى عنك يا ابراهيم ، وعوضٌ منك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل »

وكتب عن لسان الخليفة الى أحد العمال

« أما بعد فقد انتهى الى أمير المؤمنين كذا فأنكره ولا تخلو من احدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حُجةً ، ولا يُزيل لائمه ، إما تقصيرٌ فى عملك دعاك لِلاخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، وأما مظاهرةٌ لأهل الفساد ، ومُداهنةٌ لأهل الريَب . وأيّة هاتين كانت منك ، مُحلةٌ النكرَ بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من

الأَناة والنَّظِرة ، والأَخذ بالحجة ، والتقدم فى الإِعذار والانذار ، وعلى حسب ما قلتَ من عظيم العثرة ، يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والاضاعة والسلام »

وكتب من فصل فى كتاب — : ان حق الأَولياء على السلطان تنفيذ أمورهم ، وتقويمُ أودهم ، ورياضةُ أخلاقهم وان يميز بينهم ، فيقدم محسنهم ويؤخر مسيئهم ، ليزداد هؤلاء فى احسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن اساءتهم ،

وكتب فصلا آخر من رسالة — : ان من أعظم الحق حقّ الدين ، وأوجب الحرمة حرمةَ المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق ، وحفظ تلك الحُرمة ، أن يراعى له حسب ما رعاه الله ، ويحفظ له حسب ما حفِظ الله على يديه ،

ابراهيم بن العباس الصولى

هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صُول كاتب العراق وأشعر أصحاب المقطعات .

ويُعرف من نسبه انه ابن عم عمرو بن مسعده ، الا ان عمرا كان أكبر منه ، وأقدم شهرة ، وأسبق اتصالا بخدمة السلطان ،

نشأته وتصرفه — : نشأ ابراهيم ببغداد فى بيت كتابة و بلاغة ، فتلقى العلم والأَدب عن أهله وعن أئمة زمانه ، واشتغل بالشعر فى حداثته ،

فبرع فيه وتكسب به ، ورحل الى العمال والامراء يمدحهم ويستميح جدواهم ، فلما بويع المأمون بالخلافة بخراسان ، وعهد بها من بعده لعلى بن موسى الرضا باشارة الفضل بن سهل ، أعجب ذلك ابراهيم وكان ممن يتشيع ـ فصنع قصيدة يذكر فيها فضل آل على وانهم أحق بالخلافة من غيرهم ، ورحل بها مع أخيه عبد الله وقصد الفضل بن سهل ذا الرياستين وأسمع ابراهيم قصيدته لعلى بن موسى ، فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التى ضربت باسمه ، فادخرها عنده وجعل منها مهور نسائه وخلف بعضها لكفنه وجهازه الى قبره ، ومن ذلك الحين اتصل بذى الرياستين وكان من صنائعه فجعله كاتبا لأحد قواده ورفع من شأنه

ولما قتل الفضل وشى به بعض الناس الى المأمون ، فوجد عليه ، ففر وطلبه ثم عفا عنه ، وبقى يتنقل فى أعمال النواحى والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملا على الاهواز ، وكان صديقا لابن الزيات قبل وزارته ، فظن انه لايتحامل عليه فى كشف أموره ، وتدقيق حسابه ، فكان غير ما ظن ، فعزله ابن الزيات ، وسجنه بالأهواز ، وطالبه بأمواله . فكتب اليه كتبا بليغة ، وقصائد كثيرة ، يستعطفه بها ويعاتبه ويذكره قديم عهده ، فلم يزدد بذلك الوزير إلا غلظة ، ثم وقف الواثق على تحامله عليه ، فرفع يده عنه ، وأمره ان يقبل منه مارفعه ، ورده الى الحضرة مَصُونا ، فلما أحس ابراهيم بذلك بسط لسانه فيه ، وهجاه هجاء كثيرا

ثم لما كانت خلافة المتوكل تولى ديوان الضياع والنفقات ، مع انه كان

على فضله و بلاغته قليل التقدم فى جباية الخراج واستخراج الأموال وضبط الحساب و بذلك كان يطعن عليه حساده عند المتوكل و يضعون منه ، فلم يكن ليصغى لهم ، وكانت بلاغته وظَرفه يستران عيوبه ، وقلما وضعت الأيام امرأً فى موضعه الذى يستأهله :

أخلاقه ومذهبه — : وكان ابراهيم سَمْحا جَوَادا كثير الطرب واللهو والقَصْف وهو مع ذلك أوصف الناس لحوادث الزمان ، وغدر الاخوان ، وعاقه اشتهاره بالخلاعة من تقلد الوزارة . فقال له يوما أبو وَاثلة : قد أخملت نفسك و رضيت أن تكون تابعا أبد الاقتصارك على القصف واللعب ، فأنشأ يقول

انما المرء صورة حيث حلّت تناهت
أنا مذ كنت فى التصرف لى حال ساعتى

وكان يُظهر تشيعه زمن المأمون ويكتمه كتمانا شديدا امام المتوكل

منزلته فى الكتابة والشعر — : كان ابراهيم أحد كتاب الدنيا فى زمانه ، وكان يلقب بكاتب العراق ، وكانت معانيه التى يستخدمها فى الكتابة كلها مما يلقيه عليه خاطره ، لايقتبس من غيره ، ولا يحل شعر أحد ، ولا ينتحل أيَّ عبارة كانت ، وذكر عن نفسه انه لم يفعل ذلك الا مرتين اقتبس فى احداهما معنى لمسلم بن الوليد ، وفى الاخرى معنى لابى تمام ، وباعتماده على نفسه ، واختراعه للمعانى ، صار كلامه قدوة لغيره حتى ضارع الامثال فى الشهرة نثرا ونظما

وهوأحد الذين راعوا الازدواج فى فقرات الكتابة ، فاقتدى بهم غيرهم ، وأحد الذين اشتهروا فى التعازى ، وكانت أقوالهم فيها نموذجا يحتذى

شعره

ولولا أن ابراهيم انقطع مدة شهرته عن التكسب بالشعر لَبَذّ فحول الشعراء فى زمانه ، وفى ذلك يقول دعبل الخُزاعى : لو تكسب ابراهيم بالشعر لتركنا فى غير شئ

و بقى ابراهيم يتقلد ديوان الضياع والنفقات حتى مات بسرّ من رأى سنة ٢٤٢ وله من العمر نحو سبعين سنة

بعض رسائله

كتب شفاعة الى بعض اخوانه

فلان ممَّنْ يَزْكو شكرُه ، ويَحسُنُ ذِكرُه ، ويُعنى بأمرِه ، والصنيعةَ عنده واقعةٌ موقعَها، وسالكة طريقَها ،

وأفضلُ ماياْتيه ذو الدين والحجا   اصابةُ شكر لم يَضعْ معَه أجرُ

ولما قرأ ابراهيم على المتوكل رسالته الى أهل حِمص الخارجين عليه والداعين الى العَصَبيّة وهى :

« أما بعد فان أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ممّا قوَّم به من أوَد ، وعدّلَ به من زَيغٍ ، ولَمَّ بهِ مِنْ مُنْتَشر ، استعمالَ ثلاثٍ . يُقَدِّمُ بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدم به من تَنبيه وتَوقيف ، ثم ما يَستظهر

به فى تحذير وتخويف ، ثم التى لا يَقَعُ بحَسْم الداء غيرُها

أناةٌ فان لم تُغْنِ عَقِّبَ بعدَها وعيدا فان لم يُغْنِ أغنَتْ عزائمُه

عَجِبَ المتوكل من حسن ذلك . وأومأ الى عُبيد الله بن يحيى بن خاقان : أما تسمع فقال يا أمير المؤمنين : ان ابراهيم فضيلة خبأها الله لك ، وذخيرةٌ ذخرها على دولتك »

ويقال ان هـذا أول شعر نفذ فى كتاب عن خلفاء بنى العباس . وليس كذلك

وكتب تعزية عن لسان المنتصر بالله الى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين .

« أما بعد تَولى اللهُ توفيقَك وحياطَتَك ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك ؛ ان أفضل النعم نعمةٌ تُلُقِّيَتْ بحقّ اللهِ فيها من الشكر ، وأوفرَ حادثةٍ ثواباً حادثةٌ أُدِّيَ حقُّ الله فيها من الرِضا والتسليم والصبر . ومثلُك من قدَّم ما يجب لله عليه فى نعمةٍ فشكرها ، وفى مُصيبة فأطاعه فيها . وقد قَضَى الله سبحانه وتعالى فى محمد بن اسحق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءه السابقَ والموَقّع . وفى ثواب الله ورضي أمـير المؤمنين (أدام الله عزه) وتقديم ما يُقدِّمُ مثلَه أهلُ الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاضٌ وقدَّمَه مُوَفَّقٌ . فليكنِ اللهُ عز وجل وما ألهمتَه به وقدَّمتَ حقّه فيـه ، أولى بك فى الامور كلها فانك ان تتقرَّبْ اليه فى المكروه بطاعته يُحسن ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك »

التدوين والتصنيف

انقضى عصر الخلفاء الراشدين ولم يدون فيه كتاب الا ما كان من أمر كتابة المصحف ، وكان مرجعَ الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتابُ الله تعالى وسنة رسوله : فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، واستخاروا الله فيه ، واستظهروا رأيا عملوا به . وكان يتحرجون من كتابة أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشية أن يَجُرَّهم ذلك الى الاعتماد على الكتب واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، فاذا عرض للكتاب عارض فات معه علمُ الدين . ثم جاء عصر بنى أمية وقد انتشر الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها ، واختلطت العرب بالامم المختلفة من الاعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربى ، وفشا اللحن فخافوا على القرآن من التحريف، فدونوا النحو بعد احجام وأخذ ورد . وكان أول من دون كتابا فيه أبو الاسود الدؤلى وأصحابه . ثم حدثت الفتن وتعددت المذاهب من خوارج وشيعة وجماعية وغيرها . ولما كثرت الاقوال والفتاوى والرجوع الى الرجال والرؤساء ، ومات أكثر الصحابة خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فاذن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى تدوين الحديث بعد ان استخار الله أربعين يوما ، فدُوِّن ما صح من حديث رسول الله فى كتاب بعث به عمر الى الامصار ولم يُعرف له بعد ذلك خبر . وبقى كثير من التابعين محجما عن التدوين والتصنيف

تحرجا وتأثما . وبعضهم كتب أو سمح لمن يكتب عنه فى الحديث ورواية أقوال الصحابة فى التفسير ، وانقضى عصر بنى أمية ولم يدون فيه غير قواعد النحو و بعض الاحاديث وأقوال فقهاء الصحابة فى التفسير . ويروى أن خالد ابن يزيد وضع كتبا فى الفلك والكيمياء ، وان معاوية استقدم عبيد بن سارية من صنعاء فكتب له كتاب (الملوك والاخبار الماضية) وان وهب بن منبّه والزهرى وموسى بن عقبة كتبوا فى ذلك أيضا كتبا ، ولكن ذلك لم يقنع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يعتبروا عصر بنى أمية عصر تصنيف ، اذ لم تتم فيه كتب جامعة حافلة مبوبة مفصلة ، وانما كان كل ذلك مجموعات تدون حسب ورودها واتفاق روايتها

فلما جاء عصر الدولة العباسية وكانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت [لاتساع ممالك الاسلام ودخول كثير من الأمم المتحضرة فيه ، وتعددت الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظير فيما سبق] ، هب العلماء الى تهذيب ما كتب فى الصحف وما حفظوه فى الصدور ورتبوه وبوبوه وصنفوه كتبا ، وكان من أقوى الأسباب فى اقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة أبى جعفر المنصور عليه ، وحمله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، و بذله على بخله الأموال الجزيلة للعلماء كالامام مالك وغيره . ولم يقتصر المنصور على تعضيد العلوم الاسلامية ، بل أوعز الى العلماء والمترجمين من السريان والفرس ان ينقلوا من العربية إلى الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب والمنطق ، وتابعه فى ذلك أولاده وأحفاده حتى

فزخرت بحور العلم ، واخترعت الفنون ، وتفرعت المسائل ، ودونت الكتب في كل فن . وتميزت بذلك العلوم الى قسمين عظيمين ، العلوم الاسلامية من شرعية ولسانية

والعلوم الدخيلة من سياسة وأدب وفلسفة الهية وطبيعية ورياضية .

ولكل من هذين في نشأته طريق محدودة ورجال معدودة

فأما أوائل المصنفين للكتب المرتبة في العلوم الاسلامية فهم الامام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٥ وأبو النصر سعيد بن أبي عَرُوبَة المتوفى سنة ١٥٦ وربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ وأبو بكر بن حزم على خلاف في أسبقهم الى ذلك

ويعتبرون سنة ١٤٣ هي السنة التي كانت مبدأً لهذه النهضة . ثم صنف مالك بن أنس وسفيان بن عُيَيْنَة بالمدينة ومَعْمَر وعبد الرازق باليمن ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن سلمة ورَوح بن عبادة والخليل بالبصرة ، وسفيان الثوري ومحمد بن فضيل بن غَزْوَان وابن اسحق صاحب المغازي والامام أبو حنيفة بالكوفة

ثم بعد ذلك بيسير صنف ابن وهب بمصر ، وهُشَيم وعبد الله بن المبارك بخراسان ، وأبو يوسف ومحمد ببغداد . ثم ازداد التصنيف سعة وكثر رجاله بالبصرة والكوفة ولا سيما رجال العربية . ثم زخرت بغداد بمن نشأ فيها وجلا اليها من الكوفة والبصرة والمدينة ، ونشأت طبقة بعد الأئمة الواضعين هذبوا كتبهم ، وتداركوا مافاتهم ، وفصلوا مجملهم ، واحتجوا لمذاهبهم ، وابتدأ

ذلك من عصر المأمون أى من أواخر القرن الثانى الى أواسط الثالث . ثم نشأت طبقة ثالثة رسخت فيها ملكات العلوم والفنون، وصار التصنيف والتعليم صناعة متقنة عندها ، فبرعت فى أصناف التصانيف الثلاثة ، المبسوطات ، والوسائط ، والمختصرات ، تقريبا للعلم من كل الطبقات . وهذه الطبقة الثالثة هى التى تمت على أيديها وأيدى الطبقة التى بعدها قواعد العلوم وأصول الفنون .[و]تنتهى الى أواسط القرن الرابع ،وكل من أتى بعدهم من العلماء فليسوا إلا أهل تفريع وتنظيم وتحقيق وتدقيق ومناقشات ومجادلات لم تؤد الى ابتكار شيء جديد من أصول العلوم ، اللهم إلا أفذاذا كانوا ينجمون فى أزمان متقطعة . لا ترتبط بهم سلسلة علم ، ولا يستطيل معهم تاريخ نشأة فن

موضوعات العلوم الاسلامية

أما موضوعات العلوم الاسلامية فقد شملت الشرعية منها عدة علوم كالتفسير والقراآت والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض والخلاف والجدل والكلام

وشملت اللسانية منها اللغة والنحو والصرف والبلاغة بأقسامها والأدب الشامل للتاريخ الدول والمغازى والسير والنوادر والأخبار والنسب ورواية الشعر وغير ذلك

كتابة التصنيف فى العلوم الاسلامية

كانت كتابة التصنيف فى العلوم الاسلامية عبارة عن سلسلة من الروايات

المسندة الى رواتها من أحاديث ، أو أقاويل صحابة ، أو فتاوى فقهاء ، أو أشعار اعراب ، أو أخبار فتوح ، أو نوادر ، أو غير ذلك . فكان عمل المصنف ينحصر فى جمع هذه الروايات من أفواه الثقات ، ودَرْج كل طائفة متشا كلة منها تحت صنف خاص من المباحث ، وربما شرح المصنف بعض غريبها ، أو زاد من عنده مايربط بعضها ببعض ، غير ان كتب الأدب من التاريخ والمغازى والسير والنوادر والأخبار وأيام العرب كانت لطول قصصها تظهر فيها عبارات المصنفين الأوائل ، إذ كانوا قد نقلوها عن أربابها من رواتها من الاعراب أو من أهل الكتاب بالمعنى غالبا ، فكانوا يكتبونها بعباراتهم إلا فى نحو شعر أو خطبة ، وهم كانوا فى جيلهم أهل فصاحة و بلاغة لاتجارى بل هم كانوا أئمة الأدب ورافعى قواعده ، مثل أبى عمرو بن العلاء والخليل والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وابن اسحق والكلبى وابنه والواقدى والمدائنى وابن سعد ونظائرهم . ولكن ذلك لم يخرجها عن كونها روايات لارأى للمؤلف فيها . واستمر الحال على ذلك أكثر من قرن فى أكثر الفنون غير الفقه والكلام

أما الفقه فقد بدأت هذه الطريقة تختلف فيه قبل انقضاء القرن الاول من ابتداء التصنيف فكان للمصنفين عبارات الاستنباط والتفريع والتعليل والشرح والاختصار وجمع فروعه تحت أصول كلية مما أداهم الى اختراع علم الاصول وكان الامام الشافعى سابق حَلْبَتِهِ

وأما علم الكلام فلانه وضع للرد على أصحاب المقالات من المبتدعة

والزنادقة وللدفاع عن أصول الاسلام كان للمتكلمين فيه من أول الأمر مجال واسع ، وللعقل فيه مندوحة عن التزام النصوص ، لأن المعول فيه على قوة البرهان وفصاحة اللسان . فكانت أكثر كتبه مكتوبة بعبارات أصحابها وكلامهم إلا فى الشواهد (ولعل ذلك كان سبب تسميته علم الكلام) (ويقابلهم الصفاتية وأصحاب الحديث من الواقفين عند حد النصوص والتوقف والتفويض فيما لم يرد فيه نص) ولما ترجمت كتب الفلسفة والمنطق فى زمن الرشيد والمأمون ومن بعدهما امتزجت مباحثها بمباحث علم الكلام ، واستُخدِم المنطق آلةً للنظر ، فصار الكلام صناعة وخضعت عبارته لأساليب المنطق اليونانية ، وسرت منه الى الاصول والخلاف والفقه والبلاغة . وكان أكثر مصنفات الطبقة الاولى والثانية ولا سيما الأدبية واللغوية منها كتبا صغيرة أو رسائل محدودة فى موضوعات خاصة ، إذ لم تكن مفردات العلوم قد اندرجت تحت فنون عامة ، حتى لقد كان كل مبحث من مباحث العلم الواحد يؤلف فيه كتاب مستقل ذاتا أو اسما ، فيقال فى الفقه مثلا كتاب الصلاة ـ البيع ـ كتاب الفرائض ومن هذه الكتب جمعت المبسوطات

أما أسماء الكتب (فكانت على غاية السذاجة والغضاضة لم تتكلف فيها الاسماء الضخمة والعنوانات المزخرفة والالقاب المبهرجة) فلم يتجاوز فى تسميتها أسماء موضوعاتها الا قليلا ، فيقال كتاب الشعر والشعراء ، كتاب ثقيف ، كتاب المثالب ، كتاب النسب ، كتاب الحيوان ، كتاب البخلاء . وربما لَحوا فى التسمية الى طول الكتاب أو قصره فسموا المبسوط والجامع

والوسيط والوجيز والكامل . ومضت الطبقتان الاوليان من المصنفين فى العلوم الاسلامية والامر على ما ذُكر . فلما نضجت العلوم واستحصفت الفُهوم واطلع العلماء على نظام الكتب التى ترجمت من اللغات المختلفة تجردت الطبقة الثالثة والرابعة فى غير كتب الحديث الى اختصار الروايات وحذف المكرر فيها ، واغفال أسانيدها ، وادخالها كل طائفة منها تحت حكم كلى ، واستخدموا فى فهمها الاقيسة العقلية وأصبحت العلوم صناعات تنشأ عنها ملكات خاصة ، الا ان عبارتها كانت فى أول الامر بليغة حصيفة . فلما غلبت الصناعة المنطقية ، وزاد الاختصار عن الحد الملائم ، ودخل كثير من الاعاجم فى غمار المؤلفين ، صارت معقدة مشتبكة النظم عائقة عن التحصيل . وزادوا فى تفخيم أسماء الكتب والتهويل فيها وتحليتها فسموا العُباب والبحر والمحيط والعقد والاكليل والتاج الخ

(موضوعات العلوم الدخيلة

تشمل العلوم الدخيلة فى الملة الاسلامية علوم الطب اليونانى والهندى وعلوم الفلك والنجوم على طرق اليونان والفرس والهنود والفلسفة الالهية والرياضية والطبيعية والمنطق)

كتابة التصنيف فى العلوم الدخيلة وترجمتها

كانت كتابتها عين ما كُتبَت به فى لغاتها مفسَّرة فيها العبارة الاعجمية بالعربية ولذلك بقى نظامها وترتيب مسائلها كما وضعه أصحابها، أى انها كانت

ترجمة محضة بل ان ترجمتها لم تكن فى عهد المنصور والرشيد كما ينبغى لقلة من يجيد اللغتين العربيـة والاعجمية . فلما اتسعت دائرة الترجمة فى زمن المأمون ، واستدعى المترجمين من جميع الاقطار ، وأفاض عليهم الذهب النُّضار ، حتى كان يعطى أجرة ترجمة الكتاب زنته ذهبا . رَحَل كثير من أبناء السريان وغيرهم الى بلاد اليونان ، وحذقوا اليونانية ، وترجموا كثيرا من كتبها ، وصححوا ماترجم من قبل ، وجلب اليهم المأمون كتب الفلسفة والطب من القسطنطينية ومن البلدان التى افتتحها فى آسيا الصغرى ، ولم ينقض عصر المأمون حتى كان أكثر الكتب اليونانية قد ترجم الى العربية ترجمة صحيحة ، وحتى مهر من المسلمين واليهود والسريان والصابئة عدد غير قليل فى الفسلسفة بأقسامها ، وصارت لهم فيها ملكات راسخة كما كانت لحكماء اليونان . فألفوا الكتب من تلقاء أنفسهم وصححوا أغاليط حكماء اليونان فى الفلك والجغرافيه وغيرها . وانتشر بانتشار فلسفة اليونان نوع جديد من الالحاد فاضطر علماء الكلام أن يدرسوها ليردوا على أهل الزيغ من نوع أدلتهم ، واستعملوا لذلك الاقيسة المنطقية ، فامتزجت الفلسفة الالهية بعلم الكلام ، حتى صارا كشىء واحد . وكانت عبارة كتبها فى بدء أمرها واضحة مفهومة ، ثم جنحوا فيها الى الاختصار وتعميتها على من يتصبون لمعارضهم من الفقهاء والحنابلة ، فصعبت عبارتها حتى صارت رموزا وكنايات ، وبقيت كذلك الى الآن .

أما كتب الأدب التى ترجمت من الفارسية فى أوائل عصور الترجمة ككتب ابن المقفع وسهل بن هرون فكانت من أبلغ ما كتب باللسان

العربى ، لتمكن أربابها من اللغتين ، ولأن موضوعها لا يحتاج الى كد ذهن وكدح خاطر

ونشير الآن بنبذ يسيرة الى نشأة كل من العلوم الاسلامية والدخيلة فنقول :

نشأة العلوم الاسلامية

تشمل العلوم الاسلامية العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية

ونُقَدِّمُ فى كتابنا هذا الكلامَ فى الثانية على الاولى لشدة ارتباطها بموضوعه وهو تاريخ اللغة والأدب

وتشمل العلوم العربية اللغة والنحو والبلاغة والأدب . وكان النابغ فى واحد منها فى هذا العصر عالما بسائرها مع تفاوت قليل أو كثير فيها . ونُقَدِّمُ ذكر الأدب لشدة ارتباطه بموضوعنا ، ولأنه غاية العلوم العربية

علم الادب

(علم الأدب عند أى أمة هو العلم الذى يبحث فيه عما اشتملت عليه لغتها من نتائج قرائح أبنائها ، وصور خيالاتهم ، وما انطبعت عليه نفوسهم من فضائل أو رذائل ، من حيث ظهور أثر ذلك فى الشعر والخطب والرسائل والقصص والنوادر والأمثال ونحوها ، ليُتعَرَّف وُجوهُ البلاغة منها ، ويحتذى جيدها) . وهو بهذا الاعتبار يمتاز عن بقية العلوم الصناعية ذات القواعد كالنحو والبلاغة ، وعن التاريخ وفروعه ، وان كان يتوقف على الالمام

بأ كثرها ، بل على غيرها من العلوم الشرعية والعقليه أحيانا .

ويرجع عهد اشتغال العرب بهذا الفن الى زمن جاهليتها فكان الغاية التى يسمو اليها الأديب ، ويتطلعها الأريب ، وجاء الاسلام حاثا على الاستكثار مما يؤدى منه الى تربية حكمة وتهذيب خلق . وكان كثير من الصحابة من رواة الأدب . واعتنى خلفاء بنى أمية به ، ولم يكتفوا أن يقيموا لأبنائهم من يؤدبهم من فحول العلماء والرواة حتى أخرجوهم الى البادية لتلقى اللغة والأدب عن فصحاء الاعراب . غير أن هذا الفن كان طوال هذه المدة مما يُحفظ فى الصدور ، ويؤخذ عن ألسنة الرواة والاعراب ، أسوة غيره من علوم الاسلام ، ولم يُدَوَّن فى الكتب الا فى الدولة العباسية كما دُون غيره . وكان علماؤه هم علماء النحو واللغة والأخبار كما قدمنا

وأول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة من ضروب الأدب هو كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ . وقبله كان العلماء والرواة مثل الاصمعى وأبى عُبَيْدَة وأبى زيد يكتبون فيه رسائل فى مباحث خاصة منه أو يجمعون شعر شاعر أو شعراء قبيلة فى ديوان ، كرسائل ابن المقفع ، ورسائل سهل بن هرون فى الأدب ، وكتاب النوادر وكتاب الاراجيز وكتاب معانى الشعر للأصمعى ، وككتاب البُله وكتاب الضيفان . وكتاب الشعر والشعراء . وكتاب المعاتبات والملاومات . وكتاب المثالب وكتاب مآثر العرب . وكتاب أدعية العرب لأبى عُبَيْدَة ، وغير ذلك

واذا تابعنا من يقول ان ابن المقفع هو الذى ابتدع كتاب كليلة ودمنة

ونحله للهند والفرس كان هـذا الكتاب أول كتاب خاص ظهر فى الأدب العربى . ولما كثرت الكتب الصغيرة والرسائل الخاصة فى المسائل المتقاربة الموضوع دوّن علماء الطبقة الثانية والثالثة من هـذه الرسائل كتبا مبسوطة ذات مباحث مختلفة ، فكان الجاحظ أول من سن هذه الطريقة فى كتبه التى من أهمها البيان والتبيين . واقتفى أثره أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ فى كتابه العظيم المنظوم والمنثور فى أربعة عشر جزءا غير انه كان اختيارا بحتًا لم يأت فيه من عند نفسه بشئ كثير . ولم يكن أكثر من الجاحظ وابن طيفور فى زمنهما تأليفا . ثم ظهر كتابا الكامل والروضة لأبى العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ وعاصر هؤلاء الفحول كثير من مصنفى الأدب وذوى الاختصاص ببعض ضروبه كالعتابى وأبى حنيفة الدينورى وأبى زيد البلخى والبلاذُرِى والجُهشَيارى وأبى بكر الصولى الشِّطْرَنجى وجَحظة البرمكى والزيادى والزبير بن بكار وقُدَامة بنْ جعفر وابن قُتَيْبَة صاحب كتاب أدب الكاتب وأبى حيان التوحيدى . ولم ينته هـذا العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه حتى نجم فيه أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ وأبو على القالى صاحب الأمالى وأبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى المتوفيَيْن سنة ٣٥٦ ولكن أولهم من أدباء الغرب وثانيهم من جالية المشرق الى الاندلس ويذكران فى أدبائها وثالثهم لم تزهر حياته العلمية إلا فى العصر الثانى وسنذكره بما هو أهله

وقال حكيم المؤرخين وأديبهم عبد الرحمن بن خلدون « وسمعنا من

شيوخنا فى مجالس التعليم ان أصول هذا الفن (الأدب) وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها »

وأقول : أما أدب الكاتب فهو أقرب إلى اللغة والهجاء منه إلى الادب. وأما أنّ ماسواها تبع لهاوفروع عنها فهوغمط لفضل كثير من المصنفين. فأين العقد الفريد ؟ وأين الأغانى ؟ وأين المنظوم والمنثور وغيرها من الكتب المُمتِعة ؟ وأين يقع أدب الكاتب منها ؟

واذ كان أبو عثمان الجاحظ هو شيخ هذه الطريقة رأينا ان نترجم له ترجمة تبين بعض فضله فنقول :

الجاحظ

هو أعجوبة الزمان ، وسلوانة[1] الثّكلان[2] ، ولسان البيان، ويَنبوع الافتنان ، أديب العلماء ، وعالم الادباء ، أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر ابن محبوب الكنانى الليثي البصرى ، ذو التصانيف المُمتِعة ، والرسائل المبدَعة ، وأحد فحول النُظّار من المعتزلة المتكلمين ، وسيد كتاب التصنيف المتأدبين ، وصاحب كتابى الحيوان والبيان والتبيين . ونسبته الى كنانة

(١) أصل السلوانة . خرزة تدفن فى الرمل يتسود فيبحث عنها وتوضع فى ماء فيسقاه العاشق أو الحزين فيسلو وهى من خرافاتهم (٢) فاقد الولد أو الحبيب

بالنسب أو بالولاء موضع خلاف بين من يتعصب له و بين من يتعصب عليه؛
وسمى الجاحظ لجحوظ عينيه أي بروز مقلتيهما ويسمى الحدَ قى لذلك أيضا

منشؤه وحياته — : ولد الجاحظ حوالى سنة ١٦٠ بمدينة البصرة ونشأ بها ، وهى فى هذا العصر ماعلمت . فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه . وأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وغيرهم وأخذ عنهم . ولازم أستاذه أبا اسحق ابراهيم بن سيّار النظام المتكلم المعتزلى المشهور وعليه تخرج فى علم الكلام ، وخالط كثيرا من مشهورى الكتاب ومترجمى الفرس والسريان ، وقرأ جميع ماترجم فى أزمان المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون، فلم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر . فخرج من نوابغ الدنيا وغلب عليه أمران ، الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة

وأقام أكثر عمره بالبصرة يعيش معيشة الأدباء والعلماء محبوبا لولاة البصرة وأعيانها من الهاشمية والعثمانية ورؤساء الموالى والأبناء محبُوًّا من الجميع بالعطايا والمنح بما كان يصنفه لهم من الكتب والرسائل العديدة التى يتعصب فيها لمذاهبهم ،و يعضد مزاعمهم ، وينقض بها آراء مخالفيهم تلاعبا بهم وتماجنا بفصاحته و بلاغته ونفوذ خاطره . وكان كثير الانتجاع لبغداد أواخر عصر المأمون وكل عصر المعتصم والواثق وشطرا من زمن المتوكل . وكان ممن ينتجعهم المأمون ووزراؤه وكبارُ كتابه وسُمّارهُ . ثم انقطع فى الانتجاع

إلى محمد بن الزيات طول وزاراته الثلاث. وكان يقيم بهذه المدة كثيرا بسُرَّ من رأى. ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة إلى أن فُلِجَ و بقى مفلوجا مدة حتى مات سنة ٢٥٥

اعتقاده ومذهبه — : كان الجاحظ كما قدمنا يعتقد مذهب المعتزلة ونصر هذا المذهب بفصاحته وكتبه البليغة حتى صار لسان المعتزلة فى زمانه، وتغلغل فى الكلام ومزجه بكثير من كلام الفلاسفة اليونانيين، وانفرد فيه بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمى زمانه وسُموا الجاحظية. ويتهمه كثير من الصفاتية وأهل الحديث بالانحراف والكذب، ويرون أنه ضال مضل ماجن هازل متلاعب بالمذاهب والفِرَق يثبت الشئ ونقيضه. ويشتد انكارهم عليه الى حد نفى فصاحته وتفننه، وعلى عكس قولهم كلام الادباء والمؤرخين فيه

وكان عثمانيا يتنصب (يفضل عثمان على علىّ رضى الله عنهما) وعلى هذا المذهب كان كثير من أهل البصرة منذ وقعة الجمل.

علمه وأدبه — : لم يكن فى زمان الجاحظ رجل أغزرُ علما، ولا أمتعُ أدبا، ولا أوسع اطلاعا، ولا أكثر تصنيفا، ولا ألطف بحثا، ولا أطيب فكاهة، ولا أغوص على معنى مخترع، ولا أصوغ لكلام بليغ من الجاحظ.

وكان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب إلا أنه كان يؤدى ما سَمِع. ويطول الكلام بنا جِدًّا اذا تعرضنا لأقوال العلماء والمؤرخين حتى خصومه

منهم فى وصف علمه والثناء عليه وتقريظ كتبه

وهو أول من أكثر التصنيف فى الأدب ، وأول من أسهب القول فى اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الكبيرة الجامعة لفنون كثيرة ، وأول عالم عظيم جمع بين طرفى الجد والهزل ، فكان اماما لبعض الفرق فى الدين ، وسامرا من السمار

وكان له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحِسُّ أو يخطر بالبال ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ عالم بالحيوان والنبات والموات وصّاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحِيَلِهم . وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم . واحدى حجج اللسان العربى

ذكاؤه وأخلاقه — : كان غاية فى الذكاء ودِقة الحس وحسن الفِراسة وله فى ذلك نوادر تُعَدّ من خوارق العادات .

وكانت فيه دُعابة فاشية و بعضُ تماجُن وتَطَرُّب وكان قليل الاعتداد بما يأخذ به الناسُ أنفسَهم و ينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية والجنسية ، قليل المبالاة بوقوع المتورعين فيه ، سمْحا جوادا ، كثير المواساة لإخوانه . وكان على دَمامة خَلْقه وتناقُض خُلُقه خفيفَ الرُّوح ، فِكه المجلس ، غايةً فى الظَرْف وطيبِ الفُكاهة وحلاوة الكلام

فصاحته وكتابته — : قرأ الجاحظ أكثر الكتب المعروفة فى زمنه اسلامية ودخيلة ، فاستخلص بذكائه العجيب من كل ذلك علوما جمه تألف

أشتاتَها على تنافرِها ، ونسَّق ضروبها مع تضاربُها ، فتطامَنَ له بلطفه شامخُها ، وانقاد له بحسن رياضته حَرونُها ، فتهيأ للمكته منها جملة مطاوِعةٌ لارادته يستنبط منها ماشاء ، ويصرّفها أنّى شاء . فانتحل لنفسه من طرق البلغاء والمصنفين طريقةً كان أبا عُذرَتها [١] وابنَ بَجْدَتِها [٢] وهى اختراعه طريقةً تحبب القراء فى المطالعة بانتحاء عدة أمور

(أولاً) توخى التصنيف فى الموضوعات الشّهِية اللذيذة ، أوالتى لم يَسبِقْ اليها كاتب أو الأمور الحقيرة الصغيرة التى لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام ;

(ثانياً) سهولة العبارة وجزالتها

(ثالثا) الاطناب بايراد كثير من الألفاظ والجمل المترادفة

(رابعا) الاستطراد لأدنى مناسبة إلى ايراد طريف الأخبار والنوادر تفكيها لنفس القارئ وترويحا لها

(خامسا) مزج الجد بالهزل لتجديد النشاط ورفع السآمة

(سادسا) استقصاؤه وتغلغله فى وصف مايعنى بشرحه أو الاحتجاج لهُ وتلطفه لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر .

مصنفاته — : صنف الجاحظ أكثر من مائتى كتاب منها الكبير والصغير وفى ذلك يقول المسعودى

---

(١) فلان أبو عذرة هذا الامر أى أول من سبق اليه . والعذرة البكارة

(٢) ويقال فلان ابن بجدة هذا الامر أى عالم به وبدليله . والبجدة العلم ودخله الامر وباطنه

« وكتب الجاحظ مع انحرافه (أى عن التشيع لأن المسعودى كان يتشيع) تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفه . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين . وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الاشعار، ومستحسن الاخبار وبليغ الخطب ، مالو اقتصر عليه مقتصر لا كتفى . وكتاب الحيوان وكتاب الطُّفَيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يَقصِد منها الى نَصب. ولا الى دفع حق . ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصحُ منه» ويقول الاستاذ ابن العميد

« كُتب الجاحظُ تعلّم العقل أولا والأدب ثانيا »

وطبع منها فى مصر كتاب الحيوان فى سبعة أجزاء لطاف ، وكتاب البيان والتبيين فى جزأين ، وكتاب البخلاء ، وكتاب رسائله ، وكتاب المحاسن والأضداد .

رسائله : وللجاحظ كثير من الرسائل ، منها الطوال والقصار فى الأدب ومذاكرة الاخوان ونذكر هنا نموذجا منها تكميلا للمقام :

كتب الى عبيد الله بن خاقان فى يوم عيد

« أخّرتنى العِلة عن الوزير (أعزه الله) فحضرت بالدعاء فى كتابى

لِينوبَ عنى ، ويعمُرَ ما أخلته العوائقُ منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظمَ الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يحبُّ ويحَبُّ له ، ويقبلَ ماتوسلَ به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية ، ولا يريَه فى مسرة نقصا ، ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلنى من كل سوء فِداءه ويصرِفَ عيونَ الغيَر عنه وعن حظى منه »

وكتب — : « ترفعْ عن ظلمى ان كنتُ بريئا ، وتفضلْ بالعفو ان كنتُ مسيئا فوالله انى لأطلبُ عفوَ ذنب لم أجنـهِ : وألتمسُ الاقالةَ مما لاأعرفهُ ، لِتزدادَ تطوُّلا ، وأزدادَ تذَلُّلا . وأنا أعيذُ حالى عندكَ بكرمك من واش يَكيدُها وأحرُسُها من باغ يُحاولُ إفسادَها . وأسأل الله تعالى أن يجعَلَ حظّى منك بقدْرِ وُدّى لك ، ومَحلّى من رجائك بحيث أستحق منك »

وكتب الى قليب المغربى يعاتبه — : « والله ياقُلَيْبُ لولاأن كَبدى فى هواكَ مقروحة ، وروحى بك مجروحه ، لساجلتُك هذه القطيعةَ ، ومادَدْتُك حبلَ المصارمةِ وأرجو الله تعالى أن يُديلَ صبرى من جفائك فيَرُدَّكَ إلى مَوَدَّتى وأنف القِلا راغم ، فقد طال العهد بالاجتماع ، حتى كدنا نتنا كرُ عند اللقاء » .

وكتب أيضا — : « أما بعد فما أقبحَ الأُحدوثةَ من مُستمنحٍ حرَمته

(١) يروى بعض هذه الكتب لغير الجاحظ والصحيح انها له

وطالبِ حاجةٍ رَدَدْته ، ومثابرٍ حَجَبْته ، ومُنبسطِ اليك قَبَضْته ، ومُقبلٍ اليك بعنايته ، لوَيْتَ عنه . فتثبتْ فى ذلك ، ولا تُطعْ كلَّ حلاَّفٍ مَهين همازٍ مشاء بنميم » .

وكتب مستنجزا — : « أما بعد فقد رَسفنا فى قيودِ مواعيدِكَ ، وطال مُقامُنا فى سجون مَطلِك ، فأطلقنا (أبقاك الله) من ضيقها وشديد غَمِّها بنعمْ منك مثمرة أولا مُريحه »

علما العروض والقافية

ومن ملحقات علم الأدب علما العروض والقافية وأولها من اختراع الخليل بن أحمد . والثانى تكلَّم فيه قبلَه الأئمةُ كأبى عمرو بن العلاء إلا انهم لم يدوِّنْ وتُجعلَ له مسائلُ خاصة الا على يد الخليل أيضا .

وفضل الخليل على الادب العربى لا يَعدِلُه فضلٌ باختراع العروض . فقد حصر به ضروب الشعر العربى وحَفظَهُ من الضياع وحرَسه من الاختلال وذلك انه لما رأى بعضَ أهل زمانه ينظم على غير الاوزان المعروفة عند العرب و بعضهم يُخِلّ بالاوزان فى نظم الشعر وقراءته لاختلال ملكته فى كثير من المحدثين ، أشفق على أكرم خَصلة وأفضل مَنقَبةٍ للعرب فتتبع أشعارَها وميّز أنواعها ، وكان له معرفةٌ جيدة بالنَغَم والايقاع ، فساعده ذلك على رَدّ بعض الضُّروب الى بعض ، وادخال كل طائفة متشاكلة تحت نوع سماه بحرا ، لان الايقاعَ تقسيمُ الزمن بالنغم ، والشعر تقسيم الزمن بالحروف ، فبلغت عنده

عدةُ البحور خمسة عشر بحرا . وسمى عِلم ذلك جميعه (عَروضا) ، اذ كانت تسمية البيت من الشعر قديمة ، والجزء الذى وسط البيت الذى يدور عليه التقسيم سماه عروضا . وبها سمى العلم جميعه .

ويروى انه قيل : للخليل هل للعروض أصل ؟ قال نعم مررتُ بالمدينة حاجا فرأيت شيخا يُعلم غلاما يقول له : قل

نعم لا . نعم لالا . نعم لا . نعم لالا نعم لا . نعم لالا . نعم لا . نعم لالا

فقلت له : ما هذا الذى تقوله للصبى ؟ فقال : هو علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه التنعيم لقولهم فيه (نعم) . قال الخليل : فرجعت بعد الحج فأحكمتها أى انه قابل (نعم لا) بفعولن و (نعم لا لا) بمفاعيلن وقاس عليها غيرها

ويقال أيضا ان العرب فى جاهليتها كانت تعرف نغم الابحر ، بأن يكرّر أحدُهم بيتا من بحر وينظم أو يكرر كلمات مهملة يتألف من مجموعها وزن وينظم عليه وكانوا يسمون هذا المكرر (المَتَر)

ولما أحصى الخليل علمه ، وحقّق أصولَه وفروعه وألّف كتُبَه أبرزه للناس كاملا فجأة ، فبهرهم وأذهلهم عن كل ما سواه فترة من الزمن

وزاد فى عجبهم منه استخراجه الخمسة عشر بحرا وأضربها البالغة نيفا وستين من خمس دوائر تتألف من ثمانية أجزاء ترجع فى الحقيقة الى أربعة .

فأقبلوا عليه يتلقونه منه وأصبح بذلك أستاذ أهل زمانه بل أهل العربية قاطبة . وحاول من جاء بعده أن يزيد أبنية فى هيكله فلم يأت إلا بما لا يصح عند الخليل روايته عن العرب

واذ لم يجدوا كبير مطمع فى الزيادة عليه طفقوا يخالفونه فى أسماء من الزحاف والعلل وارجاع بعض البحور الى بعض وغير ذلك من الابحاث العقلية التى لم يترتب عليها أدنى تغيير عملى

فمن ذلك زيادة الاخفش عليه بحر الخبب (المتدارك) و بعض أضرب من المديد وغيره

وجاء بعده الجَرمى ثم الزجاج وابن قتيبة والناشئ وغيرهم فألفوا كتبا فى العروض والقافية ناقشوا فيها الخليل والأخفش فى اصطلاحهما والاستدراك عليهما على مقادير استنباطهم حتى وصل الامر الى أبى نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب الصحاح ، وكان من أذكياء العالم ، فبين أصول العروض وأوضحها فى اختصار وخالف الخليل بأن أرجع البحور الى اثنى عشر بحرا . على ان فيها المتدارك ، بأن جعل سبعة فيها مفردات ، وهى الوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والمتقارب والمتدارك وخمسة مركبات وهى الطويل والمديد والبسيط والخفيف والمضارع

فالطويل مركب من المتقارَب والهزج لان المتقارب مركب من (فعولن) ، والهزج مركب من (مفاعيلن) ، والمديد مركب من الرمل والمتدارك ، والبسيط من الرجز والمتدارك ، والخفيف من الرمل والرجز ، والمضارع من الهزج والرمل ، وجعل السريع من البسيط ، والمنسرح والمقتضب من الرجز بجعل (مفعولات) مقلوبة عن مستفعلن ، والمجتث من الخفيف . وأنت ترى أن ليس وراء ذلك كبير طائل وقرّ الامر على ما رسمه الخليل والاخفس

النحو وطبقات أئمته

الارجح ان أول من وضع النحو أبو الاسـود الدؤلى بأمر الامام على رضي الله عنه وكان أبو الاسود يقيم بالبصرة على تشيعه ونصبهم فأ كمل كثيرا من أبواب النحو وأعرب المصحف بالنقط وانتشر علمه بالبصرة ، وأخـذ عنه كثير من الفتيان خصوصا الموالى اذ كانوا أحوج الناس الى النحو . ولم يشتغل أهـل الكوفة به الا بعـد أن فشا فى البصرة وما جاورها . واقتصروا على رواية الشعر والاخبار وجاءت الدولة العباسية والنحو علم يدرس فى المساجد ويدون فى الاوراق وقد اشتغل به فى البصرة طبقتان من العلماء

(الاولى) طبقة أبي الاسود ومعاصريه كَعَنْبَسَة الفيل وعبد الرحمن بن هرمز الاعرج ونصر بن عاصم وميمون الاقرن ويحيى بن يعمَر

(الثانية) طبقة عبد الله بن أبى اسحق الحَضرَمى وعيسى بن عمر الثَّقَفى وأبى عمرو بن العلاء وأبى الخطاب الاخفس الا كبر

وأدرك هؤلاء ما عدا أولهم عصر الدولة العباسية

وكانت الكوفة اذ ذاك قد ابتدأت تشتغل بالنحو ، وظهرت منها طبقة أخذت عن أبى عمرو ومعاصريه . ومن رجال هذه الطبقة بالكوفة مُعاذ الهرّاء أول من تكلم فى الصرف والاشتقاق والرُّؤاسى . وكان علم الطبقة الاولى من البصريين محفوظا فى صدورهم مرويًّا بألسنتهم ، وانما كان تدوينهم له

كتابة أوراق لم تبلغ حد الكتب المنظمة المفصلة ، أو أنها كانت كتبا مختصرة ، كالمختصر الذى ينسب لابى الاسود

فلما كانت الطبقة الثانية من هؤلاء والاولى من الكوفيين صنف عيسى ابن عمر الثقفى من البصريين كتابَ الجامع والاكمال اللذين يقول فيهما الخليل بن أحمد

ذهب النحوُ جميعا كله ... غير ما أحدث عيسى بن عُمر
ذاك اكمالٌ وهذا جامعٌ ... فهما للناس شمسٌ وقمر

ويصنف الرُّؤاسي ابن أخى معاذ الهراء كتاب الفَيْصَل وهو أول كتاب فى نحو الكوفيين . ونبغ فى هذه الطبقة الثانية من البصريين أبو عمرو بن العلاء وبارك الله فى عمره ، ولم يقتصر على علم النحو بل أنكب أيضا على جمع اللغة والادب والاخبار وجمع من الاشعار ما لم يجمعه أحد قبله حتى ملأ مما كتبه عن العرب بيتا الى سقفه . فراقت طريقته أهل زمانه . وأقبل عليه الطلاب من كل فج ، ولم ينزل به ريب المنون حتى ربى هو وعيسى بن عمر فى البصرة طبقة وضعت أساس التصنيف فى علوم اللغة العربية ، وهى الطبقة الثالثة طبقة الخليل بن أحمد ويونس وأبى معاوية شيبان اليمنى ، وكان الخليل هو سابق حلبتها فى استخراج مسائل النحو وتصحيح قياسه وزاد باخراج العروض وتدوين اللغة وجاءت الطبقة الرابعة من البصريين وقد تميزت علوم العربية من نحو وتصريف ولغة وعروض وقواف وأخبار وسير ونوادر فاشتغلت بكلها ، وعلّم بعضهم بعضا ، وهى طبقة سيبويه والاصمعى وأبى عبيدة وأبي زيد

ومعاصريهم . فانقطع سيبويه للنحو وأخذ جُلّ روايته عن الخليل و بقيتها عن الاعراب ووهبت له ملكة التصنيف والتنسيق فجمع كتابه من أقوال الخليل فى مجالسه ومن يونس وحكى عن الرؤاسى من الكوفيين فكان كتابه أول كتاب حافل صحيح جامع لاصول النحو ودقائقه فأصبح عمدة العلماء بعده وتناولوه شرحا واختصارا . وكان فى مقابلة هذه الطبقة من الكوفيين طبقة الكسائى، وهوأمام الكوفيين على الاطلاق ، وكتبه فى النحو والقراءة مرجعهم وله مع سيبويه مناظرة فى مجلس يحيى بن برمك تذكر فى ترجمتيهما

وكان أمام الطبقة الخامسة من البصريين الاخفش الاوسط ناشر كتاب سيبويه وشارحه ومنتقده

ويقابله فى الكوفيين الفراء صاحب الكسائى وخليفته فى علمه وصاحب كتاب الحدود وغيره ، وأول من استعمل فى كتبه عبارات الفلاسفة وتعليلاتهم وعنه انتشر علم الكوفيين فى بغداد والكوفة وغيرهما . واشتهر فى زمنه من الكوفيين ابن الاعرابى وأبو عمرو الشيبانى

ثم نشأت فى البصريين طبقة الشرح والتكميل والاختصار وتهذيب التعريفات ووضع الاصطلاحات ، وأئمتهم أبو عُبَيد الله محمد التَّوَّزى وأبو على الحِرمازى وأبو عمرو صالح بن اسحق الجَرْمى وأبو عثمان المازنى وأبوحاتم سهل ابن محمد السِجستاني .

ويقابلهم فى الكوفيين طبقة بن السِكّيت وأبى عبيد القاسم بن سَلاّم ثم كانت الطبقة السادسة من نحويى البصريين وهى طبقة أبى العباس المبرد

ويقابلها من الكوفيين طبقة ثعلب واليهما انتهى علم البصريين وعلى أيديهما تمت أصول النحو ، (وبهما ختم علم الادب)

وجملة الفرق بين مذهب الكوفيين والبصريين :

(١) ان البصريين يقدمون السماع على القياس، ولا يصيرون اليه الا اذا أعوزتهم الحاجة الشديدة ، وربما توقفوا عن العمل بالقياس فى بعض المسائل اذا لم يؤيده شاهد وهون عليهم ذلك كثرة جمهرة العرب الفصحاء بالبصرة وقربها من عامر البادية كنجد والبحرين . وأنّ الكوفيين لكثرة اختلاطهم بأهل السواد والنبط وقلة بقاء جمالية العرب بها عن البصرة اعتمدوا على القياس فى أكثر مسائلهم

(٢) تعصب البصريين فى الرواية وحملها الا عن فصحاء العرب من صميم البادية وتساهل الكوفيين فى ذلك ووثوقهم بأعراب لا يرى البصريون فصاحة لغتهم

(٣) اختلافهم فى كثير من أوجه القياس وتبع ذلك اختلافهم فى المسائل الكثيرة المعروفة فى كتب النحو

هذا وكانت عناية الكوفيين بجمع الشعر وحفظه تفوق عناية البصريين إلا أن هؤلاء يزعمون أن أكثره مصنوع محدث . وكان الخلفاء يؤثرون علم الكوفة ويقدمون علماءها ، لأن الكوفيين قرعوا أبواب الملوك قبل البصريين لقرب الكوفة من بغداد ولأن أهل الكوفة شيعةُ بنى هاشم وأكثر البصرة عثمانيون وغير ذلك . وانتشر علم الكوفة ببغداد ، وسكنها أئمتها قبل انتشار

علم البصرة بها وجلاء علمائها اليها و بقى المصران يتناظران فى علوم العربية حتى توالت عليهما الفتن والتخريب من الزنوج والقرامطة فجلا علماؤهما الى بغداد ونشأت طريقة البغداديين وهى خليط من المذهبين

ولم يبتدئ القرن الرابع حتى اضمحلّ التنازع فى المذهبين واقتصر المؤلفون على حكاية مسائل خلافهما جاعلين أساس تأليفهم مذهب البصريين واستمر الحال على ذلك ولما نقل علم النحو الى الأندلس اشتغل به علماؤها وصار لهم فيه مذهب يخالف المذهبين فى بعض المسائل وله أئمة يذكرون فى علماء الأندلس

علم اللغة

ويسمى علم متن اللغة ونعنى به معرفة معانى ألفاظها المفردة . وهذا العلم كانت معرفته فى زمن بني أمية وأوائل بنى العباس مستمدة من تفهم كلمات القرآن الكريم وتتبع ألفاظ العرب فى أشعارهم ولم يكن للمستكشف عن كلمة أن يعرفها الا اذا سأل عنها أحد الأئمة الموثوق بهم ،أو شافه الاعراب، أو عثر عليها عَرَضا فى قراءة الشعر . ثم فكر الأئمة فى تصنيف رسائل وكتب صغيرة فى موضوعات خاصة من فقه اللغة فجمعوا الألفاظ الخاصة بخَلْق الانسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف أو الرمح أو القوس أو غير ذلك وأفردوا لكل كتابا أو كتبا

فلما ظهر الخليل أعمل فكره الثاقب فى اختراع طريقة يحصى بها كلمات

العربية على حسب مايتركب من حروف المعجم من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى واستعمل فى ذلك متوالية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، فدون ذلك فى كتاب جامع سماه كتاب العين لانه رتبه على ترتيب مخارج الحروف فقدم الكلمات المبتدئة بأحرف الحلق ثم ما يليها الى حروف الشفه وابتدأ بحرف العين، فكان هذا الكتاب فى نظامه أصل جميع كتب المعاجم

ويظهر ان الخليل مات قبل أن يتمه ، وأتمه جماعة مختلفون بعده . واختصره أبو بكر الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ ﻫ من علماء الأندلس . ولم ينتشر كتاب العين إلا بعد الخليل بنحو ستين سنة ، ولذلك بقى الأئمة فى تصنيف كتب اللغة على طريقة جمع ألفاظ كل موضوع فى رسالة كأنهم لم يسمعوا عن كتاب الخليل أصلا، ولعل هذا الى ما فيه من بعض الاختلال مهّد للكثير من العلماء سبيل الطعن فى عزوه الى الخليل

وللاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى والنَّضر بن شُمَيل (والليث ابن سعد المصرى) وابن الاعرابى وابن السِّكّيت وغيرهم عظيم الفضل فى جمع اللغة . وعلى ذلك مضى بعد الخليل أكثر من قرن ولم يؤلف فى اللغة معجم غير كتابه حتى جاء أبو بكر بن دريد فألف كتاب الجمهرة منه ومن كتب الأئمة الآنفة الذكر، ورتبه على حروف المعجم ابتدأ بالألف ثم الباء ثم التاء الخ .

وأدرك عصره الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ ﻫ فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ثم وُضع الصحاح للجوهرى والمحكم لابن سيده والمجمل

لابن فارس فى المائة الرابعة وسيأتى الكلام عليهما . وهذه هى أصول كتب اللغة وما بعدها من العباب والتكملة ومجمع البحرين للصاغانى والنهاية لابن الأثير ولسان العرب والقاموس وغيرها فهو جمع لها أو اختصار منها وستتكلم على كل فى عصره

علوم البلاغة

المعانى والبيان والبديع

لم يصنف العلماء فى استنباط هذه العلوم الثلاثة إلا بعد ان فرغوا من تدوين العلوم التى تحفظ صحة الكلام العربى من حيث اعرابه وتصريفه ومادته . فلما أتموا ذلك بحثوا فى الوجوه التى يطابق بها الكلام مقتضى الحال (وهى مانسميه بعلم المعانى) وعن أوجه استعمال اللفظ بطرق مختلفة الدلالة باختلاف لوازمه (وهى مانسميه علم البيان) وعن الأساليب الجميلة وأنواع المحسنات اللفظية والمعنوية (وهو مانسميه علم البديع)

ويظهر أن أول كتاب دُوِّن فى هذه العلوم كان فى علم البيان وهو كتاب مجاز القرآن الذى ألفه أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ ﻫ عقب أن سُئِل فى مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى (طلعها كانه رءوس الشياطين) وأن الشياطين ورءوسها لم تعرف . وأجاب بأنه على حد قوله

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرقٌ كأنياب أغوال

ثم تبعه العلماء فى ذلك ، فدونوا رسائل وألقوا بعض أمال فى الاستعارة

والكناية لم تميّز علم البيان تميزا خاصا . و بقى كذلك مدة العصر العباسى الاول

ولا يُعلَمُ أولُ من تكلم فى المعانى بالضبط ، وانما أُثِر عن بعض البلغاء من الكتاب والخطباء والفصحاء كلامٌ فى معنى البلاغة فى أمالٍ أو مجالس متقطعة مثل جعفر بن يحيى و بشر بن المُعتمِر وسهل بن هرون . وأول من تعرض لذلك فى كتب منتظمة هو الجاحظ فى البيان والتبيين واعجاز القرآن وغيرها وتابعه العلماء والكُتّاب من بعده فى مثل ذلك كأبى العباس المبرد وقُدَامة بن جعفر الكاتب . و بقى كذلك مدة هذا العصر

وأما علم البديع فيقال ان أول من كتب فيه كتابا خاصا عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وكان قبله يتناوله الناس بالاستطراد والمناسبات ، ويتعمدونه فى شعرهم مثل بشار ومسلم بن الوليد وأبى تمام . فجمع ابن المعتز من أنواعه سبعة عشر نوعا وقال فى كتابه : وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ، ولا سبقنى اليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ، ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى اضافة شئ من المحاسن اليه فله اختياره

وكان ممن يعاصره قُدامة بن جعفر الكاتب فجمع عشرين نوعا ، توارد معه على سبعة منها وسلم له ثلاثة عشر ، فتكامل لهما ثلاثون ، وانقضى هذا العصر ولم يجمع أكثر من ذلك . وزاد فى العصر التالى كل من[1] أبى هلال العسكرى وابن رشيق القَيْروانى ، وعبد العظيم بن أبى الاصبع المصرى أنواعا كثيرة وسنذكر ذلك فى موضعه .

وكانت مباحث هذه العلوم الثلاثة تسمى قديما علم البيان وأحيانا تسمى علم البلاغة .

ولم تميَّز مسائل هذه الفنون وتفصل وتبَوَّب الا فى العصر التالى . وأول من أقدم على ذلك شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١

ثم بقى الأمر كذلك حتى جاء فارس الحلبة أبو يعقوب يوسف السَكّاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فبسط هذه العلوم ضمن ما بسطه فى كتابه المفتاح وأحصى أبوابها وهذب مسائلها ونقحها ورتبها فكان كل من أتى بعده عالة عليه . وسنذكر ذلك فيما بعد

أئمة العربية

أئمة البصريين

الخليل بن أحمد الفراهيدى

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى الازدى البَصرى نابغة العرب ، وسيد أهل الادب ، ومخترع العروض ، ومبتكر المعاجم ، وصاحب الشكل العربى المستعمل .

وأحمد أبوه أول من سمى (أحمد) فى الاسلام

ولد الخليل سنة ١٠٠ هـ بالبصرة ونشأ بها وأخذ العربية والقراءة عن أئمة زمانه كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى . وروى الحديث عن عِلْية رواته ، وأكثر الخروج الى البوادى وسمع الاعراب والفصحاء فنبغ فى العربية

نبوغا لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه :

وكان غاية فى تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فبسطه وفرع على أصوله ، وجعله علما مضبوطا ، ولقن سيبويه تلميذه عِلم ماصنف من كتابه أصلِ كل كتاب فى النحو .

وكان الخليل أحد الأفراد القلائل الذين سمحت بهم الدنيا ، يشهد لذلك اختراعه العروض علما كاملا ، غيرَ دارج فى مدارج النشوء والارتقاء (كما يقولون) واختراعه طريقة تدوين المعاجم بتأليفه كتاب العين الذى يظهر أنه مات قبل إكماله وأكمله بعض أصحابه ، والذى صار بعد نموذجا واماما لكتب المعاجم .

وتدوينه أول كتاب فى الموسيقا على غير معرفة بلغة أجنبية ينقل عنها ، و ضرب بآلة من المعازف ، أو جلوس فى مجلس لهو . وكان ممن استمد من هذا الكتاب اسحق الموصلى . وزاد فى الشِّطْرَنْج قطعة سماها جملا فلعب بها الناس زمنا

وبقى الخليل مقيما بالبصرة طول حياته زاهدا متعففا متقشفا مُنْكبًّا على العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٤ فى أوائل خلافة الرشيد

ويقال فى سبب موته أنه قال : أريد أن أعمل نوعا من الحساب تمضى به الجارية الى البقال فلا يظلمها ، فدخل المسجد وهو يعمل فكره فاصطدم فى سارية صدمة شديدة ارتجّ منها دماغه واعتل من ذلك ومات رحمه الله

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبَرٍ مولى بنى الحرث بن كعب امام البصريين ، وحجة النحويين ، ووارث نحوالخليل ، وصاحب الكتاب شيخ الكتب .أصله من البيضاء (بلدة قرب شيراز) من بلاد فارس ومعنى كلمة (سيبويه) رائحة التفاح : نشأ بالبصرة وكان أول أمره يطلب الحديث والفقه . فكان يوما يستملى على حمّاد بن سَلَمه. فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء) فقال سيبويه (ليس أبو الدرداء) فقال حماد : لحنت ياسيبويه (ليس أبا الدرداء) فقال سيبويه : لاجَرَم لأطلبن علما لايُلَحِّنُنى فيه أبدا . وطلب النحو ولازم الخليل وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يُؤْثِره ويقدمه على جميع أصحابه . فدون سيبويه جميع ما أخذه عن الخليل ، وكثيرٌ من عبارته وأبوابه معقودٌ بلفظه . ونقل فيه عن غيره من بعض البصريين والكوفيين فجمع فى كتابه مالم يجتمع قبله فى كتاب . وصارت كتب النحو بعده عالة عليه ولولا هذا الكتاب لما كان لسيبويه خبر يُشْهَرْ لوفاته كهلا ، ولقلة من أخذعنه ، ولأنه لايعرف له كتاب غيره وبحسبك هو

ولما أحس سيبويه بفضل معرفته فى النحو خرج الى بغداد وافدا على البرامكة فجمعه يحيي بن خالد بالكسائى فتناظرا فى مجلس أُعِد لذلك فكان من مسائل المناظرة أن سأله الكسائى : ماتقول فى قول العرب (كنت أظن

أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى أو فاذا هو اياها) فقال سيبويه (فاذا هو هى ولا يجوز النصب) فقال الكسائى : العرب ترفع ذلك وتنصبه واشتد بينهما الخلاف فتحا كما الى رواة الاعراب بباب يحيي فوافقوا الكسائى فاستكان سيبويه . فقال الكسائى ليحيي (أصلح الله الوزير) انه قدوفد اليك مؤملا فان رأيت ألا ترده خائبا . فأمر له بعشرة آلاف درهم وما يروى فى هذه الحكاية غير هذا فمن زيادة متعصبى البصريين وليس فى العلم كبيرٌ. وخرج سيبويه بعد هذه المناظرة الى ناحية بلده البيضاء .. ومات بهابعد نحو عشر سنين من المناظرة سنة ١٧٧ على الأرجح وسنُّه نيفٌ وأربعون سنة

أبو الحسن الأخفش الأوسط

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة النحوى العروضى العلامة .راوى كتاب سيبويه وناشره . وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين أولهم أبو الخطاب الأخفش الكبير من متقدميهم ، وثالثهم على بن سليمان تلميذ المبرد ،والاخفش الأوسط هو الذى ينصرف اليه الاسم عند الاطلاق وهو المَحكى عنه فى أكثر مسائل الخلاف

أصله من بلخ من موالى مُجاشِع من بطون بنى تميم ، وسكن البصرة ، وأخذ عمن أخذ عنه سيبويه غير الخليل . ثم لزم سيبويه أثناء تأليفه الكتاب وكان يقول فى ذلك : ماوضع سيبويه فى كتابه شيئا إلاعرضه علىّ وكان يرى أنه أعلم به منى وأنا اليوم أعلم به منه . ولم يقرأ كتاب سيبويه عليه أحد غيره

فهو طريقه ، ومنه انتشر بين الناس . وأخذه عنه الجرمى والمازنى. والأخفش هو الذى استدرك على الخليل بحر الخبب (المتدارك) و بعض ضروب فى بحور أخرى صحت رواية الجميع عنده ، ولم تصح عند الخليل . وله فى فن النحو والعروض والقافية والاشتقاق واللغة والرسم مذاهب مشهورة مؤيدة . وكان مع ذلك من كبار المتكلمين المعتزلة ، ومن أحذق الناس بصناعة الجدل ، وهذا ما حمله على الخروج الى بغداد ليناظر الكسائى انتصارا لشيخه سيبويه ، فكان ذلك سببا لمصادقتهما وساعده بالمال ، فصنف له كتبا عديدة من رواية البصريين ومات الأخفش سنة ٢١٥ وله كتب كثيرة منها الكتاب الأوسط فى النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض والقوافى وشرحه للكتاب

٧ المبرّد

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الازدى وارث علوم العرب ، وخاتم رواة الأدب ، وصاحب الكامل والروضة والمقتضب، ولد سنة ٢١٠ بالبصرة وبها نشأ وقرأ على الجَرْمى والمازنى والسِّجِسْتانى ثم أقام ببغداد ولم يَنْبَغْ فى البصريين بعده مثلُه . وكان هو فى البصريين وثعلب فى الكوفيين امامى عصرهما، و بينهما من المنافرة والمناقضة أشدُّ ما كان بين بصرى وكوفى ، ولم يَعْدُ ذلك حد المناقشة فى الصناعة ، واذا سئل أحدهما عن الآخر شهد أنه واحد زمانه . ويعد المبرد من فحول كتاب التدوين والتصنيف كما يعد من ظرفاء الشعراء ، وشهرته بذلك عند المتأخرين نسخت شهرته بالنحو

واللغة عند المتقدمين ، اذ لم يبق فى أيدى الناس من كتبه الممتعة غير كتابه الكامل المعدود أحد أركان الأدب . وكان المبرّد حسن السَّمْت [١] صادق الرواية وجيها عند أصحاب السلطان ، لايعلّم الاّ بأجرة على قدر كسب الطالب . وقد خلَف المبردُ الجاحظَ فى تأليف الكتب المؤنقة الممتعة فى الشؤون المختلفة . وله كتب مشهورة أشهرها الكامل والروضة فى الأدب والمقتضب فى النحو ومات سنة ٢٨٥ ببغداد

ابن دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزدى خليفة الخليل فى اللغة وصاحب كتاب الجمهرة وناظم المقصورة . ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ وبها نشأ وتعلم وأخذ اللغة عن طبقة المبرد ، ثم رحل مع عمه عند حدوث فتنة الزنج الى عُمَان موطن قبيلته واستوطنها اثنتى عشرة سنة انقطع فيها لأخذ الشعر واللغة عن الاعراب

وكانت اللغة لاتزال بعدُ صحيحة فصيحة فى جزيرة العرب ثم رجع الى البصرة بعد هلاك الزنج وسكنها أزمانا أكمل فيها علمه ، ثم خرج الى فارس متجها الشاه بن ميكال وابنه وابن ابنه وكانوا على عمالة فارس من قبل الخليفة فصنف لهم كتاب الجَمْهَرة من أقدم معاجم اللغة وأصحها ، ومدحهم بالمقصورة المشهورة . فأجزلوا صلته وتولى ديوان فارس لابنى ميكال حتى عزلا . فرجع الى

(١) السمت هيئة أهل الخير

بغداد مدة المقتدر فأجرى عليه راتبا خمسين دينارا كل شهر حتى مات سنة ٣٢١ هـ وسنه ثمان وتسعون سنة

وكان يقال فيه انه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وكان يتهم بشرب النبيذ متبعا فى ذلك رأى من يجيزه من فقهاء العراق وينفق جميع ما يكسبه على اخوانه ومؤانسيه .

أئمة الكوفيين

مُعاذ الهَرّاء

هو أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء النحوى الكوفى واضع علم الصرف وأحد قدماء النحاة الكوفيين . وسمى الهراء لبيعه الثياب الهَرَوية وهو من الموالى . نشأ بالكوفة وأخذ النحو عن علماء الطبقة الثانية والثالثة من البصريين ، وكان مُقرئا، وله روايات فى القراءآت ، وصنف فى النحو وأملى فيه وفى الصرف ولم تظهر له كتب . والمشهور انه أول من تكلم فى الصرف ووضع له القواعد، وكان شيعيا مصادقا للكُمَيْت . وعاش قريبا من تسعين سنة . وكان له أولاد وأولاد أولاد ماتوا كلهم وهو باق قوى حتى مات سنة ١٨٧ هـ

الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن فَيْروز الأسدىُّ ولاءً الكوفىُّ منشأً أحد القراء السبعة وامام الكوفيين فى النحو واللغة . نشأ

بالكوفة ويقال انه لم يتعلم النحو إلا على الكبر وذلك أنه جلس الى بعض اخوانه من طلبة العلم فلحنوه فلازم مُعاذا الهراء والرؤاسى من الكوفيين حتى أنفد ماعندهما ثم خرج الى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقته وأعجبه فقال له من أين علمك هذا .قال: من بوادي الحجاز ونجد تهامة فخرج الكسائى وأنفد خمس عشرة قِنِّينةَ (١) حبر فى الكتابة عن العرب سوى ماحفظه عنهم ، وأخذ القراءة عن حمزة الزيات وأقرأ أهل بغداد بقراءته ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس .

ولما رجع من البادية وجه اليه المهدىُّ فخرج الى بغداد ، فحظى عنده وضمه الى الرشيد . ثم جعله الرشيد مؤدب ولده الأمين و بقى وجيها عنده فكان يجلسه هو والقاضى محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه ، وما زالا معه على هذه الكرامة حتى خرج الرشيد الى الرَّى وهما فى صحبته فماتا فى يوم واحد فبكاهما وقال : دفنت الفقه والعربية بالرى وذلك سنة ١٨٩ هـ

وقد انتهت اليه امامة القراءة والعربية بالكوفة و بغداد وكان يروى الشعر وليس له فيه جيد نظر . . وفى تسميته بالكسائى أقوال منها انه أحرم فى كساء ومنها انه كان يجلس فى حلقة معاذ فى كساء والناس يجلسون فى الحُلَل وله نحو عشرين كتابا منها كتاب معانى القرآن وكتاب النحو وكتاب النوادر وكتاب الهجاء .

---

(١) القنينة كسكينه القارورة للشراب ونحوه

الفرّاء

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمى امام العربية وعالم الكوفة و بغداد وصاحب التصانيف الممتعة

ولد سنة ١٤٤ هـ بالكوفة وأخذ النحو عن الرؤاسى ويونس ، ثم لزم الكسائى وتخرج عليه ، ومنه استمدوأخذ عن الاعراب ، ثم نظر فى علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها فامتاز بذلك عن أستاذه الكسائى كما امتاز الكسائى بقراءته

وكان يميل الى الاعتزال ، ويحب النظر فى علم الكلام من غير ان يكون له طبع فيه ، غير ان اشتغاله بهذه العلوم أكسبه ملكة النظام والترتيب والاستنباط والتعليل . ولم يعرف فى الكوفيين بعده من أبلى بلاءه فى خدمة العربية .

وكان له مذاهب مختارة فى النحو والصرف والهجاء يخالف فيها الكسائى ولما عظم أمره خرج الى بغداد فمهد له الكسائى الاقامة بها . ولما مات خلفه على درسه حتى ولى المأمون فاتصل به وجعله مؤدب ولده وحمله على تصنيف كتاب الحدود الذى جمع أصول العربية

ودوّن فيه مذهب الكوفيين واحتج له فكان فى علم الكوفيين نظير كتاب سيبويه عند البصريين

ثم جلس الى الناس وأملى عليهم كتاب معانى القرآن وتفسيره فى أربعة

أجزاء كبار فكان من أجلّ التفاسير

وله كتب غيرهما تبلغ ثلاثة آلاف ورقة كبيرة أملاها من حفظه . وكان الفرّاء متديّنا متورعا على تِيهٍ وعُجْب وتعظُّم . وكان شديد التعصب على سيبويه وكان طلابا للكسب يجمع المال طوال دهره وينفقه على أهله بالكوفة ومات فى طريق مكة سنة سبع ومائتين هجرية عن ستين سنة .

علم التفسير

كان الصحابة رضوان الله عليهم يقرءون كتاب الله ويعلمون بفطرتهم العربية وصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أحواله لفظا ومعنى ويعرفون وقائع نزوله وأحكامه المرادة منهُ . ويرجعون فيما أُبهِم عليهم من مجمله ومتشابهه وناسخه ومنسوخه الى رسول الله ثم من بعده الى كبارهم وفقهائهم كالخلفاء والعبادلة وأُبَىّ بن كعب وأنَسَ بن مالك . وكانت روايتهم عن النبى صلى الله عليه وسلم محفوظة لم يكتب منها الا قليل من صحف غير متضامّة الأجزاء لتحرجهم كان من التدوين حتى لايختلط التفسير بالمفسَّر

وأخذ عن الصحابة جماعة من التابعين كأصحاب ابن عباس بمكة ومنهم مُجاهد وسعيد بن جُبير وعِكْرمة مولى ابن عباس وطاوس بن كَيْسان وعَطاء بن أبى رَباح . وأصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة كابراهيم النَّخَعى والشَّعبى . وأصحاب زيد بن أسلم بالمدينة والبصرة وغيرهما كمالك بن أنس والحسن البصرى وأبى العالية رفيع بن مَهْران ومحمد بن كعب القَرَظى والضحاك

ابن مزاحم وقَتادة بن دِعامة والربيع بن أنس والسُّدِّى

وقدماء هـذه الطبقة من التابعين لم يدوّنوا كتب تفسير جامعـة وانما أدرك بعض متأخريهـم زمن أبى جعفر المنصور فدوّنوا مع من دوّن من طبقة تابعى التابعين الذين وضعوا كتب التفسير الجامعة لسور القرآن كلها . وكانت كتبهم تجمع أقوال الصحابة وكبار التابعين . ومن هؤلاء سُـفيان ابن عُيَينة وَوَكِيع ابن الجراح وشُعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم ابن أبى إياس واسحق بن راهَوَيْه والـكلبى ومحمد بن اسـحق ومقاتل بن سليمان والفراء وغيرهم

وبعض هـذه الطبقة كتب فى غريب القرآن ، وبعضهم كتب فى معانى القرآن وتأويل بعض آياته المحتملة لجملة معان ، وبعضهم كتب فى مجازه

ومن أشهر التفاسـير التى رُوِيت من طريقهم عن الصحابة تفسير ابن عباس وقد روى من طرق مختلفة صحة وضعفا. وطبع بعض طرقه الضعيفة فى مصر سنة ١٢٩٠ هـ فهو بذلك أقدم تفسير نعرفه

وتفاسير هذه الطبقة كثيرة ذكر صاحبا الفهرست وكشف الظنون منها جملة وافرة ولـكنهم ومن قبلهم رَوَوْا كثيرا من أقوال من أسـلم من أهل الـكتاب فى القصص وبدء الخليقة وأسرار الوجود ككعب الأحبار وَوهب ابن مُنَبِّه وعبد الله بن سلاَم وأمثالهم وانما كان هؤلاء بَدَوًا لاتحقيق عندهم ولا تمحيص . ودخل مع ذلك كثير من الأقوال الفاسدة والتأويلات الباطلة والأحاديث الـكاذبة التى دسها مُتَسَتِّرو الزنادقة ممن كانوا يكيدون للاسلام

بافساد أصوله . فصارت الكتب الأولى لطبقة التابعين ومن بعدهم حاوية للغث والسمين خصوصا كتب مقاتل والكلبي . ثم جاء بعد هؤلاء طبقة أحصت علم من قبلها وزادت عليه ، وتجرد كثير منهم لتحقيق الروايات ونفى الأكاذيب كعلى بن أبي طلحة والحاكم وابن ماجه . ومن متأخرى هؤلاء البحر الخضم والعيلم الأعظم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المولود سنة ٢٢٤ هـ والمتوفى سنة ٣١٠ هـ فقد جمع فى تفسيره الكبير صحاح الروايات عن الصحابة والتابعين فكان كتابه أول كتاب عظيم صحيح وضع فى التفسير على مذهب السلف وتابعه فى ذلك الثعلبى والواحدى ومنهم استمد كل ذى تفسير بعدهم .

وانتهى العصر الأول من بنى العباس والأمر على ماذكرنا . وبعده نشأت طبقات رغب بعضهم فى تجريد أسانيد الروايات ، وبعضهم فى تصحيحها ، وبعضهم فى اضافة كثير من مباحث العلوم الى التفسير كالنحو والصرف والفقه والأصول والبلاغة والفوائد والتاريخ والأقاصيص حتى صار كل تفسير يغلب عليه علم من العلوم . ثم تجردت طائفة الى التفسير بالرأى والقياس وعدم الوقوف عند حد أقوال الصحابة . فانقسم التفسير بذلك الى قسمين : تفسير سلفى ، يقتصر على نقل أقوال الصحابة والتابعين بنصوصها ، وتفسير فَنِّىٌّ يتعرض فيه للصناعات اللفظية والبلاغة وتؤول فيه الآيات بما يمكن احتماله كما سيأتى بيانه

الحديث

كان كثير من الصحابة يُعْنَوْنَ بحفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحدثون عن أفعاله وأحواله واشتهر منهم فى ذلك أبو هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وعائشة وأبو سعيد الخُدْرى وأبو الدَّرداء وابن مسعود وغيرهم ممن ذكرنا فى رجال التفسير

ولما فتح المسلمون البُلدان ومات كثير من الصحابة خاف أعلام الأمة أن تضيع معالم الدين بضياع السنة وموت الصحابة ، فاشتدت عنايتهم بجمعها وطوّفوا المدن والأمصار والسهول والأوعار فى طلب الحديث وسماعه عن أشخاص رواته . ومن أشهر التابعين فى ذلك سعيد بن المسيَّب وعُروة بن الزبير وخارجة بن زيد والزُّهرى وأبو سَلمة وسعيد بن جُبَير وقَتادة الاعمش وابن جُرَيج وغيرهم . وأدرك عمر بن عبد العزيز على رأس المائة ضرورة تدوين الحديث فأمر ابن شهاب الزهرى أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمعه وتدوينه واقتدى بهم الناس حتى جاء عصر المنصور فأمر مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ وهو أقدم كتاب باق فى الحديث والفقه الى وقتنا هذا .

ومن هذا العهد انصرفت همم كل أئمة المسلمين الى جمعه وتدوينه حتى كان أنفسَ ما يتنافس فى معرفته العلماء ، وراجت رجاله عند الخلفاء وأشراف الأمة فاندس بينهم كثير من أهل الضلالة والمتزندقة فوضعوا كثيرا من الأحاديث وقبلها منهم بعض أهل الغفلة من طلاب الحديث ، فشق ذلك

على الخلفاء فتتبعوهم قتلا وحبسا ، وأكب الأئمة على تمحيص الصحيح من المصنوع فاقتفوا آثار الرواة جرحا وتعديلا ، ونظروا فى الأحاديث نقدا وتصحيحا ، ووضعوا لذلك متونا وكتبا خاصة، ورتبوا أنواع الحديث مراتب مختلفة صحة وضعفا . وأشهر من قام بذلك امام المحدثين اسحق بن رَاهَوَيْه المتوفى سنة ٢٣٨ ﻫ كما أنه أول من جرد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير ، وكانت تكون قبلُ ممتزجة . ثم اشتهر بعده تلميذه شيخ الحديث وامام السنة محمد بن اسمعيل البخارى فوضع باشارة منه كتابه الجامع ، جمع فيه الصحاح فقط ، وكانت الأحاديث قبل تجمع مختلطا صحيحا بضعيفها منبها على مرتبة كل منها . وتبعه فى ذلك تلميذه مُسلم بن الحجاج فكان صحيحاهما أصح الكتب بعد كتاب الله . ثم استدرك عليهما الأئمة بعدهما مافاتهما من الصحيح والحسن ، وألفوا كتبا شتى أجمع الناس على صحة أربعة منها وهى

الجامع لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ ﻫ والسنن لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ ﻫ والسنن أيضا لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعَيب النَّسائى المتوفى سنة ٢٧٥ ﻫ والسنن أيضا لأبى عبد الله محمد بن يزيد بن ماجَهْ المتوفى سنة ٢٧٣ ﻫ

و بعضهم يعد الموطأ بدل سنن بن ماجهْ وآخرون يحسبون مسند الامام أحمد بن حنبل منها .

وجمع غير هؤلاء فى عصرهم و بعده أحاديث بمراتب مختلفة من طرق

متعددة لم تخل من ثقة الأمة محل الكتب الستة والمسند لأحمد والموطأ .

وقد شرحت هذه الكتب وجمعت فى كتب عظيمة تشملها وغيرها ومن فعل ذلك الرُّمَّانى والحميدى والعبدرى والسيوطى والشوكانى .

أئمة الحديث

الامام البخارى

هو امام المسلمين ، وقدوة الموحدين ، وسيد المحدثين ، أبو عبد الله محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه بن بَذِذْبه الجُعفى ولاءً البخارى منشأ صاحب الجامع الصحيح أجل كتب الاسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز . ولد ببخارى سنة ١٩٤ ونشأ بها يتيما ، فحفظ القرآن وشَدَا العربية وهو صبي وحبب اليه سماع الحديث وهو فى المكتب ، فكان أول سماعه سنة ٢٠٥ من علماء بخارى وأشهرهم البِيكَنْدِى [١] وكان يهابه اذا جلس أمامه لكثرة حفظه . ولم يناهز البلوغ حتى حفظ عشرات الألوف من الأحاديث . وكان أهل المعرفة يتعادَوْن خلفه فى طلب الحديث ، وهو بعد شاب لم يخرج وجهه ، حتى يُجلسوه فى بعض الطريق فيجتمع عليه كثير ممن يكتب عنه .

وخرج مع أمه وأخيه سنة ٢١٠ هـ الى مكة فحجوا ورجع أخوه وأمه وتخلف هو لطلب الحديث وصنف كتاب التاريخ المشهور عند قبر النبى صلى

(١) هو ابو احمد محمد بن يوسف البيكندى نسبة الى بيكند (بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى)

الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة .

ودخل البخارى فى طلب الحديث أكثر ممالك المشرق من خراسان والجبل والعراق والحجاز ومصر والشام وأخذ عنه علماؤها وأئمتها، ومنهم أحمد ابن حنبل . وتفقه البخارى على مذهب الشافعى وله اجتهاد خاص

ولما نضج علمُه واجتمع له يقينهُ شرع فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها بعد أن عرف عللها ووجوهها معرفة لم تتم لاحـد قبله . فكان المقدم بذلك على جميع علماء الارض . واستخرج كتابه (الجامع الصحيح) من ستمائة ألف حديث فى ست عشرة سنة . وكان لايضع فيه حديثا حتى يغتسل ويصلى ركعتين . جمع فيه تسعة آلاف حديث مكرر بعضها بتكرر وجوهها . وقال أنى جعلته حُجة بينى وبين الله . فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها أصح منـه حتى ولا صحيح مسلم خلافا لبعض المغاربة وتناوله العلماء شرحا وتخريجا واختصارا وترتيبا بأوجه لاتتناهى .

وبقى طول حياته يتردد بين الأمصار ويقيم ببغداد ونَيْسابور وغيرهما حتى اشـتاق الى بلاده . فرجع اليها ، وابتلى فيها بفتنة خلق القرآن . وكان ممن يتوسـط فيها ويقول بأن ألفاظ القرآن ونقوشـه مخلوقة ، وان كلام الله النفسى قديم غير مخلوق فأثار عليه والى بخارى العامة ، فأخرجوه من بخارى ، فمات فى طريقه بقرية يقال لها (خَرْتَنْك) على ثلاثة فراسخ من سَمَرْقَنْد سنة ٢٥٦ هـ وله من العمر ٦٢ سنة الا ١٣ ليلة .

وله كتب كثيرة غير الجامع الصحيح

الامام مسلم

هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النَّيسابورى أحد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين

ولد سنة ٢٠٦ ﻫ ورحل الى العراق والحجاز والشام ، وسمع من أئمتها ، وقدم بغداد مرارا، وأخذ عن البخارى ، وكان صديقا له كثير المناضلة عنه . وأخذ عن أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه والقَعْنَبِي (١) وخلق كثير وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث وهو صنو حديث البخارى فى الصحة ومن الناس من يرجحه عليه وهم بعض المغاربة

وأقام بعد رحلاته العديدة ببلدة نيسابور وكان له فيها أملاك وثروة فبقى يتاجر بها حتى توفى سنة ٢٦١ ﻫ وله كتب كثيرة

علم الفقه

كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون فى أمور دينهم وأحكام عبادتهم الى النبي صلى الله عليه وسلم والى الخلفاء والقرّاء من أصحابه بعد وفاته ، وعنهم أخذ التابعون . واذ كان المَرْوِىُّ عن رسول الله وظاهر نص القرآن الكريم لا يستوعبان كل أحكام الوقائع المختلفة المتجددة بتجدد الزمان والمكان وقع الخلاف من زمن الصحابة فى تحرِّى الأحكام من الوجوب

---

(١) هو محمد بن مسلمة

والحظر والندب والكراهة والاباحة . فحدث الاجتهاد منذ زمن الرسول فى بعض المسائل فى الصحابة ، ثم فى التابعين لاسيما متأخريهم . فما لم يكن له حكم فى الكتاب والسنة قاسوه على نظيره ان وجد ، والا رأوا مافيه المصلحة العامة والموافقة للعرف الصالح الذى لايخالف روح الشرع فعملوا به . ولما كان العراق أقل من الحجاز فى رواية الحديث عمل أكثر أهله بالقياس والرأى فانقسم الفقهاء بذلك الى فريقين . فريق غلب عليه الرأى والقياس لتحرجه فى تصحيح الحديث (لكثرة ما صنعه منه متزندقة العراق) وهم أهل العراق ، وامامهم الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وفريق غلب عليه الحديث لوفرته كان عندهم وامكان تمييز غثه من سمينه ، وهم أهل الحجاز ، وامامهم مالك بن أنس ثم الشافعى من بعده . ثم انتقل كثير من المحدثين الى العراق فانتشر الحديث الصحيح بين علمائه بعد أن مهروا فى استعمال القياس ، فمزجوا به علمهم واحتجوا به لآرائهم . وفعل ذلك من أتباع أبى حنيفة أبو يوسف ومحمد صاحباه وغيرهم . ورحل الشافعى الى العراق ، فأخذ عنه محمد وغيره مسائل القياس والرأى ، فوضع مذهبه وسطا بين المذهبين . ولما رحل الى مصر رجع عن بعض مسائل مذهبه القديم ، ووضع مذهبه الجديد بها . ومن كبار أصحابه الربيع المرادى والمُزنى ، فرويا للناس كتبه وحفظا مذهبه الجديد . وأخذ أحمد بن حنبل من أصحاب الحديث عن الشافعى و بعض أئمة القياس والرأى من الحنفية ، فاختار له مذهبا خاصا غير أن الغالب عليه وعلى أصحابه الحديث .

وانتشر مذهب أبي حنيفة بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين و بلاد الترك ثم غرّب الى آسيا الصغرى وشرق أوْرُبة و بعض بلاد الشام وقليل من مصر .

وانتشر مذهب مالك فى الحجاز ومصر أولا ثم غرّب الى برقة وأفريقية والمغرب الأقصى والصحراء والأندلس . وأول من نشره بالاندلس تلميذه يحيى بن كثير . وكان من أقوى أنصاره بأفريقية المعز بن باديس . ثم عاد كثير من جالية المغرب الى مصر فسكنوا الصعيد والاسكندرية وانتشر مذهب المالكية فيهما .

وانتشر مذهب الشافعي فى مصر خصوصا وفى بعض بلاد الشام والعراق

وانتشر مذهب أحمد فى أسفل العراق و بلاد نجد والبحرين و بعض الشام .

وهذه المذاهب الأربعة هى التى رجعت اليها الأمة فى أحكام دينها ودنياها . وثمة مذاهب كثيرة لأئمة التابعين والمحدثين المجتهدين ، أشهرها مذهب داود بن على الظاهرى وابنه وأتباعهم ، وهؤلاء ينكرون القياس و يأخذون بظاهر النص ، ومذهب الامام محمد بن جرير الطبرى ويقرب من مذهب الشافعية وقد انقرض أصحاب هذين المذهبين

وهذه المذاهب جارية جميعها على الأخذ بالكتاب والسنة الصحيحة .

وشذ من جماعات المسلمين بعض فرق الشيعة والخوارج بمذاهب غريبة لم تحلها الأمة محل الاعتدال وهى قاصرة على بلادهم وآخذة فى الاضمحلال وخاصةً مذاهب الخوارج الذى كاد ينقرض من الدنيا ومنهم بقية من الاباضية

تقيم الآن فى جزيرة (جربة) على ساحل تونس

وأشهر أمهات كتب الفقه المبسوط رواية السرخسى عن طريق محمد ابن الحسن فى مذهب الحنفية ويطبع بمصر ومختصر المزنى فى مذهب الشافعية وهو الأم ويطبع بمصر ومدونة مالك فى مذهب المالكية وقد طبعت فى مصر

وكانت كتابتها روايات متتالية عن الأئمة ومنها استخرجت المسائل ورتبت وهذبت .

علم الاصول

ولما أينع علم الفقه ورسخت ملكته فى أئمة الامصار وحصرت مسائله ووجوه استنباط فروعه رجعوا بها الى أصول ستة ، وهى الكتاب والسنة واجماع الصحابة والقياس والاستحسان على خلاف قليل بينهم فى الأخيرين. واستخرجوا منها أصول المسائل ضبطا لوجوه الاجتهاد والاستنباط وتفريع الاحكام ، وسموا ذلك علم الاصول . والراجح أن أول من وضع فيه كتابا الامام الشافعى ثم انتشر فى العراق وبرز فيه الحنفية وأتوا فيه بالعجب العجاب ومقدمهم فى ذلك أبو زيد الدّبوسى

ثم اشتد الحجاج والمناظرة بين الشافعية والحنفية ، وبينهم وبين المتكلمين فى الانتصار لآرائهم فنشأ من ذلك علما الخلاف والجدل

أئمة المذاهب الاربعة

الامام أبو حنيفة النعمان

هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطا بن ماه فقيه العراق وقدوة أهل الرأى . وصاحب المذهب المقضى به الآن فى أكثر الممالك الاسلامية ، وأول من فتق الفقه وفصل فصوله وأقسامه وميز مسائله ورتب قياسه . والأشهر ان أصل جده زوطا من فرس كابُل ولد سنة ٨٠ ونشأ بالكوفة ، وعاصر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه وأخذ كل علمه عمن شافه الصحابة ونقل عنهم ،وقد كان كثير من الزنادقة فى عصره يضعون الاحاديث ويقبلها منهم أهل الغفلة فحمل أبا حنيفة شدةُ تورعه واحتياطه على ألا يأخذ فى دينه وفقهه الا بما لاشك عنده فى صحته ، وتصعب فى ذلك ، فلم يصح عنده الا أحاديث قلائل عمل بها . واستنبط سائر فقهه من القرآن واستعمال القياس والرأى ، وتابعه فى ذلك أكثر أئمة العراق لقلة رواة الحديث بينهم وكثرتهم فى الحجاز . ولذلك امتاز فقهاء الحجاز بمتابعة السنة فى أكثر فقههم ، وأنكروا الرأى على أهل العراق ولكل حجة كما ترى

وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجدا وقراءة للقرآن وأكثرهم ورعا وتَقِيَّة [١] وتوخيا للكسب من وجه حل رغب عن وظائف الملوك والخلفاء ، ورضى أن يعيش تاجر خزّ ، وعرض عليه القضاء من قبل أمراء بنى أمية ثم

(١) التقية الحذر وشاعت فى الحذر من السلطان والعمل له

المنصور فأبى حتى سجنه المنصور على ذلك وآذاه، فكان يعتذر بأنه لا يأمن نفسه . قيل ان المنصور حلف ليلين له عملا فكفر عن يمنيه بأن ولاه تعداد الآجر فى بناء مدينة السلام ، وكان الناس قبله يعدونه بالا حاد فعده بالقصب المكعب بعد رصفه

وقرأ عليه الفقه علماء الكوفة و بغداد وتخرج عليه منهما الائمة من أصحابه كمحمد بن الحسن وأبى يوسف وزفر وربيعة الرأى ووكيع بن الجرّاح وغيرهم .

ومات أبو حنيفة رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠

وله من الكتب التى رواها عنه أصحابه وتابعو أصحابه كتاب الفقه الأكبر وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد على القدريه

الامام مالك بن أنس

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الحميرى الاصبحى امام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز وأحد الائمة الباقية مذاهبهم أبد الدهر

ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنورة ونشأ بها وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعباد ، ورحل اليهم وأخذ عنهم ، وما زال يدأب فى التحصيل وجمع السنة حتى صار حجة من حجج الله فى أرضه وروى عنه أنه قال

(قلّ رجلٌ كنت أتعلم منه مامات حتى يجيئنى ويستفتينى) وضرب بذلك المثل فقيل (لا يفتى ومالك بالمدينة)

وعرف الخلفاء مقداره فأجلوه وحملوا اليه بِدَرَهم

وكان المنصور ولى ابن عمه جعفر بن سليمان على المدينة لتسكين الفتن بها وتجريد بيعته على الناس ، فسُعِي بمالك اليه ، وأنه يفتى الناس بأن أيمان البيعة لا تنعقد لا كراه الوالى لهم عليها . فأتى بمالك وجرده وضربه سبعين سوطا ، ومُدّ لذلك فانخلع كتفه ، فلبث مريضا مدة ، فكأنّ هذه السياط كانت حلية عليه . ولما بلغ المنصور ذلك غضب على جعفرٍ وعزله عن المدينة وأقدمه الى بغداد على قتب . ولقى مالكا من قابل فى موسم الحج فاعتذر اليه واستسمحه له ولجعفر ، وفاتحه فى مسائل كثيرة من العلم . ثم قال له ياأبا عبد الله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك . فاجمع هذا العلم ودوّنه ، ووطئه للناس توطئة ، وتجنب شدائد عبدالله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد الى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم (فى كلام طويل) فاعتذر مالك ، فلم يقبل منه فجاء ابنه المهدى من قابل حاجا فسمع الموطأ منه وأمر له بخمسة آلاف دينار . ولم يلبث المنصور أن مات وزاحم فقهُ أهل العراق فقهَه ولكن ذلك لم يمنع الرشيد أن يرحل هو وأولاده اليه بالحجاز سنة ١٧٤ ليسمع عليه موطأه ، ولم يتم ذلك حتى جلس الرشيد بين يديه وحضر المجلس فقهاء الحجاز والعراق وأغدق عليه الرشيد

وكان مالك فى أول أمره فقيرا ، فلما كثرت عليه منح الخلفاء حسُن حاله ، وأظهر نعمة الله عليه ، ووصل أهل العلم وشركهم فى ماله ، وصنع ذلك

مع الشافعى رحمه الله

وأخلاق مالك من الكرم والطلاقة والوقار والنبل والتواضع والحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تجل عن الوصف . وكان لايجلس للحديث إلا متوضئاً متمكنا ، ولا يركب دابة فى المدينة مع كبره وضعفه إجلالا لرسول الله . وتوفى مالك سنة ١٧٩ بالمدينة ودفن بالبقيع

وله من الكتب كتاب الموطأ وهو مطبوع فى مصر وغيرها عدة طبعات وشرحه كثير من العلماء ، ورسالته الى الرشيد وهى مطبوعة أيضا فى مصر

الإمام الشافعى

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القرشى المطلبى عالم قريش وفخرُها وامام الشريعة وحبرُها

وهو من ولد المطلب بن عبد مناف ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف . ولد الشافعى بمدينة غزة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ ، وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها وما ميز حتى صار نادرة الدنيا ذكاء وحفظا . حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأُولع بالعربية من النحو والشعر واللغة ، وتتبعها من رواتها ، ورحل الى البادية فى تطلبها ولم يناهز سن البلوغ حتى حفظ منها شيئا كثيرا . وبينما هو يترنم بشعر للبيد زجره بعض الحجبة عن أن يكون مثله فى شرفه ونسبه راوية للشعر . وقال له : تفقه يعلمك الله . فانتفع بهذا الكلام وحفظ موطأ مالك ، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة .

ثم رحل فى هذه السن الى مالك ، بالمدينة وقرأ عليه الموطأ من حفظه . فقال مالك : ان يكن أحد يُفلح فهذا الغلام . وضافه مالك على رقة حاله وقتئذ ، وخدمه بنفسه ، فبقى عنـده مدة . ثم رجع الى مكة وعلم بها العربية والفقه . وصحح عليه الاصمعى فيها شعر الهُذَليين .

وكان الشافعى فى حداثته فقيرا تربيه أمه وهى أرملة فكان يتقبل معونات الأغنياء من ذوى قرابته من قريش . ثم ان أحد أصدقائه ولاه الرشيد عملا باليمن ، فخرج معـه وَوُلى بعض الاعمال بها فأحسن التصرف ، وبقى مدة حتى وُشى به الى الرشيد وأنه يؤامر الطالبين للخروج عليه . فحُمِل مع الطالبين الى الرشيد وهو بالرِّقة فلم يتبين شيئا فى أمره فأطلقه . فقيـل كان ذلك بشفاعة الفضل بن الربيع ، وقيل بشفاعة محمد بن الحسن ، وقيل غير ذلك . ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه . ومنهم أحمد بن حنبل فأقام بها حولين أملى فيهما مذهبه القديم ،واجتمع أثناء اقامته بالعراق بمحمد بن الحسن، فأكرمه وأغدق عليه، وكتب عنه الشافعى علما كثيرا

ثم رجع الى مكة ، ثم عاد الى بغداد سنة ١٩٨ فأقام بها شهرا، ثم خرج الى مصر ، فوصل اليها سـنة ١٩٩ أو سـنة ٢٠٠ فألقى عصاه بها ، وسكن الفسطاط ، فكانت دار هجرته ، وبها أملى مذهبه الجديد بجامع عمرو .

واستنبط الشافعى مذهبـه بعـد القرآن من الحـديث والقياس والرأى فكان مذهبه وسطا بين أهل الرأى من مثل أصحاب أبى حنيفة و بين أهل السنة من مثل أصحاب مالك وأحمد . ثم توفى سنة ٢٠٤ ودفن بالقرافة وقبره

بها مشهور حتى صارت تنسب اليه .

وكان الشافعى أفضل من رأى الناس ذكاء وعقلا وحفظا وفصاحة لسان وقوة حجة ولم يناظر أحدا إلا ظهر عليه وكان يقول ماناظرت أحدا إلا وددت أن يظهر أن الحق على يديه .

وجملة القول أنه كان إماما فى كل شئ . حتى الرمى فكان يصيب تسعة من عشرة

ومن كتبه التى أملاها على أصحابه المبسوط الذى سمى فى مصر باسم الأم وأكثر الناس على انه أول من صنف فى أصول الفقه . وله كتب أخرى كثيرة .

الامام احمد بن حنبل

هو الامام الصابر المحتسب أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال الذهلى الشيبانى أحد الأئمة الأربعة وحافظ السنة وقدوة أهل الحديث وأعبد أهل زمانه ، ولد ببغداد سنة ١٦٤ فتعلم ، وطلب الحديث ، وسمع من أئمة وقته ، وكان الحديث وقتئذ قد أينع وكثرت رجاله ، وصنفت كتبه ، وتميز صحيحه من موضوعه ، فلقى أحمد من لا يحصى من رجاله ، فجاب البلاد ، وطوف الأمصار ، ودخل الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ، حتى حفظ مئات الالوف من الأحاديث ، واختار منها نيفا وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه (المسند) وهو أصل من أصول الاسلام .

وكان أحمد أحفظ أهل زمانه بالحـديث ، وأعرفهم بصحيحه وضعيفه والمجروح من رجاله والمعدّل . واستنبط مذهبه من السـنة مشوبا بشئ من القياس والرأى وكان عامة أصحابه هم جمهور أهـل الحـديث والمقتفين آثار السلف . وهم الذين كانوا يناهضون أهـل الـكلام وأصحاب الفلسـفة من الجيل الذى نشأ فى عصر الرشـيد والمأمون وقرءوا كتب الأمم الأوائل . وظهرت فى مدته فتنة خلق القرآن ، وامتحن فيها فى رمضان سـنة ٢٢٠ فى مجلس المعتصم ليجيبهم الى القول بخلق القـرآن فلم يفعل ، فضرب تسـعة وعشرين سوطا ضربا موجعا ، فسال منه الدم ، وأغمى عليـه . ثم لما خيف عليه التلف أطلق ، فأقام فى منزله مدة مريضا ، ثم عوفى وبقى بعدها مشتغلا بالعـلم والتعليم ببغداد حتى مات سـنة ٢٤١ ومشى فى جنازته من لا يحصى عددهم وقبره ببغداد مشهور . وله كتب كثيرة منها (المسند) وطبع فى مصر وغيرها وشرح شروحا عديدة ـ وكتاب العلل ـ وكتاب التفسير ـ وكتاب التاريخ والمنسوخ ـ ومجموع كتبه فى الفقه ـ وكتاب الرد على الجهميه وغيرها

علم الـكلام

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسـنة . وما وقع فيهما من المتشابه وما يوهم التشبيه المنافى لتنزيه المعبود ، توقفوا فيه خوف أن يزل بهم تغلغلهم فى التأويل عن القصد ، فيقعوا فيما وقع فيه الأمم قبلهم ، فيتفرق أمرهم ويكونوا شيعا ، الا ان ذلك لم يلبث

كثيرا حتى ظهر من متأخرى التابعين ومن بعدهم من تناول البحث فى ذلك .فبعضهم فهم هذه الآيات والنصوص على معناها الحقيقى ، وتغلغل فى التشبيه ، إما فى الذات باعتقاد اليد والعين ، فوقعوا فى التجسيم الصريح المنافى للتنزيه المطلق ، وإما فى الصفات بأثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت . وكلا الفريقين من مشبهة الذات والصفات يفر من تشبيه الخالق بمخلوقه بأن ما ثبت من ذلك ليس مثل مافى العباد . فيقولون له يد لا كالأيدى . وجهة لا كالجهات. وقاومهم فى نشر هذه البدع أئمة الحديث وكبار العلماء ممن أخذ برأى السلف ، غير أن حججهم بالتوقف والتسليم لم تقنع من دخل فى الاسلام من الفرس والطوائف القديمة التى امتلأت دياناتها بالشبه والأوهام ، فأدخلوا كثيرا من عقائدهم وأقوالهم فى مباحث العقائد الاسلامية وأضلوا كثيرا من الناس ونَحَوْا فى أبحاثهم مناحيَ الأقيسة الصناعية والعقلية فاضطر العلماء أن يجاروهم ويعارضوهم بمثل ذلك . وساعدهم الخلفاء فى عملهم . وكان أول من حمل الناس منهم على الخوض فى علم الكلام ، ووضع الكتب فيه والرد على المبتدعة الخليفة المهدى

وتجرد لذلك فريقان . فريق أصحاب الحديث وبعض معتدلى الصفاتية الآخذين بمذهب السلف ، وفريق المعتزلة الجامعين فى أدلتهم بين الاخذ بالكتاب والسنة والعقل . ومقدم هؤلاء واصل بن عطاء أول من خالف مذهب الحسن البصرى واعتزل حلقته بجامع البصرة فى مسألة المنزلة بين

المنزلتين [١] ثم تشعبت مسائل المعتزلة وزخر بحرهم وقويت شوكتهم بتعضيد الخلفاء وحملهم الناس على مذاهبهم مستحلين فى ذلك سفك الدماء والجلد .

وكان مجمل ما يرمون اليه نفى صفات المعانى من العلم والقدرة والارادة والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم . ونفوا السمع والبصر والكلام لكونها من عوارض الأجسام ، وكذلك لم يفهموا معنى الكلام النفسى. فجزموا بأن القرآن مخلوق . وتشدد المأمون والمعتصم والواثق فى ذلك وعظمت الفتنة فى مدتهم ، ثم خمدت بعد زمن المتوكل فحلت محلها فتنة الصفاتية (ممن يثبتون الصفات التى نفاها المعتزلة) وأصحاب الحديث والحنابلة المتنطع [٢] كثير منهم فى فهم مذهب السلف، حتى وقعوا فى التشبيه والتجسيم

وترجمت فى هذه العصور الكتب اليونانية والفارسية والهندية والسريانية فكانت فى الفتنة ضِغثاً على إبالة [٣] وفتحت للناس أبواب اللّجاج [٤] وأحدثت فى الامة فرقا جديدة من المتفلسفة . وامتزج كثير من مباحث علم الكلام بالفلسفة ، حتى جاء فحل المتكلمين أبو الحسن الأشعرى ، ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية . واستعمل فى أدلته النقل والعقل . وألحق بالكلام مبحث الامامة للرد على الامامية القائلين بأنها من عقائد الاسلام . وتبعه كثير من الفريقين. وسُمى مجموع مباحثهم بعلم الكلام ، اما لما فيه من المناظرة ،

---

(١) وهى أن الفاسق مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين المنزلتين فتوسط بين مذهب الحسن بأنه مؤمن وبين مذهب الخوارج بأنه كافر (٢) تنطع فى الكلام تشدق وغالى فيه (٣) الضغث القبضة من الحشيش مخلطة الرطب باليابس . والابالة الحزمة من الحطب والحشيش . وهو مثل ومعنا بلية على بلية (٤) شدة الخصومة

وهى كلام صرف وليست راجعة الى عمل ، وأما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى اثبات الكلام النفسى

واشتهر مذهب الأشاعرة بمذهب أهل السنة ، وكثر ردهم على المعتزلة وشَغَبَ هؤلاء عليهم ، وتمكن مذهبهم بتأييد القاضى أبى بكر الباقِلانى وامام الحرمين وغيرهما حتى نسخ كل مذهب فى العقائد غيره إلا مذهب الشيعة ، فلا يزال عليه بقية من أكثر بلاد فارس و بعض بلاد الهند .

أبو الحسن الأشعرى :

هو أبو الحسن على بن اسمعيل سليلُ أبى موسى الأشعري (صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) وشيخُ طريقة أهل السنة والجماعة وامام المتكلمين وصاحب المذهب الكلامى الناسخ لكل مذهب والمنتشر الآن فى أكثر بقاع العالم الاسلامى .

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ ونشأ بها وتلقى العلم على أئمة زمانه وأخذ الكلام عن أبى على الجُبّائى شيخ المعتزلة وتبعه فى الاعتزال ، واحتج له حتى صار لسان المعتزلة والنائب عن الجبائى فى مواقف الخصام والجدل ، اذ كان هذا يجيد التصنيف ولا يجيد المناظرة . و بقى كذلك أكثر من ثلاثين عاما . ثم هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين من الصفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غالٍ فى نظره فتوسط،

وتغيب عن الناس مدة ألف فيها كتبه فى نصرة أهل السنة والرد على المعتزلة، ثم خرج الى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقى المنبر وصاح بأعلى صوته : أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا أُعرّفه بنفسى، أنا فلان ابن فلان (وذكر نسبه) إنى تغيبت عنكم هذه المدة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ، ولم يترجح عندى شئ على شئ، فاستهديت الله فهدانى الى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هـذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبى هذا ، (وانخلع من ثوب كان عليه، ورمى به) ، ودفع الكتب التى ألفها على مذهب أهل السنة الى الناس . فنصب له المعتزلة بالرد والتزييف، فما زال يُدحض حججهم حجة بعد أخرى حتى انقطعوا عن مناظرته ، وتبعه كثير منهم ومن غيرهم من الصفاتية والفقهاء .

وكان أبو الحسن من أورع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومزاح . وكان يعيش من غَلة قرية وقفها جده بلال بن أبى بُردة بن أبى موسى الأشعرى على نسله . وكان شافعي المذهب

وشهرة أبى الحسن أجل من أن توصف فى مثل عُجالتنا . وقد صنف أبو القاسم بن عساكر فى مناقبه مجلدا ، وتوُفى سنة ٣٢٤ هـ على الأرجح .

وله كتب كثيرة فى مذهبه والرد على المعتزلة وكتب أخرى فى الرد على الملاحدة والرافضة والجَهْمِيّة والخوارج وسائر فرق المبتدعة .

فن التاريخ

هو من الفنون القديمة التى عنيت بها الأمم المتحضرة قبل الاسلام من الفرس والهنود والصين واليونان والروم ، وحدث الاشتغال به فى الملة الاسلامية لمعرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتوقف كثير من مسائل الدين عليه ، ومعرفة أحوال فتوح البلدان أ كانت صلحا أم عَنْوة ، لترتيب الخراج والعشور ، ومعرفة رواة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ومعرفة أنساب الأشراف من القرشيين ورؤساء القبائل وترتيب أعطياتهم فى الديوان حسب منازلهم . فكان التاريخ فى الصدر الأوّل ينقسم الى أقسام

(١) فن السّيَر والمغازى

(٢) فن فتوح البُلدان

(٣) فن طبقات الرجال

(٤) فن النسب

وكان ابتداء تدوين هذه الفنون فى أول عصر بنى العباس . ثم عرض لأوائل الخلفاء العباسيين أن يترجموا بعض سير ملوك الفرس ومشهورى سُوّاسهم ومصلحيهم ليتعرفوا نظام سياسة الممالك والشعوب . فترجم بعض كُتّاب الفرس كثيراً منها لأبى جعفر المنصور ومن بعدهم . فزاد بذلك قسم خامس : هو فن تاريخ الممالك (تاريخ الملوك) واقتدى بذلك بعض المشتغلين بالفنون السابقة فعملوا كتباً فى تاريخ بنى أمية ثم فى تاريخ بنى العباس .

ثم عرض للأدباء أثناء جمعهم للشعر واللغة أن يعرفوا أسباب ما قيلت فيه هذه الأشعار فتجردوا لمعرفة أيام العرب ووقائعهم وأخبارهم ونوادرهم ، ووجدوا من الخلفاء والرؤساء ارتياحا لسماع هذه الأخبار فاستكثروا منها . وتكوّن بذلك قسم سادس : هو فن معرفة أيام العرب وأخبارها فى جاهليتها. ونقل كثير ممن أسلم من أحبار اليهود والنصارى قصصا عن التوراة وغيرها للأنبياء وبنى اسرائيل . فصار للتاريخ بذلك قسم سابع : هو فن قصص الأنبياء

وكُتِبَ فى كل فن من هذه الفنون الكتب المتعددة ، واشتهر فيها كثير من فحول الرجال . فكان من أشهرهم ابن اسحق فى السير والمغازى ، والكلبى وابنه فى النسب ، والواقدى والمدائنى وأبو مِخْنَفٍ فى الفتوح ، وأبو عبيدة والأصمعى فى أخبار العرب وأيامها ، وابن قُتيبة والهيثم بن عدىّ وابن واضح اليعقوبى فى تاريخ الملوك وغيرها . وبقى الأمر كذلك حتى جاء شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى فجمع كتابه من كل هذه الفنون ، وخط للناس بذلك طريق تصنيف التاريخ وراعى فى كتابه ما سبقه به بعض المؤرخين من ترتيب الحوادث على حسب السنين ومن جمع الروايات المختلفة فى الخبر الواحد . وعلى طريقته مشى المؤرخون بعده ، وعنه أخذ جلهم ،

نشأة العلوم الدخيلة (العلوم الكونية)

وترجمتها وأشهر المترجمين

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة . وتشمل أربعة علوم . المنطق والطبيعيات

والرياضيات والألهيات . وتشمل الطبيعيات الطبيعة والكيمياء وفن المواليد الثلاثة والطب والصيدلة والفلاحة ونحوها .

وتشمل الرياضيات علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة والحيل والفلك بما فيه الهيئة والتنجيم ومن متعلقاته علم الجغرافيا .

ويلحق بهذه العلوم علوم السياسة وتدبير المنزل والمال والأخلاق . وتشمل الألهيات علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك

وهذه العلوم طبيعية فى الانسان من حيث أنه متفكر متمدين لاتختص به أمة دون أخرى . ولذلك كان الاشتغال بها ضروريا لكل أمة أصبحت ذات حضارة . ولما فتح العرب الممالك العظيمة ذات العمران الوفير والمدنية الضخمة لم يروا بدا من استعمال أهل هذه الصناعات من الوطنيين على جباية الخراج ورى الأرض ومداواة الأمراض وتشييد الأبنية العظيمة لأمّيتهم ومكان السلطان منهم . فلما رسخت فيهم ملكة العلوم والنظام ، وفرغوا من ضبط أصول دينهم ولغتهم تاقت نفوسهم الى معرفة علوم الأمم العظيمة قبلهم

وكان أعظم ما جرهم الي ذلك ظهور فائدة الطب المنقول عن اليونان بواسطة السريان وحُب الاطلاع على الأمور الخفية المستمدة من التنجيم . وابتدأ ذلك فى زمن بنى العباس إلا قليلا من الكتب كان قد ترجم فى زمن بنى أمية ككنّاش أهرُون فى الطب الذى ترجمه ماسرجُوَيه من السريانية الى العربية فى زمن مروان بن الحكم ، ونشره للناس عمر بن عبد العزيز ، والآ

ماقيل عن الكتب التى ترجمت لخالد بن يزيد فى الكيمياء . وأول من أمر بترجمة الكتب من خلفاء بنى العباس أبو جعفر المنصور ، فانه استقدم جُرجيس الكبير ابن بختيشوع السريانى رئيس أطباء جنديسابور ونوبخت وابنه سهل والبطريق وابنه وغيرهما من منجمى الهنود والفرس. فترجموا له كتب الطب والنجوم. وكان من أشهر مترجمى كتب الفلك الهندية وأقدمهم محمد بن ابراهيم الفزارى ، وهو الذى ترجم كتاب السِّندِهند الكبير فى حركات الكواكب وارصادها. ويقال ان المنصور كتب الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطلعوا على مافيها وازدادوا حرصا على ما بقى منها . وترجم ابن المقفع بعض كتب فى المنطق والطبيعيات والطب والفلسفة كانت نقلت قبل الى الفارسية . ولما مات المنصور فتر أمر ترجمة الكتب الدخيلة مدة المهدى والهادى وأكثر أيام الرشيد ، ثم أعاد سيرتها البرامكة ، فوجهوا الى علماء الهند والفرس والسريان ، فترجموا لهم كتبا كثيرة من كل فن ، ورغّبوا الرشيد فى ذلك ، فجاراهم وأثاب العلماء والمترجمين ، وصححوا فى زمنه بعض ماترجم فى عصر المنصور . ثم جاء عصر المأمون فزخرت بحور الترجمة . واشتغل خاصته بذلك وتقرب الناس اليه بمعرفة علوم الأوائل ، وغصت مجالسه برجال العلم من فقهاء وأدباء وأطباء وحساب ومتكلمين ومتفلسفة . وامتاز عصر المأمون بكثرة ترجمة الكتب الفلسفية الألهية ، وكان الناس قبله يتحاشون الخوض فيها ، فبعث الى بلاد الروم جماعة من المترجمين كابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر ،

وعليهم حُنين بن اسحق، فاختاروا كتبا حملوها الى بغداد ، فترجمت وأقبل عليها الناس ودرسوها وفهموها وصححوا كثيرا من أغاليطها خصوصا الفلكية والجغرافية. وما انتهى عصر المأمون والمعتصم والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود والنبط ألا ترجم منه أ كثر من كتاب خلا السحر وعبادة الأوثان ، وحتى لم يبق علم مما ترجم ألا نبغ فيه جماعة نبوغا بلغ بهم الى درجة التأليف والابتكار أوالاصلاح والتحقيق. فمن المترجمين من اليونانية والسريانية حبيش الأعسم واصطفان بن باسيل و يوحنا بن ماسويه وقُسطا بن لوقا . ومن الفارسية غير ابن المقفع وآل نوبخت موسى ويوسف ابنا خالد والبلاذُرى. ومن الهندية منكه وابن ذهن الهنديان . ومن النابغين من العلماء فى ذلك العصر فى الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات بأنواعها وعلم النجوم والألحان والترجمة الصحيحة فيلسوف الاسلام والعرب أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندى ، وقد بلغت مؤلفاته فى هذه العلوم نيفا وثلاثين كتابا ومائتين وتلميذه أحمد بن الطيب وأبو معشر الفلكى و بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضيي هذا العصر وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة . وفتر الاشتغال بالفلسفة والترجمة فى عصر المتوكل ثم عادا الى ما كانا عليه ، غير أن اهتمام الخلفاء والرؤساء بهما لم يبلغ عناية المأمون . ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون . أبو بشر متّا بن يونس وثابت بن قرّة وأبو عثمان الدمشقى ويحيى بن عدى

ثم ذهب طور الترجمة والتصحيح ، وتلاه طور التأليف والتكميل والاختراع ،

فأتى فيه الرازى وغيره من حكماء المسلمين بالعجب العجاب فى كل فن مما لو أتينا على بعضه لخرج الكلام بنا عن موضوع هذه العجالة

ودام الاشتغال بهذه العلوم الى ما بعد العصر الاول من حكم بنى العباس حيث ظهر فيما يليه فحلا الفلسفة الفارابى وابن سينا .

الشعر

كان الشعر فى عصر الدولة الاموية ينبع من المَعين الذى تنبع منه أئمة العربية وفحول الفصاحة، أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة . فلما قرت دولة العرب بالعراق وتوسطت دار خلافتهم بين العراق والجزيرة صارت بغداد قبلة الشعراء ووجهة الادباء ، ومن لم يقصدها للاقامة فى ظلال الخلفاء والملوك ، قصدها للنجعة والامتياح

تسقط الطير حيث ينتثرُ الحَـــب وتغشى منازل الكرماء

ولم يمض على بغداد قرن من تأسيسها حتى صارت عُشّاً للادب وميداناً لتسابق جياد العقول فى كل فن، ولاسيما الشعر ، فقد كان له عند الخلفاء والوزراء والقواد سوق نافقة حتى عند رؤساء الاعاجم من الديلم والترك وحتى تكلف بعضهم أن يعانيه وينظمه بل ينبغ فيه. ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية بعصريها. وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائليه ومنتحليه تفتن الناس وأدخلوا

عليه فنونا لم تعهد فيه . واستعملوه فى كل غرض حتى التعبد به. وتشكل أسلوبه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله ، غير أن من مميزات الامة الاسلامية وخصائص اللسان العربى مجاراةَ كلِّ مستحدِث جديد ضرورى مع المحافظة والحنين الى الصبغة الاصلية فى الجملة ، بحيث لا يتأتى نسخ الجديد للقديم بالمرة

فمن الامور التى لم تنسخ أصول الوزن والقافيـة ، والتمهيد للمدح بالغزل والتشبيب بالنساء والنسيب بذكر الديار ودروسها ، والاظعان وحدوجها [1] ، وذكرى المنازل والمياه فى جزيرة العرب ونحو ذلك. فكان التغير الذى طرأ على مثل هـذه الامور بالزيادة عليها لا بالاستغناء عنهـا ، وكأنهم أبقَوْها فى شعرهم تذكارا للوطن القديم النازحين منه الى ممالك المعمورة ، وحنينا الى مهد لغتهم ، ونزوعا الى استحياء شعائر عنصرهم ، وتخليدا لحسن خيالاتهم ، كما نحاكى نحن قدماءنا فى أبنيتهم وفرشهم ، ونتنافس فى اقتناء مخلفاتهم ؛ على أن النسيب بمثل هذه الامور لم يَعُدْ ملتزما فى مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية ، بل كثيرا ما كان يحل محله ذكرى القصور ونعيم العيش وصحبة اخوان الطرب وغنـاء القيان ونحو ذلك ، أو يُستَبْدَل به ذكر الخمر وأوصافها والحث على اصطباحها [2] واغتباقها [3] بل لم يقف الامر عند هذا الحد حتى تعداه الى التنديد بذكرها وتسخيف من يلهج بها . ويظَن أن أول من خلع هذا التقليد أبو نواس فى كثير من قصائده لاسيما الخمريات تَطرُّبا منـه وتماجنا. ثم صار ذلك متبعا

---

(١) جمع حدج (بفتحتين) وهو مركب من مراكب النساء يوضع على البعير
(٢) الشرب فى الصباح (٣) الشرب فى المساء

كثيرا فى شعر من بعده . ومن قول أبى نواس فى ذلك

يارَبعُ شغلك أنى عنك فى شُغل ... لاناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وقوله

سقياً لِغير العلياء [١] فالسنَدِ ... وغيرِ أطلالِ مىَّ بالجَرَدِ [٢]

وقوله

لاتبك ليلى ولا تطرب الى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

واستحسن بعض علماء الادب منه وممن تبعه نبْذ هـذا التقليد وعدوه من حسنات المولدين جريا مع دواعى الزمان والمكان، ونعوا على من يجمُدُ على ذكر ديار لم يرها وجمال لعلهُ لم يركبها

أما التغيرات التى طرأت على الشعر إبان الدولة العباسية فهى :

أولا ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه

ثانيا ما يتعلق بلفظه وأسلوبه

ثالثا ما يتعلق بمعانيه وخيالاته

رابعا مايتعلق بأوزانه وقافيته

الامور التى حدثت فى فنون الشعر وأغراضه

(١) زيادة استعماله فى إثارة العصبية والمفاخرة : اما بين العجم والعرب كما فى شعر بشار وعبد الله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية

---

(١) العليا والسند موضعان (٢) الجرد الفضاء لا نبات فيه

وإما بين اليمانية والمضرية كما فى شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبى نواس وخلف الأحمر، وإما بين شيعة آل العباس وآل أبى طالب كما فى شعر مروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعى وغيرهم . وأما بين علماء المذاهب المختلفة فى الاعتقاد والفقه والنحو كما فى شعر أبى محمد اليزيدى وغيره

(٢) زيادة استعماله فى الاغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض ولاة الامور وتهديدهم وانتقاد أعمالهم فى شعر كثير من شعراء الدولة .

(٣) الاغراق فى المدح والتملق المشين فى شعر أغلب شعراء الدولة وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الادباء وقلة موارد الكسب الشريف. اذ لم تكن ثمة مطابع ولا شركات لنشر الكتب وتوزيعها ، ولا تعلم شامل لكل طبقات الامة حتى تروج الافكار ويقع الاقبال العظيم على المؤلفات والقصائد التى قد أنشئت فى أنواع متعددة تروق الشعب ويستغنى بها عن أبواب الملوك ، فلم يجد الشاعر سوقا رابحة لبضاعته إلا أبواب الخلفاء ، ولا يرى لنفسه شعرا أسير ولا جائزة أربى إلا بما أغرق المدح فيه وخرج عن الذوق بل العقل بل الشرع

(٤) الاقذاع فى الهجاء والتصريح المعيب بأسماء العورات والتعرض للحُرَم، لتناقص الوازع الدينى وازدياد الزنادقة وفجار الموالى والكتاب بعدوى تمازج العادات والأخلاق .

(٥) الغزل بالمذكر والاستقصاء فيه حتى غلب على ما سواه، ويظهر أن

أول من أعلن ذلك والبة بن الحباب وتبعه أبو نواس والحسين بن الضحاك ومنهما طمَّ وعمَّ ،

(٦) الاغراق فى وصف الخمرة وتشبيهها والدعوة اليها والنشوة بهاوذكر سُقاتها وندمائها . وأول من اشاد بذلك فى شعره من المسلمين أبو الهندى غالب بن عبد القدوس أحد شعراء خراسان من مخضرمى الدولتين ، ومنه أخذ بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد وتبعهم غيرهم

(٧) ازدياد المجون والتهتك وحكاية المخازى والفسوق ونحو ذلك

(٨) ازدياد وصف الرياض والبساتين والقصور ومجالس الانس وأحوال الطبيعة ومصايد الوحوش والطير والسمك والأمور الدقيقة كما فى شعر أبي نواس ومسلم والبحترى وابن الرومى وابن المعتز

(٩) الوعظ والتزهيد فى الدنيا وامام هذه الطريقة أبو العتاهية

(١٠) الحكمة وضرب المثل كما في شعر صالح بن عبد القدوس وأبى تمام والمتنبى ،

(١١) تأديب النفس والقصص والحكايات ، وأول من فعل ذلك ابان بن عبد الحميد اللاحق ناظم كليلة ودمنة للبرامكة وأول هذا النظم :

هذا كتاب أدبٍ ومحنه وهو الذى يدعى كليلَ دمنه

(١٢) ضبط قواعد العلوم من فقه وغيره . وأول من نظم ذلك أبان أيضاً وابنه . وغير ذلك من الفنون التى استُحدثت في الشعر واستفحل أمرها غضون الدولة العباسية .

الأمور التي استحدثت في المعاني والخيالات الشعرية

(١) ترتيب الافكار وأخذ بعضها بحجز بعض بحيث يقل الاقتضاب وشذوذ الانتقال من معنى الى مباين له كما كان يقع كثيرا فى الشعر القديم .

(٢) استعمال الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصور تحققه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلوّ والتغلغل في المدح أو الهجو أو التشبيه

(٣) اختراع الخيالات الجميلة التصور في التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل .

(٤) الاستدلال بالحكم والأمثال وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك .

الأمور التي استحدثت في لفظ الشعر وأساليبه

(١) هجر الالفاظ الغريبة بالتدريج.

(٢) زيادة دخول الكلمات الاعجمية تظرفا كما فى شعر أبى نواس متبعاً فى ذلك الأعشى من الجاهلية وقفاه ابن المعتز وغيره

(٣) رقة الاسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعنى وجلائه

(٤) اختراع البديع والاستكثار من أنواعه. وأول من أقدم على ذلك ابن هرمة و بشار ثم مسلم وأبو نواس ثم أبو تمام والبحترى ثم ابن المعتز

الأمور التى استحدثت فى الاوزان الشعرية والقافية

(١) الاكثار مما لم تستكثر منه العرب كالنظم من المضارع والمقتضب والمجتث والمتدارك والمنهوك من الضروب ومخلع البسيط وغير ذلك

(٢) اختراع أوزان ولدها الخليل من عكس دوائر بحوره ونظم منها كثير من المولدين . من ذلك ما نظمه بعضهم من البحر المسمى المستطيل أو الوسيط وهو عكس الطويل يقول

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحورْ أُديرَ الصدغ منه على مسك وعنبرْ

وما نظمه بعضهم من البحر المسمى بالممتد وهو عكس المديد يقول

قد شجاني حبيبي واعتراني ادكار ليته اذ شجاني ماشجته الديار

(٣) اختراع أوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلم بن الوليد ونظم منها ، وكالمواليا واخترع فى رثاء البرامكة باللغة العامية ، ثم زاد هذا الامر تفاقما اختراع الفنون السبعة والموشحات فى أواخر الدولة العباسية . ومن الأمور التى استحدثت فى القافية

أولا الشعر المسمَّط وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ثم يعيد قسما (شطرا) من جنس ما ابتدأ به وهكذا الى آخر القصيدة . ويقال ان أول من فعل ذلك امرؤ القيس ، وهو غير مسلم ورَوَوْا له فى ذلك قوله :

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيَّرها هُوجُ الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

باسحم من نوء السما كين هطال

وربما كان المسمط بأقل من أربعة أقسمة وبلا بيت مصرع كقول بعضهم

غزال هاج لى شجنا فبت مكابدًا حزنا

عميدَ القلب مرتَهناً بذكر اللهو والطرَب

وجرى على ذلك ويسمى بالمسمَّط تشبيهاً له بالسمط

(٢) المخمس وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى الى آخر القصيدة وأ كثروا منه

(٣) المزدوَج وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى، وأ كثروا منه جدا فى نظم، كتب الادب والعلوم كما فى نظم الالفية

وأول من نظم هذه الانواع بشار ثم أبان بن عبد الحميد اللاحق وبشر ابن المعتمر ودرج عليها الناس كابن المعتز وابن وكيع والامير تميم بن المُعِزّ

الشعراء وطبقاتهم

ونريد بالطبقة هنا طائفة ظهرت براعتهم فى عصر واحد ولو لم يتحدوا فى المنزع واللهجة أو يدخلوا فى مناقضة أو مهاجاة أو يتزاحموا على باب ملك أو يتقاربوا فى الوفيات ، ويمكن تقسيم طبقات هذا العصر الى ما يأتى :

(١) طبقة مخضرمي الدولتين أى الذين أدركوا طرفا من عصر بنى أمية وطرفا من عصر بنى العباس ومن أشهر هؤلاء بشار بن برد وحماد عَجْرَد ومطيع بن اياس وصالح بن عبد القدوس وأبو دُلامة والسيد الحميرى ومروان

ابن أبى حفصة وأبو الشمقمق . ومن رجازها رؤبة بن العجاج

(٢) الطبقة التى نشأت فى صدر دولة بنى العباس ، وأشهرها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمى وسلم الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان اللاحقى والعتابى وأبو الشيص ، ومن رجازها عمارة بن عقيل

(٣) طبقة أبى تمام ودِعْبل وديك الجن وعلى بن الجهم وغيرهم .

(٤) طبقة البُحترى وابن الرومى وابن المعتز وابن بسام وغيرهم .

وليس علينا فى برنامجنا غير دارسة أخبار بعضهم ممن كان لكلامه تأثير فى اللغة والأدب والأخلاق.

وربما أدرك بعضُ رجال طبقةٍ عصرَ الطبقة التى تليها

بشار بن برد

هو أبومعاذ بشار المرَعَّث بن بُرد بن يرجوخ العُقيلى ولاء، البصرى منشأ أشعر مخضرمى الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين، وآخر من يحتج بشعره من المولدين ، وممهد طريق الاختراع والبديع للمتفنّنين، وأحد البلغاء المكفوفين

منشؤه ومرباه — : وأصله من فرس طُخارِستان من سبى المهلب بن أبى صُفرة، ووقع مِلك أبويه لبنى عُقيل بن كعب فنشأ بشار عتيقا لهم ، وربى فى منازلهم ومنازل بنى سَدوس وأولع بالاختلاف الى الاعراب الضاربين ببادية البصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر ، قيل له (ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم

وشُكّ فيه. وليس فى شعرك مايشك فيه . قال: ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُلدت هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عُقَيل مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم . وأيفعت فأُبدِيتُ [١] الى أن أدركت . فمن أين يأتينى الخطأ)

وبذلك صرح كثير من الأئمة بالاستشهاد بكلامه اقتداء بامامهم سيبويه وان قيل : انه فعل ذلك اتقاء لسانه

ولقب بالمُرَعَّث لانه كانت فى أُذنيه وهو صغير رِعاث (والرَّعَثَةُ القُرط)

صفاته وأخلاقه — : كان بشار أكمه (ولد أعمى) جاحظ الحدقتين قد تغشاهما لحم أحمر . وكان قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، مجدور الوجه ، متوقد الذكاء ، صادق الحِس ، لطيف الهداية ، شديد المجون والعبث بالناس ، كثير الاستهتار بشعائر الدين ، قليل المبالاة بالوقيعة فيه ، متهما بالزندقة وأنه يدين بالرجعة [٢] ويفضل النار على الارض ، ويصوب رأى ابليس فى امتناعه من السجود لآدم ، وان الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان شُعوبيا متعصبا على العرب يغرى الموالى بنبذ ولائهم والانتماء الى الفرس ، شديد التَّبَرُّم بالناس ، ثلَّابا لهم ، نهاشا لاعراضهم ، لم يسلم من عقرة من لسانه خليفة أو سوقة حتى أهل بيته . وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألاّ يعرف بشارا ولا يعرفه ، فانه ان لم

---

(١) أى أخرجت الى البادية (٢) أى بالرجوع الى الدنيا بعد الموت

يمتَحَن بلسانِه امتُحِنَ به فى ماله

منزلته فى الشعر — : وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحُلُم وهو مَخْشِيٌّ مَعَرَّةُ لسانه . وكان يقول : (هجوت جريرا فأعرض عنى واستصغرنى . ولو أجابنى لكنت أشعر الناس)

وكان وهو صغير اذا هجا قوما جاءوا الى أبيه وكان طيّانا (بناء) فشكوه اليه فيضربه ضربا مبرّحا . فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبى الصغير الضرير ! أما ترحمه ! فيقول بلى والله انى لارحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه الىّ . فسمعه بشار فطمِع فيه : فقال يا أبت : ان هذا الذى يشكونه اليك منى هو قولى الشعر . وانى أن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى . فاذا شكونى فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول (ليس على الأعمى حرج) فلما أعادوا شكواه قال لهم ذلك . فانصرفوا وهم يقولون (فِقْهُ بُرْدٍ أغيظُ لنا من شعر بشار !)

وقد أجمع رواة الشعر ونَقَدَتُهُ والباحثون فى طبقات الشعراء . على أن بشّارا هو رأس المُحْدَثين ومقدَّمهم وأسبقهم الى تعاطى البديع وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المُقْذِع . وانه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المُحدَثين وفتق عن المعانى الدقيقة والاخيلة اللطيفة . وعلى هذا الرأى الاصمعى وأبو عبيدة وغيرهما ، ويخالفهما اسحق الموصلى من المتقدمين ، وصاحب المثل السائر من المتأخرين ، ولا يقر له الاّ بالابيات النادرة . وممن يُحسِنُ رَأْيَهُ فيه ابن رَشيق القيروانى قال فى العمدة

« وأما بشار فقــد شبهوه بامرئ القيس لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه . ومن كلامهم : بشار أبو المحدثين وسمعت أبا عبــد الله غير مرة يقول : انما سمى الاعشى صَناجة العرب لانه أول من ذكر الصَّنْج (١) فى شعره قال : ويقال بل سمى صَنّاجةً لقوة طبعه وجَلَبَةِ شعره ، يُخيَّل لك اذا أنشدته أن آخر ينشد معك . ومثله من المولدين بشار بن بُرد فانك تنشد أقصر شعره عروضا ، وألينه كلاما ، فتجد له فى نفسك هِزّةً وجَلَبَةً من قوة الطبع وقد أشبهه تصرفا وضربا فى الشعر وكثرة عروض مدحا وهجاء وافتخارا وتطويلا »

والحق أن له الجيد والردىء قال عن نفسه (لى اثنا عشر ألف بيت عين. فقيل له : هــذا مالم يكن أحــد يدعيه سواك . فقال : لى اثنتا عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها ان لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين) (٢)

وقصارى القول ان شعر بشار هو الحد الوسط بين الشعر القديم والحديث

وقد طرق بشار كل بابٍ من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها وغلب عليــه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج بذلك عن الحد المألوف عند أهل زمانه حتى أنكره عليه العلماء والمتألهون لما رأوا من استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوّار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار (ماشىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى)

---

(١) الصنج آلة من آلات الموسيقا تتخذ من صفر وهى قطعتان تضرب احداهما على الأخرى وتطلق أيضا على آلة ذات أوتار (٢) ضاع كل هذا الا نتفا فى كتاب الاغانى وغيره ولم يدون له ديوان

وما زالا يعظانه . وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها الكلماتِ لهذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة الى المهدى وقدم عليه مادحا له استنشده قوله

قاسِ الهمومَ تَنَلْ بها نُجُحا   والليلَ ان وراءها صُبُحا
لا يُؤْيِسنَّك من مُخَـدَّرة   قولٌ تُغَلِّظُه وان جَرَحا
عُسْرُ النساء الى مُياسَرَة   والصعبُ يمكِنُ بعد ما جَمَحا

فأنشده إياه ، وكان المهدى غيورا ، فغضب وزجره . وقال : أتحُض الناس على الفجور وتقذِف المحصنات المخبآت ! والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا فى تشبيب لآتينَّ على رُوحك ! فكان بشار اذا تاقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه من كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ، ويقول انه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت . وضمَّن ذلك بعض قصائدَ مدح بها الخليفة . فلم يزد على أن حَرَمه الجائزةَ عليها . وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورعا ، فهجاهما . فكان ذلك الى زندقته سببَ قتله .

فمن قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة

يامَنْظَرًا حَسَنًا رأَيْتُهْ   مِنْ وجه جارية فَدَيْتُهْ
بَعَثَتْ الىَّ تسومنى   بُردَ الشباب وقد طَوَيتُهْ
والله ربِّ محمـد   ما إنْ غدرتُ ولا نويتُهْ
أمسكتُ عنكِ وربما   عرض البلاء وما ابتغيتُهْ

ان الخليفةَ قــد أبىٰ ... واذا أبى شيئاً أبيتُهْ
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البنا ... ن بكى علىَّ وما بكيتُهْ
ويشوقُنى بيتُ الحبيــب اذا ادّكرتُ وأين بيتُهْ
قام الخليفةُ دونَه ... فصبَرتُ عنه وما قليته
ونهانىَ الملكُ الهما ... مُ عن النساء وما عصيتُهْ
لا بل وَفَيتُ فلم أُضِعْ ... عهدا ولا رأيا رأيتـه
وأنا المُطِلُّ على العــدا ... واذا غلا الحمد اشتريته
وأميــلُ فى أُنس النديــم من الحياء وما اشتهيته
أُصفى الخليلَ اذا دنا ... واذا نأى عنى نأيتـه

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه

وبهذا الشعر الرقيق تعرف كيف كان وَلُوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به ، وكيف كان اغراؤه لهم بالاستهتار والمجون . وكانت متأدبات النساء والقِيان لذهاب بصره يحضُرْن مجلسه ويسمعنَ شعره ويتناشدنه ويغنين ويتعاتبن به . فهوِىَ بشار منهن جارية تسمى عَبْدة فشهَّرَها فى شعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة . فمن قوله فيها

يزهّدُنى فى حب عَبْدَةَ معشرٌ ... قلوبُهــم فيها مخالفــةٌ قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأُذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا ... وألّفَ بين العشق والعاشق الصب

وقوله

لم يَطُلْ ليـلى ولكن لم أنَمْ ونفى عنى الكرى طيفٌ ألم

واذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم

رَفّهى ياعبـدَ عنى واعلمى اننى ياعبدَ من لحم ودم

ان فى بُرْدَىّ جسما ناحلا لو توكأت عليـه لانهدم

وكان يولع به فى هـذا المعنى وشبهه إذ كان ضخما كأنه فيل . ومن قوله فى ذلك

يا قوم أُذنى لبعض الحى عاشقةٌ والاذْن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي ؟ فقلت لهم الاذْن كالعين توفى القلب ما كانا

هل من دواء لمشغوف بجارية يلقى بلقيانها رَوْحا ورَيْحانا

وهاجى بشار الشعراء المُفْلِقين فى زمانه ونَصَب له منهم حماد عَجْرد ، واحتدم بينهما اللَّجاج والتقاذف بالأقوال المُقْذِعة (١) وظهر حماد عليه فى بعض أهاجيه (مع أن الجيد من هجاء بشار فيـه أكثر من جيد هجاء حماد . فهجاء بشار هتك حمادا ، و بعض هجاء حماد آلم بشارا وان لم يسقط منزلته) قيل انه لما هجاه حماد بقوله

ويا أقبح من قرد اذا ما عمى القرد

قال : لا إله إلاّ الله ! قد والله كنت أخشى ان يأتى به ! والله لقـد وقع لى هـذا البيت منذ أكثر من عشرين سـنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع

(١) القذع الفحش وقول الخنا والقذف والاقوال المقذعة المشتمله على ذلك

فأهجى به حتى وقع عليه النبطى . وقيل أنه لما سمعه بكي . فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد ! فقال والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه !

معانيه وتصوراته — : ولبشار من المعانى المُبتَكرَة والخيالات البديعة فى فنون الشعر المختلفة ماجعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة . وفى ذلك يقول الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين «كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفنين فى القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه »

ومن غرر كلامه في الحكم والنصائح . قوله

اذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولاتجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغُل أختَها ... وما خير سيف لم يؤَيد بقائم
وخَلِّ الهوينى للضعيف ولاتكن ... نؤوما فان الحر ليس بنائم

وقوله

اذا كنتَ فى كل الامور معاتبا ... صديقَك لم تلقِ الذى لاتعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وقوله

خليلى ان المـال ليس بنافع اذا لم ينلْ منـه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت علىّ محلةٌ تيممت أخرى ماعلىّ تضيق
وماخاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سوق
وماضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقوله

طبعتُ على مافىّ غيرَ مُخَـيَّر هواى ولو خُيّرتُ كنتُ المهذَّبا
أريد فلاأعطى، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأُصْرَفُ عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبتُ إلا التعجبا

ومن قوله فى الوصف

وجيشٍ كجُنح الليل يزحَفُ بالحصى وبالشوك والخطىّ حُمْرٌ ثعالبه (١)
غـدونا له والشمس فى خِدْرِ أمها تطالعنا والطل لم يَجْرِ ذائبـه
بضرب يذوق الموتَ مَنْ ذاق طعمَه وتُدرك من نجّى الفرارُ مثالبُهْ
كأن مُثارَا النقع فوق رءوسـنا وأسيافَنا ليـلٌ تهاوى كوا كبه
بعثنا لهم موت الفُجاءةِ إننا بنو الموت خفاقٌ علينا سبائبه (٢)
فراحوا فريق فى الأسار ومثلُه قتيلٌ ومثـل لاذ بالبحر هاربه
x اذا الملك الجبارُ صعَّرَ خـدَّه مَشَيْنا اليـه بالسيوف نعاتبـه

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخل فى جبة السنان ـ أى والرماح حمر اطرافها من دماء الاعداء (٢) يريد بها الاعلام

ومن قوله فى المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس

أخالدُ لم أخبِطْ اليك بذِمةٍ سوى أننى عافٍ وأنت جوادُ

أخالدُ بين الأجر والحمد حاجتى فأيهما تأتى فأنت عِماد

فان تعطنى أُفرِغْ عليك مدائحى وأن تأبَ لم يُضْرَبْ علىّ سداد

ركابى على حرْف وقلبى مشيّع ومالى بأرض الباخلين بلاد

اذا أنكرتنى بلدةٌ أو نكِرْتُها خرجت مع البازى علىّ سواد (١)

وقوله

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

وقوله يمدح عقبة بن سَلم بن قتيبة

انما لذةُ الجوادِ بن سَلم فى عطاء ومَرْكَب للقاء

ليس يعطيك للرجاء وللخو ف ولكن يَلذ طعمَ العطاء

يسقط الطيرُ حيث ينتثر الحـب و يغشى منازل الكرماء

ومن قوله فى الحماسة

اذا ما غضبنا غَضْبةً مُضرية هتكنا حجابَ الشمس أو تمطر الدما (٢)

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذُرى مِنبر صلى علينا وسلما

ومن ابتداءاته البديعة قوله

(١) أى فارقتها متنكرا مصاحبا البازى لأنه أبكر الطيور ، على بقية من الليل

(٢) وفى رواية (أو قطرت دما)

أبى طلل بالجِزْع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما

وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعبُ لا يُعرَفن الا توهما

ومن أبياته السائرة قوله

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى اليك فان الحب أقصانى

وقوله (وهو أغزل بيت للمولدين)

أنا والله أشتهى سحر عَيْنَيـــك وأخشى مصارع العشاق

ومع مالبشار من هذا الشعر الرائع قد يأتى بالمرذول الساقط . فمن ذلك

ربابةُ ربة البيت تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وقوله

ان سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل

واذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

وان كان يعتذر عن مثل ذلك بأنه قاله فى صباه أو للمزاح

وكان بشار من المغلّبين لأبى الشمقمق يخشى هجاءه ويصطنعه بالمال .

قتلہ : ولما اشتهر بشار بالزندقة أمر المهدى وهو بالبصرة بجلده بالسياط

فى حَرّاقة بدجلة . فضرب سبعين سوطا مات منها وألقى فى بطيحة البصرة

فدفنه أهله بجانب قبر حماد عجرد

وقيل ان سبب قتله أنه هجا المهدى ويعقوب بن داود بقوله

بني أمية هبوا طال نومكمو ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

و يقول آخر مُقذِع

ويجوز أن يكون ذلك مما أحفظه عليه مضافا الى زندقته

وكان قتله سنة ١٦٨ هـ وقد نيّف على تسعين وقيل سبعين سنة وهو عندى أظهر

مروان بن أبي حفصة

هو أبو السِمط مروان بن سليمان بن يحيي بن أبي حفصة أحد الشعراء البلغاء المداحين والبخلاء المشهورين

وأصل جده مولى فارسى لعثمان بن عفان رضى الله عنه فوهبه لمروان بن الحكم

نشأ فى أواخر عصر بنى أميـة . واشتهر شـعره فى خلفاء بنى العباس وأول من نوه به ورفع من قـدره ووهب له الجوائز السنية مَعْن بن زائدة الشيْباني . ثم مدح المهدى و بالغ فى استحقاق بنى العباس للخلافة ورد فى شعره على العلويين المطالبين بها بأشنع الأقوال ولذلك آثره الخلفاء على غيره فاختص بهم وبوزرائهم

روى عن الفضل بن الربيع قال : « رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدى بعد وفاة معن بن زائدة فى جماعة من الشعراء فيهم سَلْم الخاسر وغـيره فأنشد مديحا فيه . فقال له ومن أنت ؟ قال شاعرك يا أمـير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة . فقال له المهدى ألست القائل

أقمنا باليمامة بعد معن ... مُقاما لا نريد به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا ! جروا برجله ! فجروا برجله حتى أخرج . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء وانما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة فمثل بين يديه وأنشده بعد رابع أو خامس من الشعراء

طَرقتك زائرة فحيِّ خيالَها ... بيضاء تَخلِط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوبَ الى الصبا فأمالها

قال فأنصت له الناس حتى بلغ قوله

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلّغها النبيّ فقالها
شهدتْ من الانفال آخر آية ... بتراثهم فأردتمو أبطالها

قال فرأيت المهدى قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما سمع . ثم قال كم هى ؟ قال مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم . فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بني العباس

قال ومضت الأيام وولى هارون الرشيد الخلافة فدخل اليه مروان فرأيته واقفا مع الشعراء ثم أنشده قصيدة امتدحه بها . فقال له من أنت قال شاعرك وعبدك يا أمير المؤمنين مروان بن أبي حفصة . قال له ألست القائل فى معن وأنشده البيتين اللذين أنشدهما المهدى . ثم قال خذوا بيده! فأخرجوه

لاشئ لك عندنا ! فأخرج . فلما كان بعد أيام تلطف حتى دخل فأنشده قصيدته التى يقول فيها .

لعمرك ما أنسى غداةَ المحصَّب اشارةَ سلمى بالبنان المخضَّب

وقد صدر الحُجاج إلا أقلّهم مصادرَ شتى موكِبا بعد موكب

قال فأعجبته فقال كم قصيدتك من بيت ؟ فقال ستون أو سبعون . فأمر له بعدد أبياتها ألوفا . فكان ذلك رسم مروان عندهم حتى مات »

ومروان فى طبقة بشار فى المدح أو يزيد ويمتاز عنه بشار بضربه فى فنون مختلفة . وكانا متعاصرين . وبين العلماء خلاف فى الموازنة بينهما وأكثرهم على تقديم بشار . وكان ابن الاعرابى يختم به الشعراء وما دوَّن لأحد بعده شعرا وروى عنه ذلك فى أبى نواس

وفيه يقول عبد الله بن المعتز فى كتاب طبقات الشعراء

(وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللامية وهى التى فضل بها على شعراء زمانه يمدح فيها معن بن زائدة الشيبانى ويقال أنه أخذ منه عليها مالا كثيرا لا يقدر قدره . ولم ينل أحد من الشعراء الماضين مانال مروان بشعره فما ناله مروان بشعره (مما ناله ضربة واحدة) ثلثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد)

يريد به البيت المشهور الذى يدفع به العلويين عن طلب الخلافة وهو قوله

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

ويقال ان هذا البيت كان سببا فى ان أحد شيعة العلويين عمل على اغتياله فتحبب اليه حتى صار يأنس به ويخلو معه فانتهز فرصة مرضه بالحمى وخلو المكان من أهله فخنقه، ثم خرج وعاد عند سماع الواعية. متباكيا. وجهل أمره. وكانت وفاة مروان سنة ١٨١ ببغداد وقصيدته اللامية مشهورة مطولة منها

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندرى أىّ يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه وما منهما الا أغر محجّل

أبو نُوَاس

هو أبو علىّ الحَسَن بن هانئ بن عبد الاول بن الصباح الحكمى الشاعر المتفنن الجاد الماجن صاحب الصيت الطائر والشعر السائر ورأس المحدثين بعد بشار

منشؤه — : وهو فارسى الأصل وجده كان من موالى الجراح بن عبدالله الحكمى والى خراسان فى عصر بنى أمية . وكان أبوه من جند مروان ابن محمد آخر ملوك بنى أمية من أهل دمشق وانتقل الى الأهواز للرباط بها فتزوج أمه جلبان وولد أبو نواس بقرية (أستان ماتارد) من كورة خوزستان سنة ١٤١ وقدمت به أمه البصرة بعد سنتين فنشأ وتعلم العربية ورغب فى الادب وأشعار الخلعاء والمُجّان . فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة . فمكث عنده مدة وهو لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف الى الأدباء . وكان يعجبه شعر والبة بن الحباب من الكوفة أحد المستهترين المجان. فاتفق أن

قدم والبة البصرة واجتمع بأبى نواس عند العطار وأعجب كلاهما بالآخر فأخرجه والبة معه الى الكوفة ليتخرج فى الشعر فبقى مع والبة وندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر حتى فاقهم جميعا ولكنه غلب عليه مذهبهم فى وصف الخمر ومجالس اللهو والطرب والعبث والمجون والعدول بالغزل من صفات المؤنث الى صفات المذكر . ويقال ان أول من انتهج ذلك فى الشعر أستاذه والبة بن الحباب . وقدم بغداد وقد أربى سنه على الثلاثين . ولم يلحق بها أحدا من الخلفاء قبل الرشيد . فاتصل ببعض الامراء ومدحهم وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه فمدحه بقصائد طنانة . ثم كان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ، ومنهم الخصيب عامل مصر فمدحه بقصائد بليغة وروى عنه المصريون شعرا كثيرا لم يحفظه العراقيون . ثم انقطع الى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض مايوجب تعزيره فسجنه ، وبقى فى سجنه مدة . وقيل سجنه الرشيد أيضا قبل ذلك لتهتكه واغرائه الشبان بالفجور ولم يلبث بعد خروجه من السجن كثيرا حتى مات ببغداد سنة ١٩٩

صفاته وأخلاقه — كان أبو نواس جميل الصورة فكه المحضر خفيف الروح كثير الدعابة حاضر البديهة فصيح اللسان عالما بالشعر واللغة والاخبار علما قلما يتفق لأحد من أئمة زمانه الا أنه كان ماجنا شديد الاستهتار بشعائر الدين والاداب ، وأكثر من الارفاث والمجون فى شعره . ومع كل هذه الهنات لم يتحرج أئمة اللغة والأدب عن الاقرار بفضله فى صناعته وأنه نسيج وحده وأعجوبة زمانه

وكان فى أبى نواس عصبية لليمانية على المضرية ويشايعه فى ذلك خلف الأحمر وهو الذى أغراه بالتكنى بأبى نواس اذ قال له : أنت من أهل اليمن فتكن باسم من أسماء الذوين. ثم أحصى له أسماءهم وخيره فقال : ذوجدن ، وذوكُلال ، وذو يزَن ، وذوكَلاع ، وذو نُواس . فاختار ذا نواس . فكناه أبا نواس وكان قبل يكنى أبا الحسن فغلبت عليه . وقيل كنى بذلك لذؤابتين كانتا له فى صغره تنوسان على عاتقيه

منزلته فى الشعر — : أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على ان أبانواس أشعر أهل زمانه وأكثرهم تفننا وأرصنهم قولا وأبدعهم خيالا مع رقة لفظ وبديع معنى . وكان يطاوله مسلم بن الوليد وأبو العتاهية فى هذه الصفات الا أن الاول كان به على فضله بعض تكلف وتصنع قليل البديهة والارتجال يتعمّل التوقر والتعظم فى شعره . وكان أبو العتاهية مطبوعا على الشعر حتى كاد كل كلامه يكون شعرا الا أنه غلب عليه فنان من الشعر : الغزل فى صباه، والزهد فى كهولته وشيخوخته. وأبو نواس شاعر مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات التى أسقطته عند المتورعين وحببته الى المستهترين . وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها ويقتصر على العيون فلهذا قصر أكثر قصائده

تأثير شعره — : والمطلع على تاريخ الشعر العربى لا يسعه الا موافقتنا

فى أن شعر أبى نواس كان لقاح الفساد والقدوة السيئة فى نقل الغزل من أوصاف المؤنث الى أوصاف المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم واحتشامهم (ولم يجسر أحد قبله وقبل شيطانه والبة أن يذكر ذلك فى شعره الا قليلا وان وجدت دواعيه بعدوى المدنيتين الآرية والسامية خشية الانكار والمقت، حتى جاء أبو نواس فسار شعره فى ذلك، وبذ غيره، وتفنن وتوفر فيه على الهزل، واخترع المعانى الفريدة، فأغوى بها العقول، واستهوى القلوب، وزاد على ذلك انفراده بالابداع فى وصف الخمر وصفا لم يخطر ببال أحد ممن تقدمه أو كما يقول أحمد بن يوسف الكاتب: وصفا لو سمعه الحسنان لهاجرا اليها واعتكفا عليها (يعنى الحسن البصرى وابن سيرين) فصار نموذج سوء لمن تأخره. فافتتن بشعره الشبان والمتصابون فى زمانه وبعده. وحاكوه. وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد ظريفا الا ذا مزج شعره بشئ من ذلك وان لم يقع فى محظوراته. جناية جناها أبو نواس على الشعر العربى، ومعرة الصقتها أرقائه وأخباثه بالأدب لم تقتلعها من أهله عظات الحوادث وزواجر الزمان، فانا لله)

ويعد أبو نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى، وكثيرا ما صب على قوالب معانيه وجرى فى مضماره. وفى ذلك يقول الجاحظ وقد وصف بعض الشعراء (وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد والعدة اثنان، بشار حلّ من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا أذن) ويقول أيضا فى موضع

آخر (لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبى نواس)

واستقصاء أخبار أبي نواس وأقوال الناس فى شعره يستوجب عمل مجلدات وهيهات أن تفى هذه العجالة بذلك

وقال أبو نواس الشعر وهو صبى وأول شعر قاله هو

حاملُ الهوى تعِبُ   يستخفه الطرب

أن بكى يحِق له   ليس ما به لعب

تضحكين لاهيةً   والمحب ينتحب

كلما انقضى سبب   منك جاءنى سبب

تعجبين من سقمى   صحتى هى العجب

وعن المبرد أنه قال: ماتعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس فانه شبب ومدح فى أربعة أبيات . فقال :

تقول غداة البين احدى نسائهم   لىَ الكبدُ الحرَّى فسر ولك الصبر

وقد خضبتها عبرة فلدمعها   على خدها خد وفى نحرها نحر

وقالت الى العباس ؟ قلت فمن اذا؟   وما لى عن العباس مَعْدًى ولا قَصر

فهل يُكفلَن الا براحته الندى   وهل يزهون الا بأوصافه الشكر

وأنشِد المأمون لأبى نواس قوله

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

فقال: لو ان الدنيا نطقت فوصفت نفسها لما عبرت عنها عبارة أبى نواس.

وقال سفيان بن عيينة لرجل من أهل البصرة أنشدنى لأبى نواسكم فأنشده

ما هوى الاله سبب يبتدى منه وينشعب

فقال سفيان آمنت بالذى خلقه

وعجب سفيان أيضا من قوله

ياقمرا أبصرتُ فى مأتم يندُب شجوا بين أتراب

يبكى فيلقى الدُّرَّ من نرجس ويلطم الورد بعناب

قيل فاذا أعجِبَ به سفيان مع زهده وورعه فما الظن بغيره . وروى الثعالبى عن هرون بن على بن يحيي بن المنجم : أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود بيت للمحدثين فى المدح قول أبى نواس

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك يأسو كلَّ ماجرحا

وقال غيره بل قوله

أنت على ما بك من قدرة فلست مثلَ الفضل بالواجد

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ومن مدائحه القصيدة الطنانة التى مدح بها الأمين ومطلعها

يادار ماصنعت بك الأيام لم تبق فيك بشاشة تُستام

ومنها

واذا المَطِىُّ بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

ومن قوله فى صفة الخمر

فتمشَّت فى مفاصلهم كتمشى البُرْء فى السقَم

فعلت فى اللب اذ مزجت مثلَ فعل النار فى الظُلَم

فاهتدى سارى الظلام بها كاهتـداء السَفْر بالعلم

وقوله فى مطلع قصيدة

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وقوله

ومستطيل على الصهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حُذاق

فكل شئ رآه ظنـه قدحا وكل شخص رآه قال ذاساق

وقوله فى الشكوى وسوء الحال

ولو أنى استزدتك فوق مابى من البلوى لأعجزك المزيد

ولو عرضت على الموتى حياة بعيش مثل عيشى لم يريدوا

وقيل انه لما حضرته الوفاة أنشد

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمتُ بأن عفوَك أعظم

ان كان لايرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعا فاذا رددتَ يدى فمن ذا يرحم

مالى اليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أنى مُسلم

مسلم بن الوليد صريع الغوانى

هو أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصارى وَلاءً الكوفى منشأً أحد الشعراء المفلقين، والبلغاء المبدعين، وأحد الفحول الثلاثة المشهورين من الطبقة الثانية من شعراء بنى العباس، وثانيهم وثالثهم أبو العتاهية وأبو نواس . قال مسلم الشعر

فى صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء مكتفيا بما يناله من قليل العطاء ، وينفقه على ملاذه مع اخوانه من خلعاء الشعراء. ثم انقطع الى يزيد بن مَزْيَد الشيبانى قائد الرشيد، فمدحه بأسنى المدائح . وكان يتلهف على حرمانه من الوصول الى الخليفة . حتى ذكره بعض اخوانه فى مجلس الرشيد . فوجه اليه . فحضر ، وأنشده ما قاله فيه من الشعر . فأجزل صلته . وعد من شعراء الرشيد . وهو الذى سماه صريع الغوانى لقوله فى قصيدة له بيت

هل العيش الا أن تَروُح مع الصِبا صريعَ مُحَيَّا الكأس والأعين النجل

ثم اتصل بالبرامكة ، وحسن رأيهم فيه وتحفيهم به ، وكانوا يقدمونه على أبى نواس ولما بويع المأمون بالخلافة بمرو ، وأصبح العقد والحل بيد ذى الرياستين الفضل ابن سهل ، وكان نديما له أثيرا عنده قبل وزارته ، قربه وأدناه وحظى عنده . وولاه أعمالا بجرجان اكتسب فيها ألف ألف درهم . فلما حصل المال عنده لزم منزله ، وكان كريما سمحا ، فأتلف جميع ما اكتسبه . ثم صار الى الفضل مستجديا فقال له ألم أُغنِك ؟ فقال ماغناى فى ألف ألف وألف ألف وألف ألف فقال له الفضل : ان بيوت الأموال لاتقوم على هذا الفعل . ثم قلده الضياع بأصبهان، وضم اليه رجلا يأخذ مرافق العمل ، ويطلق له شيئاً يحتاج اليه بقدر نفقته، ويبتاع له بالباقى ضياعا . فاكتسب منها أيضا ألف ألف ابتيع له بها ضياع . فلما قتل الفضل بن سهل لزم منزله ونَسَكَ ولم يمدح أحدا حتى مات بجرجان سنة ٢٠٨ هـ

منزلته فى الشعر — : المأثور عن العلماء أن مسلما وأبا العتاهية وأبا نواس

ثلاثتهم هم الذين انتهى اليهم التفوق فى الشعر من الطبقة الثانية. وفى تفضيل أحدهم على الآخر خلاف عريض بين علماء النقد. وكل فريق يميل الى فن من فنون الشعر، يقدم صاحبه. قال ابن رشيق فى العمدة «وسمعت جماعة من العلماء يقولون: كان مسلم بن الوليد نظير أبى نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبّض كان فى مسلم واظهار توقر وتصنع. وكان صاحب روية وفكرة، لا يبتده ولا يرتجل. وكان أبو العتاهية فيما يقال أقدر الناس على ارتجال وبديهة لقرب مأخذه وسهولة طريقه» ومن مخضَ أقوال العلماء وتفهم شعر الثلاثة قضى لأبى نواس عليهما.

ومسلم أول من تكلف البديع فى الشعر وجمع أنواعه المعروفة وقتئذ وهى (الجناس والمطابقة والاستعارة) من القرآن الكريم وكلام العرب. واستكثر منها فى قوله. وسبقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم. ولقب مسلم هذا النوع من الشعر بالشعر البديع. وأنكر عليه العلما. هذا التصنع والتكلف وعدوه إفسادا للشعر واغراقا عن مذهب العرب فيه فيقولون: ان مسلما أول من أفسد الشعر. وتبعه فى ذلك أبو تمام الطائى، ثم الشعراء بعده حتى انتهى السبق فيه الي ابن المعتز

وفى شعر مسلم يقول اسحاق الموصلى، وقد حكّمه الفضل بن يحيي بين منصور النَّمرى وبينه «انه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين، فضمنه المعانى اللطيفة، وكساه الألفاظ الطريفة فله جزالة البدويين، ورقة الحضريين»

فقال الفضل: وصفت والله فأحسنت وأوتيت الحكم

ولمسلم قصائد طنانة في أكثر فنون الشعر ومقطعات جميلة وأبيات سائرة تجدها في ديوانه المطبوع في ليدن والهند ومصر

واجتمع أصحاب المأمون عنده يوما فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء فقال بعضهم أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد حيث يقول ؟ قال : ماذا قال . قال : حيث يقول وقد رثى رجلا

أرادوا ليُخفوا قبرَه عن عدوّه ... فطيبُ تُراب القبر دلّ على القبر

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق . فقال :

قبُحت مناظره فحين خبَرته ... حسُنت مناظره لقُبح المَخبَر

ومدح رجلا بالشجاعة فقال

يجود بالنفس ان ضَنّ الجوادُ بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغازل فقال

هوى يجِدّ وحبيبٌ يلعب ... أنت لَقًى[1] بينهما مُعذَّب

فقال المأمون هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره

ولمسلم مهاجاة ومناقضة مع الحكم بن قَنبر ظهر فيها ابن قنبر، واستكان له مسلم . ثم وبخه قومه فحمي وألحى عليه بالهجاء . وتعرّضا للعصبية فهجا ابن قنبر الأنصار . وهجا مسلم مضر . واسترسل حتى هجا قريشا وأفحش . وأصلح بينهما رؤساء اليمانية والمضرية بعد أن ظهر مسلم عليه

---

(١) الشئ المطروح لحقارته

ومن هجاء مسلم لدعبل الخزاعى قوله وهو فيما يقال أهجى كلام للمحدثين

أما الهجاء فدقّ عرضك دونه والمدح عنك كما علمتَ جليل

فاذهب فأنت طليقُ عِرضك انه عِرض عززتَ به وأنت ذليل

ومن كلامه فى المدح

وردن رواق الفضل فضل بن خالد فحط الثناء الجزلَ نائله الجزلُ

بكف أبى العباس يُستمطر الغنى وتُستنزل النُّعمى ويُسترعف النصل

ويُستعطَف الأمر الأبىّ بحزمه اذا الأمر لم يَعطفه نقض ولا فتل

ومن شعره فى وصف البحر والسفينة قوله من قصيدة وقد ركب الفرات الى ممدوح (وهو من أبدع ماقيل فى ذلك) قال

ومُلتطِم الأمواج يرمى عُبابُه بجرجرة(١) الآذىّ للعِبْر فالعِبر

مطعَّمةٍ حيتانُه ما يُغبُّها(٢) مآكل زاد من غريق ومن كسر

اذا اعتنقت(٣) فيه الجنوبُ تكفّأت(٤) جواريه أوقامت مع الريح لاتجرى

كأن مَدَبّ الموج فى جنباتها مَدَبّ الصبا بين الوعاثِ(٥) من العُفْر

كشفت أهاويل الدجى عن مَهوله(٦) بجارية محمولة حاملٍ بكر(٧)

لطمت بخديها الحَباب(٨) فأصبحت موقَّعَةً(٩) الدّأيات مرثومة النحر

(١) الجرجرة صوت الماء والآذى الموج والعبر حافة النهر (٢) ما يغبها النهر واصل الغب أن تشرب الابل يوما وتدع يوما فهذا النهر لا يفعل ذلك بل يطعمها كل يوم لكثرة الغرقى فيه (٣) اضطربت واستدارت (٤) انكفأت وانقلبت (٥) الرمال الدقيقة اللينة والعفر الكثبان الحمر (٦) هوله (٧) يريد أنها لم تركب قبل هذه المرة (٨) الموج (٩) الموقعة المخططة ، والدأيات جمع دأية وهي الظهر أو الجوانب وأصلها

اذا أقبلت راعت بقُنةَ قَرهَب [١] وان أدبرت راقت بقادمَتي نَسر [٢]

تجافى [٣] بها النوتيُّ حتى كأنما يسير من الاشفاق فى جبل وعر

تخَلَّجُ [٤] عن وجه الحباب كما انثنت مخبأةٌ [٥] من كِسر سِتر الى ستر

أطلّت بمجذافين يعتورانها [٦] وقوّمها كبحُ اللجام من الدُّبر [٧]

فحامت [٨] قليلا ثم مرّت كأنها عقابٌ تدلت من هواء الى وكر

أناف [٩] بهاديها ومد زمامها شديدُ عِلاج الكف معتملُ الظهر

اذا ما عصت أرخى الجرير [١٠] لرأسها فملكها عصيانَها وهى لا تدرى

كأن الصبا تحكي بها حين واجهت نسيمَ الصبا مشيَ العروس الى الخدر

يممنا بها [١١] ليلَ التمام لاربع فجاءت لست قد بقين من الشهر

فما بلغت حتى الطلاحُ خضيرُها [١٢] وحتى أتت لونَ اللّحاء من القشر

وحتى علاها الموجُ فى جنباتها بأردية من نسج طُحلُبه الخضر

رمت بالكري أهوالُها عن عيونهم فباتت أهاويلُ السرى بهم تسرى

تؤم محل الراغبين وحيث لا تذاد اذا حلت به أرحلُ السفْر

ركبنا اليه البحرَ فى مؤخراته [١٣] فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

للماشية. والمرثومة الدابة فى وجهها بياض (١) رأس ثور وحشى (٢) يريد بها المجذافين .
(٣) أى تنحى بها الملاح عن الخشف وهى الحجارة تحت الماء قريب سطحه
(٤) تنحى عن وجه الحباب حيث يكون الصخر قرب الماء (٥) أى جارية مخبئة
(٦) يتداولانها (٧) أراد به سكانها ويسمى أيضا رجل السفينة وذنبها ويسمي بلسان ملاحى العراق (الاشباطة) (٨) استدارت (٩) أى أشرف بعنقها (١٠) الحبل
(١١) أى قصدناها ليل التمام لاربع عشرة مضت من الشهر فبلغت الممدوح لست ليال قد بقين منه (١٢) أي الاعشاء ملازمها صارت فى لون اللحاء (١٣) أى أواخر أيان ركوبه حيناً

ومن كلامه فى ذم الدنيا

دلت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطانى

ولما احتُضِر نظر الى نخلة لم يكن بجرجان غيرها فقال

ألا يانخلة بالسفـ ـح من أكناف جُرْجان

ألا انى وإياكِ بجرجان غريبان

﴿ أبو العتاهية ﴾

هو أبو اسحق اسمعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كيسان مولى عنزة أطبع أهل زمانه شعرا وأسهلهم لفظا وأسرعهم بديهة وارتجالا وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والزهد والحكمة والامثال

أصل جده كيسان من عين التمر [١] ثم انتقل أباؤه الى الكوفة فولد أبو العتاهية بها سنة ١٣٠ ونشأ فى صناعة أهله ، وكانوا باعة جرار الا أنه ربأ بنفسه عن صناعتهم وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه وخف على طبعه وزنه حتى صار كما قال عن نفسه لوشئت أن أجعل كلامى كله شعرا موزونا لفعلت فذاع صيته فى الكوفة والحيرة وسلك طريق خلعاء أهل الكوفة ثم قدم بغداد ومدح المهدى ونفق عنده . وتعرف ببعض خدمه وجواريه فعشق منهن فتاة تسمى عتبة وكانت أمة لريطة بنت العباس بن السفاح أو للخيزران فهتف بها وأكثر من غزله بها فأراد المهدى أن يستوهبها من سيدتها له فاستغاثت

(١) قرية قرب الانبار غربى الكوفة

به الجارية والسيدة . فكان المهدى يلهيه عن ذكرها بالمال الكثير ، فيقبل المال ولا يفتر عن ذكرها فى شعره حتى فى مدائحه له . والمهدى يحتمل ذلك منه على مضض رجاء استصلاحه وابقاء على شاعر عظيم من شعراء بيت الخلافة . ثم لها عنها بعض الشئ ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد فكان يأخذ بكل وقتا ثم ينصرف عنه حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به الى العبادة والزهد فى الدنيا قولا ومعيشة على افراط فى حب المال وجمع له وبخل به وتقتير على الاهل والولد والخدم ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة . ثم عرضت له حالة امتنع فيها عن قول الشعر بتة. فاراده الرشيد على أن يقول شعرا اقترحه عليه ، فرده ردا أغضبه فأمر بحبسه . ثم رضى بقول الشعر فشفع له فاطلق وأقبل على عادته فيه وترك الغزل والهجاء وبقى على ذلك مدة الرشيد والامين وأكثر أيام المأمون ولم تتضع منزلته عند الخلفاء والملوك حتى مات سنة ٢١١ ببغداد

عقيدته ومذهبه — يتسع مجال العذر لمن كان يقول ان أبا العتاهية معتل العقيدة لاضطرابه فى الاراء وتلونه فى النحل . فقد كان خليعا ماجنا مفككا عاشقا مدلها ثم صار عابدا ناسكا. ولو وقف عند هذا الحد لكان من عداد عباد زمانه كشقيق البلخى والفُضيل بن عياض وابراهيم بن يسار وابراهيم

ابن أدهم لكنه كان يحب المال حبا جما ،ويغل به يده عن أهله وخدمه وهو مع هذا يتردد بين مذاهب المعتزلة والجبرية والشيعة وغيرها

والدارس لحياة الرجل المتتبع لآثار شعره يرى أن الرجل كان مضطرب المزاج مبلبل الخاطر به (كما كانوا يقولون) دخلة من السوداء فلم يكن تقشفه وتخشنه اصطناعا وتكلفا والا لظهر عليه مرة بين حساده ومنافسيه فقد غبر أكثر حياته يلبس غليظ الكرباس أو خشن الصوف والشعر ، بل ربما غلا ولبس قوصرتين يثقب احداهما ويخرج منها رأسه ويديه ويقيمها مقام القميص ويثقب الاخرى ويخرج منها رجليه ويقيمها مقام السراويل ويكتفى بخبز الشعير ويأتدم بالخل والكامخ واذا قرم اجتزأ بالرءوس .وكان يحج كل عام مرة . ولله فى خلقه شؤن

منزلته فى الشعر — : يعد أبو العتاهية ثالث أبى نواس ومسلم وكثير من معاصريهم يفضله عليهما غير أن لكل بابة هو فيها نسيج وحده فمذهب أبى العتاهية فى التزهيد ووصف الدنيا لم يسبقه اليه سابق بل هو مخترع هذا المذهب فى الشعر ، ويمتاز فوق ذلك بانه أسرع الثلاثة بديهة وأكثرهم قولا وأسهلهم لفظا وأطبعهم شعرا الا أن أبا نواس يفضلهم بسلوكه فى شعر كل مذهب

ومن قوله فى عتبة

عينى على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

يامن رأى قبلى قتيلا بكى   من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفى نحوكم سائلا   ماذا تردون على السائل
ان لم تنيلوه فقولوا له   قولا جميلا بدل النائل
أو كنتم العام على عُسرة   منه فمنّوه الى قابل

وجلس المهدى للشعراء يوما فأذن لهم وفيهم بشار وأشجع وأبو العتاهية . فلما سمع بشار كلامه قال لأشجع يا أخا سُلَيم أهذا ذلك الكوفى الملقب قال نعم قال لاجزى الله خيرا من جمعنا معه . ثم قال المهدى لأبى العتاهية أنشد فأنشده قصيدته التى أولها

ألا ما لسيدتى مالَها   أَدَلاً فأَحمِلَ إدلالَها
والا ففيم تجنت وما   جنيت سقى الله أطلالها

واستمر فى انشادها فاسترذلها بشار حتى أتى على قوله

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الأرض زلزالها
ولولم تطعه نيات القلوب   لما قبل الله أعمالها
وان الخليفة من بغض لا   اليه ليبغض من قالها

فقال بشار لأشجع وقد اهتز طربا أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفى

ومن حكمه وأمثاله مزدوجته التى ضمنها أربعة آلاف مثل ومنها

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
هى المقادير فلمنى أو فذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر

ومنها

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسدة

ومن قوله الذى يناقضه فعله

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا انما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
اذا كنتَ ذا مال فبادر به الذى يحق والا استهلكته مهالكه

وشعره فى وصف الدنيا والاغترار بها والتزهيد فيها كثير فى ديوانه الذى طبع بالشام فراجعه ان شئت

أبو تمام

هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحترى وثالثهم المتنبى .

والمعروف فى نسبه أنه عربى طائى ولد سنة ١٩٠ ه بقرية جاسم من أعمال دمشق من أبوين فقيرين . ونقل صغيرا الى مصر فنشأ بها واشتغل بمهن حقيرة ثم كان يسقى الماء بالجَرّة فى جامع عمرو بالفسطاط . والظاهر أن طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث حبب اليه العلم والأدب فتعلم العربية وحفظ ما لايحصى من شعر العرب . قيل انه كان يحفظ أربعة

عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه عرف أن مصر لا تنهض باذاعة فضله وتحقيق أمله فخرج الى مقر الخلافة. فمدح المعتصم وحظى عنده، ومدح وزيره محمد بن الزيات، والحسن بن وهب ومحمد بن حميد الطوسى والأفشين .ورحل الى كبار العمال بممالكهم كعبد الله بن طاهر بخراسان وأبى دُلف العجلى ببلاد الكَرَج وأرمينية ومدحهم بالقصائد الخالدة ،وقربوه منهم الى حد الصداقة والاخاء فرغبوا به عن التكسب بالشعر فولاه الحسن بن وهب صاحب الرسائل فى زمن المعتصم بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفى بها سنة ٢٣١ هـ

ورثاه الوزراء ورؤساء الدواوين كابن الزيات والحسن بن وهب ومات عن احدى وثلاثين سنة

صفاته — : كان أبو تمام أسمر طويلا فصيحا حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة وكان حاضر الذهن سريع الجواب قلما عرف من أهل زمانه فى حدة الخاطر ولطافة الحس مثله . حكى أنه لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها الى قوله

اقْدَامُ عمرو [1] فى سماحة حاتم [2] فى حلم أحنف [3] فى ذكاء اياس [4]

قال له أبو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف وكان حاضرا (الأمير فوق

(١) هو عمر بن معديكرب الزبيدى (٢) هو حاتم الطائى المشهور بالكرم (٣) هو الاحنف بن قيس سيد تميم وأحلمها (٤) هو اياس بن معاوية المزنى قاضى البصرة لعمر بن عبد العزيز وأزكى أهل زمانه وأصدقهم فراسة

من وصفت فأطرق مليا) وقال

لا تنكروا ضربي له مَنْ دُونَه ... مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعته وفطنته ولما خرج قال الفيلسوف هذا الفتى يموت قريبا فكان كما قال

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخراسان وامتدحه بالقصيدة التي أولها ﴿ هن عوادي يوسف وصواحبه ﴾ أنكر عليه أبو العَمَيْثَل وقال له : لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له : لم لا تفهم ما يقال ؟ فاستُحْسِن منه هذا الجواب على البديهة .

منزلته في الشعر — يعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت اليه معاني المتقدمين والمتأخرين وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الاوائل وحكمتها من اليونان والفرس والهند فحصُف عقله ولطُف خياله بالاطلاع عليها، واستخرج من جملة ذلك طريقته التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والامثال والاستدلال بالادلة العقلية والكنايات الخفية الكثيرة لوازمها ولو افضى الى التعقيد أحيانا . ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد ان يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار ومسلم وأبي نواس في الجناس والمطابقة والاستعارة فسلم له بعضها ، واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف في صفحة البدر ، ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وأعجزت عن محاكاتها كل

لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة . وصيغت فيه من الألفاظ الرائعة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه مُعَبَّدَة ومنها سلك المتنبى وأبو العلاء وغيرهما الى حكمهم وأمثالهم . ولغلبة الحكمة عليه قيل ان أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى

ولم يرزق أحد السعادة فى شعره وتناوُل الناس له نقدا وشرحا واستشهادا به مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى . وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة ، وأثر عنه هذا الشعر الكثير ، ولم تزد سنه على ٣٦ [٤١] عاما فكيف به لو عُمّر .

وأجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يتعلق بها خاطر أحد جاش صدره بشعر . وأشهرها القصيدة المشهورة التى رثى بها محمد بن حُمَيد الطوسى وأولها .

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدَح الأمرُ فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

ومن قصائده المشهورة قصيدته التى هنأ بها المعتصم بفتح عَمُّورية وأولها .

السيف أصدق أنباءً من الكتب فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء

لاتنكرى عطلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وتنظَّرى (١) خَبَبَ الرِّكابِ (٢) ينصها (٣) محيى القريض الى مميت المال

---

(١) أى تأنى (٢) الركاب الابل يرحل عليها (٣) نص ناقته استخرج أقصى ماعندها من السير

ومن قوله في الحجاب

يا أيهـا الملكُ النائى برؤيتـه وجودُه لمُراعى جُوده كَثَبُ
ليس الحجابُ بمقص عنك لى أملا أن السماء تُرَجّى حـين تحتجبُ

وقوله

فلو صوَّرت نفسك لم تزدها على مافيك من كرم الطباع

وله ديوان شعر مشهور مطبوع فى مصر وغيرها مرارا

ومن تأليفه ديوان الحماسة الذى اختاره من كلام العرب فدل على حسن اختياره وسلامة ذوقه وله مجموع آخر سماه فحول الشعراء جمع فيـه مختار شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وغيرهما من الكتب

دِعبل الخزاعى

هو أبو على دعبل بن على بن رزين الخزاعى أحـد الشعراء المطبوعين والشيعة المغالين والهجائين المفحشين

منشؤه — : ولد دعبل سـنة ١٤٨ هـ من بيت معروف فى خزاعة بالفصاحة والشـعر ونشأ بالكوفة فسلك فى صغره مسلك الشطار ، وتعرض لأموال الناس ، فجنى جناية خرج بسببها فارا منَ وجه السلطان تتقاذفه البلدان مدة أعوام عرف فى خلالها كثيرا من أهل العلم والأدب . ثم انقطع الى مسلم بن الوليد الشاعر المشهور يخدمه ويتخرج عليه فى الشعر . قال عن نفسه « مازلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم فيقول لى : اكتم هذا حتى قلت

أين الشبابُ وأيةً سلكا لا ! أين يطلب ؟ ضل بل هلكا

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

ياليت شعرى كيف يومكما يا صاحبيّ اذا دمى سُفِكا

لا تأخذوا بظُلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمى اشتركا

فلما أنشدته هذه القصيدة قال اذهب فاظهر شعرك كيف شئت لمن شئت »
وقد كانت نظرته فيه صادقة . فما اشتهرت هذه الأبيات وغنى بها المغنون في حضرة الرشيد حتى طرب منها ، وسأل عن قائلها . فأخبر به فأرسل اليه من ساعته عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ومركباً من مراكبه مع خادم من خاصته واستدعاه اليه . فحضر وقر به وأجرى عليه رزقا سنيا . فكان أول من حرضه على قول الشعر . ولكن غلوه في الرفض وانكاره على الرشيد ما كان يتناول به العلويين من الحبس والأذى أنساه معروفه . فهجاه عند موته واسترسل في هجاء الخلفاء من بعده وهجاء وزرائهم وكتابهم وقوادهم وعمالهم . بل هجا أشراف قبيلته وذوى قرابته . فلم يسلم من هجائه ذو نباهة ولا كبير أحسن اليه أو لم يحسن . ولما لم يكفه هجاء الافراد تعصب لليمانية على النزارية ، فعارض الكميت بقصيدة قحطانية هجا بها نزارا ربيعتها ومضرها . ونَصَب له في ذلك كثير من شعراء المضرية للرد عليه ، وكان من أشدهم عليه أبو سعد المخزومى ، ولكن لسان دعبل سلقه وهتكه فخافت المخزومية من معرته فنفته وتبرأت من نسبه فانكسر بعدها

وعمر دعبل طويلا ، فأدرك الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق

والمتوكل وكلهم هجاهم وهجا وزراءهم

ولذلك عاش أكثر عمره طريدا مشردا فاذا أطلق له خليفة أمانا ظهر، وجهر بشعره، وانتجع الولاة، ومدحهم وهجاهم. ومن هؤلاء المطلب بن عبد الله الخزاعى عامل مصر مدحه بقصيدة رائقة يقول فيها

أبعد مصر و بعد مطلب　　ترجو الغنى ان ذا من العجب

ان كاثرونا جئنا بأسرته　　أو واحدونا جئنا بمطلب

فولاه أسوان. ثم هجاه بقصيدة منها

وعاديتَ قوما فما ضرهم　　وقدَّمتَ قوما فلم ينبُلوا

فعزله فعاد الى عادته. وكان يقال له: أنت أجرأ الناس باقدامك على هجاء الخلفاء. فيقول: أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين سنة، لست أجد أحدا يصلبنى عليها.

وما زال هذا دأبه حتى مات فى احدى خرجاته بقرب السوس من كور الأهواز. قيل دس عليه مالك بن طوق فاتكا يغتاله فلقيه بعد صلاة العتَمة وضرب ظهر قدمه بعكاز لها زُج مسموم فمات من غد سنة ٢٤٦ هـ

عقيدته ومذهبه — : كان دعبل من غلاة الرافضة ولعل لنشأته فى الكوفة أثرا فى ذلك اذ كان جل أهلها شيعة

ولم يسلم من لسانه غير العلويين، وقصر مدحه الجيد عليهم وعلى رثائهم وندب قتلاهم، وكان يعد ذلك من العبادة والقربى الى الله، وكان ممن مدحه منهم على بن موسى الرضا وأنشده قصيدته التى منها

مدارس ايات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فأمر له بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ، ووهب له جبة من ثيابه ليجعلها فى كفنه . فاغتصبها منه الشيعة وأعطوه بدلها ثلاثين ألف درهم فلم يرض حتى أعطوه فرد كُمٍ من بطانتها . وأعداه تخرجه على مسلم بعدوى التعصب لليمانية

منزلته فى الشعر — : كان دعبل فى منزلة أبى تمام عند كثير من أهل الأدب . ولولا لوثة فى طباعه وعقله وكفران منه لنعمة من أحسن اليه لكان على تعميره واحد عصره كثرة شعر وجودة قول . وسُمع الجاحظ يقول سمعت دعبل بن على يقول :

« مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذر شارقه إلا وأنا أقول فيه شعرا » وباد هذا الشعر الكثير اذ لم يكن فى روايته واستنساخه إلا الاثم والحرج الى الخوف من السلطان والرؤساء المهجوين . وبقى منه نتف سارت مسير الأمثال ، فلم يغلب عليها سلطان . والرأى الظاهر فيه انه فى طبقة على ابن الجهم وديك الجن .

ومن هجائه فى المأمون قوله

أيسومنى المأمون خُطةَ جاهل أو ما رأى بالامس رأي محمد

انى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد

فبلغ من حلم المأمون انه لما سمع هذه الايات لم يزد على ان قال : قبح الله

دعبلا فما أوقحه ! ومتى كنت خاملا وقد ولدت فى حجر الخلافة ورضعت ثديها وربيت فى مهدها . وقيل انه اغضى عليها بعد ما بلغه هجاؤه فى ابراهيم ابن المهدى بقوله

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا اليه كل أخرق مائق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها فلتصلحن من بعده لمخارق

ويقال أيضا انه لما سمعها ضحك ، وقال قد صفحت عن كل ما هجانى اذ قرن ابراهيم بمخارق فى الخلافة وولاه عهده . ثم كتب له أمانا فأقبل اليه ، وحظى عنده . ولم يلبث أن رجع الى طبعه وهجاه . وقيل له ان دعبلا قد هجاك فقال وأى عجب فى هذا؟ هو يهجو أبا عباد كاتبى ولا يهجونى أنا ! ومن أقدم على جنون أبى عباد أقدم على حلمى

وكان يعجب المأمون قوله فى وصف سفر

ألم يأن للسَّفْر الذين تحملوا الى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالى صرفهن كما ترى لكل أناس جدبة وربيع

ومن أشرف قوله فى الحماسة وجرى فيه على مذهب البدو قوله

بانت سُليمى وأمسى حبلها انقضبا وزوَّدوك ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سُلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

الحمــد فرّق مالى فى الجفون فما ... أبقين دمّا ولا أبقين لى نشبا
قالت سلامة دع هذى اللَّبُون لنا ... لصبية مثل أفراخ القطا زُغُبا
قلت احبسيها ففيها مُتعة لهـمُ ... ان لم يُنِخ طارقٌ يبغى القرى سَغبا
لما احتبى الضيف واعتلّت حلوبتها ... بكى العيال وغنّت قِدرنا طربا
هذى سَبيلى وهـذا فاعلمى خلقى ... فارضَىْ بهِ أو فكونى بعض من غضبا
ما لا يفوت وما قد فات مطلبه ... فلن يفوتنى الرزق الذى كُتبا
أسـعى لأطلبه والرزق يطلبنى ... والرزق أكثر لى منى له طلبا
هل أنت واجد شئ لو عُنيت به ... كالأجر والحمد مُرتادًا ومكتسبا
قوم جوادهم فردٌ وفارسـهم ... فردٌ وشاعرهم فردٌ اذ نُسِبا (١)

البحترىّ

هو أبو عُبادة الوليد بن عبيد الطائى الصميم الشاعر المطبوع وأشهر من استحق لقب شاعر على الاطلاق بعد أبى نواس

منشؤه — : ولد سنة ٢٠٦ هـ بناحية مَنْبِج (بين حلب والفرات) فى قبائل طى وغيرها من البـدو الضاربين فى شواطئ الفرات ، ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحة العرب . وابتعد عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم ، فكان شـعره كله حسن الديباجة صقيل اللفظ سلس الاسلوب ، كأنه سيل ينحدر الى الاسماع .

---

(١) هكذا ورد فى أمالى القالى والظاهر أن قبل البيت الاخير أبياتا سقطت من الرواية

ولقى البحترى وهو فتى أبا تمام ، فأسمعه شعره فأُعجِبَ به وأحبه وكان طائيا مثله . فلزمه البحترى ، وعليه تخرج ، واقتبس طريقته فى البديع . وكان البحترى يفضل أبا تمام على نفسه ، ويقول والله ما أكلت الخبز الا به ، وكان اذا سئل عن نفسه وعنه قال : أن جيد أبى تمام خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه . وخرج البحترى للعراق . وأقام فى خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وله عندهما الحرمة التامة . وكان معهما فى المجلس الذى قتلا فيه فرجع بعدئذ الى منبج يختلف أحيانا الى رؤساء بغداد وسر من رأى حتى مات سنة ٢٨٤ هـ

صفاته وأخلاقه — : كان البحترى على فضله وفصاحته ورقة كلامه وبديع خياله من أوسخ خلق الله ثوبا وأداة وأبخلهم على كل شئ . وكان من أبغض خلق الله أنشادا يتشادق ، ويتزاور فى مشـيه مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنتُ والله ! ثم يقبـل على المستمعين ويقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! فعلَ ذلك مرة أمام المتوكل ، وكان فى المتوكل عَبَث ودُعابة . فأغرى به أبا العَنْبَس فهجاه على البديهة بقصيدة هزلية على روى القصيدة التى يمدح بها المتوكل . فخرج البحترى غضبا من المجلس ، والمتوكل يضحك عليه

منزلته فى الشعر — : يكاد يكون من المجمع عليه انه لم يأت بعد

البحترى من هو أطبع منه على الشعر العربي ولا أبدع منـه للخيال الشعرى

قال له يوما أبو تمام : أنت والله يا بُنىَّ أميرُ الشعراء غدا بعدى

وفيـه يقول أبو الفرج الأَصبهانى : « وكان مشايخنا رحمة الله عليهـم يختمون به الشعراء وله تصرف حسن فاضل نقى فى ضروب الشعر سوى الهجاء فان بضاعته فيه نزره وجيده فيه قليل »

ولسهولة شـعر البحترى ورقته كان أكثر الأَصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره ومن أحسن قوله فى المدح

دنوت تواضعا وعلوت مجدا　　فشأناك انحـدار وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى　　ويدنو الضوء منها والشعاع

قال الثعالبي

ومن أظرف شعره وأرقه وألطفه قوله ـ وكان أبو بكر الخُوارزمى يقول لا تنشدونيهما فأرقص طربا وما أقبح الرقص بالمشايخ

يذكرنيك والذكرى عناء　　مشابهُ فيك طيبةُ الشكول

نسيمُ الروض فى ريح شمال　　وصوْبُ المُزن فى راح شَمول

ومن قوله فيمن يرضى بعد السخط وفى نفسه بقية من العَتْب

تبلّجَ عن بعض الرضى وانطوى على　　بقيـة عتب شارفت أن تصرّما

وقوله في سرى الليل وطلوع الفجر

ولقـد سريت مع الكواكب راكبا　　أعجازها بعـزيمة كالكوكب

والليل فى لون الغراب كأنه　　هو فى حُلوكته وان لم ينعَب

والعيس تَنْصُلُ من دجاه كما انجلى	صِبغ الخِضاب عن القَذال الاشيب
حتى تبـدى الفجر عن جنباته	كالماء يلمع من خلال الطحلُبِ

وللبحترى ديوان شعر كبير طبع فى جزأين بالاستانة وغيرها

وله ديوان حماسة جارى فيه أبا تمام وطبع بالشام وله كتاب معانى الشعر

٧ علی بن الجهم

هو أبو الحسن على بن الجهم القرشى السامى (١) أحد الشعراء المجيدين نشأ بخراسان وانتقل منها الى العراق فسكن بغـداد ونزل دجَيْل وكان من أطبع الناس على الشعر الجيد اتصل بالمتوكل وشايعه فى النّصْب وكراهة على وآله رضى الله عنهم . فاختص بالمتوكل وعد من خاصته وجلسائه ، ولـكنه كان نماماواشيا بالناس كثير الكذب . فظهر المتوكل أمره ، وبلغه أنه هجاه ، فسجنه ثم نفاه الى خراسان سـنة ٢٣٢ ﻫ ليُعَذّبه طاهر بن عبد الله بن طاهر ابن الحسـين وأمره أن يصلبه نهارا كاملا الى الليـل فصلبه ثم أنزله فقال فى ذلك قصيدة مشهورة منها

لم ينصبوا بالشاذِياخ عشية الا	إثنين مسبوقا ولا مجهولا (٢)
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم	شرفا وملء صدورهم تبجيلا
ماازداد إلا رفعة بنكوله (٣)	وازدادت الأعداء عنه نكولا (٤)

---

(١) نسبة الى سامة بن لؤى بطن من قريش (٢) محلة كانت بنيسابور خربت بعدها
(٣) جمع نـكل بالكسر وهو القيد (٤) مصدر نـكل عنه نـكص وجبن

هل كان الا الليث فارق غِيله ... فرأيتـه فى مَحمِـل محمولا
ما عابه أن بُزّ عنـه ثوبُه ... فالسيف أهول ُما يرى مسلولا
ان يبتذل فالبدر لا يذرى به ... ان كان ليـلة تمه مبـذولا
أو يسلبوه المال يُحزِنْ فقدُه ... ضيفا ألم وطارقا ونزيلا

وله قصيدة طنانة فى نفى عار السجن قالها فى سجنه لم يُصنع مثلها فى بابها وأولها

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى ... حبسى وأى مهند لا يغمد

وهى مذكورة فى كتاب الأغانى فراجعها هى وبقية أخباره فيه ان شئت . واليه تنسب القصيدة المشهورة التى أولها

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث ندرى ولا ندرى

ولما شاع فى بغداد مذهبه فى الانحراف عن على وآله واتهامه برأى الحشوية وسوء وقيعته فى كل أحد صديقا له أو عدُوًّا تحاماه الناس. فخرج الى الشام فى قافلة فخرج عليها اعراب من كلب ، ففر أصحابه وثبت هو وقاتل قتالا شديدا حتى تراجع الناس وهزموا الأعراب . ثم عاودهم الأعراب من الغد فأسرعت اليهم المقاتلة وخرج معهم فأصابته طعنة حمـل منها ودمه يُنزَف وبات ليلته بأشد القلق ولما أحس بالموت جعل يقول

أزِيدَ فى الليل ليـلُ ... أم سال بالصبح سيلُ
ذكرتُ أهل دجيل ... وأين منى دجيـل

فأبكى كل من كان بالقافلة . ومات مع السحر ودفن على مرحلة من حلب . ولما نزعت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة قد كتب فيها

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

وكان قتله سنة ٢٤٩ هـ عن نحو سبعين سنة . وله ديوان شعر صغير

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيج الرومى مولى بنى العباس الشاعر المكثر المطبوع صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب والمعانى المخترعة والأهاجي المقذعة

ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ وبها نشأ وأقام كل حياته نبغ فى الشعر نبوغا لم يقصر به عن درجة البحترى . وربما فاق عليه فى اختراع المعانى النادرة أو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد ووضعها فى أحسن قالب ، ولكنه كان يكثر القول فى مطولاته فيَسقُطُ منها الكثير . وكان البحترى يحذف فضول مطولاته بعد نظمها فلا يُبقى منها إلا العيون . ولولا ما كان فى ابن الرومى من الوسوسة وشدة الطِيَرَة وتناول الاشراف بالهجاء المقذع لعد فى صف البحترى على أن من الناس من يفضله عليه وعلى أبى تمام ، لأنه جمع بين صقال اللفظ واجادة المعنى . ويكفيه فضلا أن يكون المتنبى أحد رواة شعره والآخذين عنه . وكان كثير التطير جدا وله فيه أخبار غريبة . وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون اليه من يتطير من اسمه ، فلا يخرج من بيته ، ويمتنع من التصرف سائر يومه

ومن معانيه البديعة قوله

واذا امرؤ مدح امرأ لنواله　　وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لو لم يُقَدِّرْ فيه بُعد المستقى　　عند الورود لما أطال رشاءه

(وهو كان ممن يطيل) . وكرر هـذا المعنى بأوجه كثيرة فى شعره وكان اذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غـيره لا يزال يستقصى فيـه حتى لا يدع فيه بقية

وقيـل له لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منـه فقال للائمه أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله فأنشده فى الهلال

انظر اليه كزَوْرَقٍ من فضة　　قد أثقلته حَمُولَةٌ من عَنـبر

فقال : زدنى . فأنشـده قوله فى الآذَرْيُون وهو زهر أصفر فى وسـطه خَمَلٌ أسود ، وليس بطيب الرائحة والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه فى المنزل

كأن آذريونها　　والشمس فيه كاليه

مداهن من ذهب　　فيها بقايا غاليـه

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ذاك انما يصـف ماعون بيته ، لانه ابن خليفة . وأنا أىّ شئ أصف ؟ ولكن أنظروا اذا وصـفت ماأعرف أين يقع قولى من الناس ! هل لاحد قط مثل قولى فى قوس الغمام[1]

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا　　على الجوّ دُكنا والحواشى على الارض

---

(١) روى صاحب اليتيمة هذه الابيات لسيف الدولة بن حمـدان ، وأكثرهم على أنها لابن الرومي

يطرزها قوس السحاب بأخضر — على أحمر فى أصفر أثر مُبْيض

كأذيال خَوْد أقبلت فى غلائل — مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرُّقاق

ماأنسَ لاأنسَ خبازا مررت به — يدحوالرُّقاقة مثل اللمح بالبصر

مابين رؤيتها فى كفه كُرَةً — وبين رؤيتها قوراء كالقمر

ألا بمقدار ماتنداح دائرة — فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وذكر تشبيها آخر

ومن قوله

ان كنتَ من جهل حقى غيرمعتذر — وكنتَ عن رد مدحى غيرمنقلب

فاعطنى ثمن الطِّرس الذى كُتبت — فيه القصيدة أو كفارةَ الكذب

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره

بلد صحبت به الشبيبة والصبا — ولبست ثوب اللهو وهو جديد

فاذا تمثل فى الضمير رأيته — وعليه أغصان الشباب تميد

وكان الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتز يخاف هجوه وفلتات لسانه ، فدس عليه من أطعمه خُشْكَنانة [١] مسمومة ، فلما أكلها أحس بالسم ، فقام . فقال له الوزير : الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذى بعثت بى اليه . فقال له سلم على والدى ! فقال ليس طريقى على

---

(١) نوع من الكعك معالج بالسكر وهو ما يسمى الآن (بسكويت) والكلمة فارسية معربة

النار ! وخرج من منزله وأتى منزله وأقام أياما ومات . وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه . فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير . قال نفطويه النحوى : رأيت ابن الرومى وهو يجود بنفسه . فقلت ماحالك ؟ فأنشد

غلِط الطبيب على غلطة مُوردٍ   عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحَوْن الطبيب وانما   غلط الطبيب اصابة الاقدار

وتوفى سنة ٢٨٣ ببغداد

وله ديوان شعر كبير وتوجد منه نسخة فى دار الكتب العربية الخديوية فى جزأين كبيرين

ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله ابن أمير المؤمنين المتوكل صاحب النظم البديع والنثر الفائق وأشعر بنى هاشم وأول من صنف فى صنعة الشعر ووضع كتاب البديع وأبرع الناس فى الاوصاف والتشبيهات

ولد سنة ٢٤٩ فى بيت الخلافة وتربى تربية الملوك وشغف من صغره بالعربية والادب وأخذ عن المبرد وثعلب ومؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقى وغيرهم . ولم يكن علم يعرفه أئمة عصره أو فلاسفة دهره الامهر فيه ، أوألم به حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتابها . ولذلك عملوا على الا يقلدوه الخلافة على حسن كفايته واطلاعه بالامر خشية أن يكف أيديهم عن الاستبداد

بالملك ، ويكبح جماح قواد الاتراك الذين يعيش وزراء السوء على غفلتهم وخُرقهم . وولوا المقتدر صبيا . فاستولى الاتراك والخصيان وجوارى القصر على أزمة الامور مدة سنين حدثت بعدها فتن عظيمة فتسرع محمد ابن داود بن الجراح وكان من أفاضل الكتاب . فجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر ، وذهبوا الى عبد الله بن المعتز ، وبايعوه بالخلافة على غير طلب منه ، ولقب المنتصف

وكان لايزال مع المقتدر في دار الخلافة جملة من الغلمان (مماليك الحرب) فلما رأوا أن الامر كاد يخرج من أيديهم تحمسوا وحملوا حملة رجل واحد على الدار التى فيها ابن المعتز ، وقاتلوا أصحابه ، فانهزموا . وقبض على المعتز وبعض متابعيه ، فخنق من ليلته ، وسلم الى أهله . فدفن فى خَرِبة بجوار داره سنة ٢٩٦ ورثاه على بن محمد بن بسام بقوله

لله درُّك من مَلْك بمضيعة ناهيك فى العقل والآداب والحسب
مافيه لوٌّ ولا ليتٌ فتنقصُهُ وانما أدركته حرفة الادب

منزلته فى الشعر — : كان ابن المعتز فوق ماذكرناه من أوصافه آنفا سهل العبارة ، كثير مراعاة البديع فى قوله ، مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع ولما كان مقامه يجل عن الاكتساب بالشعر . قلّ فن المدح فى كلامه الا في أهل بيته من الخلفاء

وزاد فى الاوصاف الطبيعية والتشبيهات البديعة ، ووصف مجالس

الانس ومراسلة الاخوان ودعوتهم ، ووصف الصيد وكلابه و بواشقه وفهوده والقلم والقرطاس ونحو ذلك

والمتأمل في شعره يعرف فيه نَضْرة النعيم وتَرفَ الملك ورقة الخيال ولطف الوجدان . فمن ابتداءاته الجميلة قوله

أخـذْت من شبابىَ الايام   وتولّى الصِبّا عليـه السـلام
وارعوى باطلى فبان حديث النـ   ـفس منى وعفّت الاحـلام

وقوله

ما المغانى من بعدهم بالمغانى   فليكن شأنَكَ البكاء وشانى
امتَحَى ربعهم وكان جديدا   ونأى منهمُ الذى كان دانى
ما مررنا على لِوًى فيـه نُعم   مذ مررنا على لوى نُعمانْ

ومن شعره قوله

تفقَّدْ مساقِطَ لحظ المُريب   فان العيون وجوهُ القلوب
وطالعْ بوادرَه فى الـكلام   فانك تجنى ثمـار الغيوب

وقوله

من لي بقلب صِيغَ من صخرة   في جَسَد من لولؤ رطْب
جرحتُ خـديه بلحظى فما   برِحتُ حتى اقتص من قلبي

وقوله فى الضيف

ياطارقا فى الدجى والليل منبسط   على البـلاد بهيم ثابت الدِّعَم
طرقت بابَ غنى طابت مواردُه   ونائلا كانهمال العارض السجم

حكمُ الضيوف بهذا الربع أنفذُ من … حكم الخلائف آبائى على الأمم
فكل ما فيـه مبذول لطارقه … ولا زِمام له إلا على الحُرَم

وقوله

أهلا بفطر قـد أنار هلالُه … فالآن فاغدُ على الشراب وبكّر
وانظر اليه كزورق من فضة … قد أثقلته حَمولةٌ من عنبر

وقوله

انظر الى حسن هلال بدا … يَهتك من أنواره الحِندِسا
كمنجل قد صيغ من فضـة … يحصد من زَهْر الدجى نرْجسا

وقوله

ونسيم يبشر الأرض بالقط … ر كذيل الغِلاَلة (١) المبلول
ووجوه البـلاد تنتظر الغيـ … ـث انتظار المحب رَجْعَ الرسول

ويعد ابن المعتز من أفحل المترسلين وأكبر المصنفين ، ولولا انا نتعرض له من حيث انه شاعر لأتينا على بعض كتبه وفصوله التى سار بعضها سير الأمثال .

وديوان شعره طبع فى مصر فى جزأين . وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض وكتاب البديع وكتاب مكاتبات الاخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد وكتاب السرقات وكتاب أشعار الملوك وكتاب الآداب وكتاب حلى الأخبار وكتاب طبقات الشعراء وكتاب الجامع فى الغناء وكتاب أرجوزته فى ذم الصبوح

(١) هى الشعار الذى يلبس تحت الثياب مما يلى الجسد

الرواية والرواة

كانت العـرب أمة أميّة لم تخط آدابها وعلومها وآثار حياتها الفكرية فى كتاب . وانما كانت تحفظ ذلك فى صدورها ، ويرويه بعضها عن بعض ، حتى جاء الاسـلام فأتى بالأمر الخطير من القرآن الكريم وسـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فاتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شئ ، فمنهم من انقطع لرواية القراءات ، ومنهـم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهـم من انقطع لرواية أخبار الفتوح والسير وغير ذلك ، حتى دونت الكتب فى عصر الدولة العباسية ، فأفرغ الرواة ماحفظوه فى هذه الكتب خوفا عليه من الضياع . فكان عصرهم الأول عصر جمع وتدوين ، حتى جمعت كل هذه العلوم فى بطون الكتب . فأخـذ أمر الرواية يضمحل شيئاً فشيئاً فى أكثر العلوم لاسـيما الأدب . ثم اقتصر فى الرواية على تصحيح النطق والأداء ، فيقرأ التلميذ على الشيخ القرآن أو الحديث أو اللغـة أو الشـعر وهو يجيز له أداءها كما سمع

وكانت الرواية الشغل الشاغل للعلماء فى صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها وبذل الخلفاء المعونة لأربابها . فاندس بين الرواة كثير من الوضاعين ، فأدخلوا كثيرا من الرواية المكذوبة فى الحديث وغيره . واضطر العلماء الى البحث عن تمحيص الصحيح ، فعنوا شـديد العناية بتاريخ الرجال ومراتب

الأخذ عنهم ، وميزوا ما أمكن تمييزه من الموضوع .

ولكل علم رواة مشهورون . وقد سبق الكلام على رواة العلوم والفنون فى تاريخ وضعها . ونزيد هنا من ذكر بعض رواة الادب اذ كان هو غاية درسنا .

فمن رواة الأدب والشعر خاصة حماد الرواية الكوفى وخلف الأحمر البصرى وأبو عمرو الشيبانى الكوفى والسكرى البغدادى . ومن رواة الادب بجميع فنونه لغة وشعرا وأخبارا أبو عمرو بن العلاء وأبو عُبَيْدَة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى والأصمعى وأبو زيد الأنصارى وأبو عبيد القاسم بن سلّام ومحمد بن سلّام الجُمَحى وغيرهم . ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم فى الرواية وهو الأصمعى فنقول

الأصمعى

هو زينة الاسلام وحسنة الأيام وفخر العرب وشيخ رواة الأدب الامام الثَّبْت الحجة الثقة التقى أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن على ابن أصمع الأصمعى الباهلى المضرى البصرى . نسب الى جده أصمع . وولد سنة ١٢٣ هـ من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة منذ عثمان .

نشأ بالبصرة فأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمة البصرة . كأبى عمرو وشُعبة والحمادين وابن عون وعيسى بن عمر وأبى الخطاب الأخفش الأكبر ويونس والخليل وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون

البصرة . وأكثر الخروج الى البادية . وشافه الأعراب وساكنهم ، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم . حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب مالم يجتمع لغيره . وتسلم من خلف الأحمر نقد الشعر ومعانيه . وكان أحفظ أهل زمانه حتى قال مرة : انى أحفظ اثنى عشر ألف أرجوزة . فقال له رجل : منها البيت والبيتان . فقال : ومنها المائة والمائتان . وراجت بضاعة الأصمعى عند الرشيد ، وأخذ جوائزه الكثيرة . ورزق الأصمعي السعادة فى روايته الأخبار والمُلح دون أهل زمانه . فتهافت الناس على نقلها فى كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتسننه . وكان يُحجم عن تفسير القرآن الكريم والحديث تحرُّجا وخوفا من الزلل ، وكان الأصمعي مع كل صفاته الحسنة بخيلا مخشوشنا . وعمِّر حتى أدرك زمن المأمون ، وأراد المأمون أن يقدمه اليه فاعتذر بكبر السن ومات سنة ٢١٦ هـ

الأغانى والمغنون

لما اتسعت حضارة العرب بإرثهم تُراث الأمم المتحضرة قبلهم وتقلبهم فى نعمتهم أخذوا بمأخذهم من الترف والتمتع بالملاذ ، وكان من أجمل دواعى ذلك وأرقها الغناء ، ولكنهم لم يسترسلوا فيه دفعة بل تحرجوا فيه وتأثموا منه ابتداء . ومقتوا كل غناء فى خلافة معاوية وصدر بنى أمية . ثم رخصوا فيه قليلا ، حتى جاء الوليد بن يزيد . فخلع فيه العذار ، وأقدم المغنين اليه ، وأثابهم عليه بدر الاموال . وبقى أمر الغناء بعده فى تزايد حتى جاءت الدولة العباسية

فامتنع أوائلهم عن سماعه ، ثم ترخص فيه المهدى والهادى ، حتى انتهى الأمر فيه الى زمن الرشيد فمشش وأفرخ ، وكان للمغنين فى عصره حظ من جوائزه وهباته لم يكن لغيرهم . وعظم أمرهم ، ونبغ منهم فيه عدة طاولوا العلماء فى الأدب والعلم ، فشرف بهم فنهم . وصار فى عداد فنون الادب ، ولم تأنف الخلفاء وأولادهم عن تعلمه وحذقه . و بقى كذلك مدة قرنين من عصرهم ثم اضمحل أمره بالتدريج

واستمد العرب غناءهم من موالى الفرس . ثم تفننوا فيه ، واخترعوا فيه نغما كثيرا . وأشهر من نبغ فى عصر بنى أمية منهم مَعْبدَ وابن سُريج والغريض . وفى عصر بنى العباس ابرهيم الموصلى واسحق ابنه واسمعيل بن جامع ومخارق وابرهيم بن المهدى وكثيرون

وألف فيه الخليل واسحق وابرهيم بن المهدى وجحظة البرمكى كتبا حافلة واستقصوا فيه الفن من قواعد النغم واخبار المغنين والشعراء فحذف أبو الفرج الأصبهانى من كتبهم مايتعلق بقواعد الفن إلا قليلا . وألف كتابه الشهير فى مائة الصوت التى اختيرت للرشيد وهذبت فى زمن الواثق ، وذكر فيه الأصوات وقائليها ومغنيها بما لامزيد عليه .

ابرهيم الموصلى وابنه اسحق

فأما الاول فهو أبو اسحق ابرهيم النديم بن ماهان (ويسمى ميمونا) ابن بهمن الموصلى

وأصله فارسى انتقل أبوه من ارّجان الى الكوفة ، فولد له ابرهيم بها مات وهو صغير ، فرباه بعض بنى تميم بالكوفة . فنشأفيهم ، واشتهر بالموصلى وهو ليس من أهلها ، لأنه أقام بها مدة يتعلم بعض الألحان ثم قدم بغداد واتصل بخدمة المهدى والهادى والرشيد حتى مات ببغداد سنة ١٨٨ ﻫ بعد ان ملأ بغداد طربا وسرورا .

وكان ابرهيم أول من ألف من أنغام الامم المختلفة طريقة تناسب الأغانى العربية كل المناسبة ، وجوّدها وهذبها حتى صار نادرة زمانه .

وانتهت اليه الرياسة فى التلحين . وكان اذا غنى وضرب منصور المعروف بزَلْزَلْ اهتزّ لهما المجلس

وكان ابرهيم فوق شهرته بالغناء شاعرا أديبا ، يلم بكل شئ مستملح

اسحق الموصلى

وأما اسحق فهو أبو محمد اسحق بن ابرهيم المغنى الضارب الشاعر الأديب الراوية اللغوى الفقيه المحدث المستحق ان يقال فيه

هيهات ان يأتى الزمان بمثله ان الزمان بمثله لبخيل

ولد سنة ١٥٠ ﻫ ورباه أبوه تربية لم تتفق لأحد قبله ولا بعده ، أخذه بتعليم العربية من اللغة والنحو والشعر والأخبار والنوادر وسير الخلفاء وملوك العجم وعلوم الدين من الفقه والحديث ، حتى كاد يحسب من أئمتها

ثم وفره على تعلم اللحن والغناء ، وبذل فى ذلك عنايته . فخرج واحد

الدنيا فيهما ، وأربى على أبيه ، واخترع كثيرا من الألحان ، واختص بالخلفاء . وحظى عندهم وحملت اليه الألوف من أموالهم . فخدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق

وكان له مع ابرهيم بن المهدى مناقضات ومنافسات فى تلحين الاصوات كان يظهر الموصلى فى أكثرها عليه مع توقيره وتكريمه .

وكان المأمون يقول لولا ماسبق لاسحق على ألسنة الناس ، واشتهر بالغناء لوليته القضاء

وكان الغناء أقل مايعرفه . واشتهر به لأنه لم يكن له نظير فيه . وله شعر رقيق ، فراجعه ان شئت فى الأغانى .

ومن مطالعه قوله

هل الى ان تنام عينى سبيل ان عهدى بالنوم عهد طويل

وله كتاب الأغانى جمع فيه الأصوات المعروفة فى زمنه وأخبار الشعراء والندمان . وعمى فى آخر عمره ومات سنة ٢٣٥ هـ



العصر الثانى

من عصرى آداب اللغة العربية فى الدولة العباسية

وقوف التقدم فى بلاغة اللغة وآدابها واستمراره فى العلوم والتأليف

غلبة الديلم على بغداد وانقسام الدولة العباسية الى ممالك

سنة ٣٣٤ هـ — ٦٥٦ هـ

كانت اللغة العربية ضاربة بجرانها غالبة على ألسنة أمم المشرق والمغرب مدة ارتفاع شأن الدولة العباسية ونفوذ سلطان خلائفها . وذلك يقرب من قرنين . وهو ماسميناه العصر الأول من زمن الدولة العباسية ، وهو زمن التقدم والانتشار . ثم ضعفت شوكة الخلفاء بضرب مماليكهم من الترك على أيديهم وتداخلهم فى تدبير الدولة وسياستها مع جهلهم وخرقهم ، فاضطربت المملكة . ورأى كل ذى قدرة أن الأمر خرج من يد الخلفاء ، فاستبد بناحية مع الاعتراف للخليفة بالخلافة . وتبجح من هؤلاء المستبدين آل بويه فخرجوا على الخلفاء وأخذوا بلاد فارس والجزيرة ، ثم استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ ورتبوا للخليفة مرتبا يكفيه لقوته وأهل بيته ، وصاروا هم فى الحقيقة ملوك بغداد .

ولما رأى ذلك بقية الولاة والقواد أوهنوا صلتهم ببغداد ، وأنشئوا ممالك مستقلة . فكان فى شرق خراسان دولة آل ساسان ببخارى ، ثم ملوك الغزنوية بغزنة ، و بفارس والجبل جملة أمارات لآل بويه ، و ببغداد وشرق الجزيرة

متغلب منهم ، و بغربى الجزيرة وحلب آل حمدان ، و بالشام ومصر آل الاخشيد ثم الفاطميون . ثم ضعف شأن آل بويه والملوك الغزنوية وحل محلهم آل سلجوق ، واتسعت ممالكهم واشتق منها عدة ممالك وأمارات من أحفادهم ومماليكهم وقوادهم كالدولة الخوارزمشاهية بالشرق والأرتقية بالجزيرة والأتابكية وغيرها بالجزيرة والشام ، حتى جرف سيل التتار الجميع خلا فلسطين ومصر ، ودخل طاغيتهم هولاكو بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦ و بذلك زال سلطان العرب من المشرق زوالا امتد الى عصرنا هذا

ولما كانت هذه الممالك كلها أعجمية خلا دولة آل حمدان بحلب والفاطميين بمصر ، وكان لتغلب العناصر الأعجمية تأثير فى الجملة فى حالة اللغة العربية وآدابها ، ناسب ان نقسم كلامنا فى هذا العصر الى قسمين

(١) حالة اللغة العربية وآدابها فى الممالك المشرقية

(٢) حالة اللغة العربية وآدابها فى ممالك المغربية . غير ان البحث فى أحوال اللغة ببعض ممالك المغرب كالاندلس وشمال افريقية من مقرر السنة الرابعة .

أولاً حالة اللغة والأدب بالمشرق (١)

فتح العرب أواسط آسيا وورثوا فيها ملك دولة عريقة فى القدم ذات حضارة راسخة ونظام مؤثل ولغة منتشرة ودين مديد وعصبية للجنس ، هى

---

(١) نريد بالمشرق هنا البلاد التى شرقي دجلة الى الهند والصين والترك ويضاف اليها العراق

دولة الفرس . وكل هذه الأمور قوى عظيمة يقاوم بها المغلوب سلطان الغالب عليه القاهر له ، وتحمِلُ الغالبَ أن يعمل بحذق ودأب على اخماد هذه القوى المعنوية فوق اخماده القوى الحسية

ولذلك كان أواسط آسيا مجال نضال دائم بين الفرس والعرب ، فقد حاول الفرس استعادة ملكهم بجميع هـذه القوى . وابتدءوا بالقوة الأولى الطبيعية وهى قوة السيف ، فخابت تجربتهم مرارا ، وأصبح النزال بين الأمتين قاصرا على مغالبة كل منهما للأخرى بما عندها من هـذه القوى المعنوية . ولمتانة دين الاسـلام وعظمة اللغـة العربية غلبت العرب أيضا بدينها ولغتها فنُسخت المجوسية وأمحت آداب اللغة الفارسية ، وما بقى منها نقل الى العربية ، وامتزجت حضارتا الأمتين فلم تعودا موضع نزاع . وبقيت العصبية الجنسية والحمية الوطنية رغم كل هذه الحوادث راسخة فى رءوس دهاة الفرس وسلائل ملوكهم ، يتوارثونها خلفا عن سلف ، حتى اذا فترت عصبية العرب بالمشرق ، وبادت عناصرها فيه ، أو اندغمت لقلتها فى العناصر الوطنية بالتزاوج والتناسل هبوا ينشئون ممالك وأمارات وطنية على أديم مملكتهم القديمة . ولـكن عملهم جاء متأخرا جدا ، فما استعادوا بعض ملكهم حتى وجدوا الاسلام قد نسخ دينهم ، والعربية هضمت علومهم وآدابهم بما لا يمكن مقاومته بحال من الأحوال . فلم يسعهم إلا أن يخضعوا للخليفة الشرعى الواجب طاعته واستمداد الحـكم منه

وشرعوا فى تجديد آدابهم بلغتهم ونقل علوم الاسلام اليها ، فنجحوا فى الأولى بعض النجاح ، وأخفقوا فى الثانية ، إذ كان ذلك يستدعى وضع كثير من

الاصطلاحات والرجوع الى الاحاطة بلغة قديمة كانت قد نسيت أو كادت ، وخلفتها عامية لاتنهض بمثل هذا العمل العظيم ، فضلا عن أن علوم الاسلام مستمدة من القرآن والحديث ، وهما فى قمة اللسان العربى ، وان الرابطة بينهم وبين الخليفة وبقية الممالك الاسلامية لا تكون إلا باللسان العربى

ولذلك لم تجد هـذه الممالك المستقلة بدًّا من اتخاذ العربية لغة الدين والعلم والأدب والسياسة دهرا طويلا وزادها فى ذلك رغبةً استيلاء أكثرها على مقر الخلافة ومنازعة الخليفة السلطة فيها وغلبتها على بعض البلاد العربية كالعراق والجزيرة . وطاول ملوكها الخلفاء فى كل شئ من تعلم العلم والأدب والفصاحة ، ونافسوهم فى اقتناء الكتب وتقريب العلماء اليهم ونفحهم بالمال العظيم واتخاذ الوزراء ورؤساء الدواوين من عِلْيَةِ الكتاب وفحول البلغاء .

وقصارى القول ان العربيـة بقيت غالبة على أكثر مرافق هذه الدول إلا السنة العامة كما سيأتى بيانه

التغيرات الطارئة على اللغة فى هذا العصر بممالك المشرق

ترجع هذه التغيرات

(أولاً) الى مبلغ سلطتها ومواطن تداولها وعدد المتكلمين بها

(ثانياً) الى الاغراض التى كانت تتناولها وتتسع لها

(ثالثاً) الى المعانى الفكرية والخيالية والوجدانية التى كانت تخطر للبلغاء والعلماء العارفين بها

(رابعاً) الى الالفاظ والعبارة والاسلوب .

فأما الامر الاول (وهو مبلغ سلطة اللغة وامتدادها) فقد تقلص سلطانها في أرجاء القاصية ، وقل عدد المتكلمين بها من العامة والدهماء بجلاء العناصر العربية منها أو اندماجها في غيرها ، بحيث لم يمض قرن من هذا العصر حتى كانت اللغات الوطنيـة الاعجمية لشعوب المشرق هي اللغات المتـداولة في التفاهم والتعامـل . و بقيت العربيـة الفصحى مستعملة في رسوم الدول وفي تفاهم الخواص في بعض الاحوال ، إذ كان جل ملوك المشرق وقتئذ يجيدون العربية والفارسية ولسانهم الوطني ان لم يكونوا فرسا ، ويلمون بآداب العرب والفرس ، بل كان كثير منهم شعراء بالعربية والفارسـية . وكانت الآداب الفارسـية تلي العربية عنـدهم في المنزلة والكرامة . وحاول كثير من ملوك المشرق ولا سيما ملوك القاصية كالسامانية والغزنوية أن يستعيدوا مجد اللسان الفارسي ، و ينقلوا اليه علوم الاسلام والعلوم التي نقلت اليه فعز عليهم ذلك . وغاية ما أمكن علماءهم وشعراءهم احياء شئ من الادب والتاريخ ، اذ لم يكن بهما حاجة شـديدة الى الاوضاع العربية واصطلاحها ، كما فعل ذلك الامير أبو الحسن نصر الساماني أمير بخارى وخراسان ، فانه أمر أحـد علماء عصره فنقـل كتاب كليلة ودمنة الى فارسـية زمانه ، ونظمه شاعره رودكى حسن بالفارسية أيضا ، وكذلك أمر بهرام شاه بن مسعود الغزنوى أبا المعالي نصرالله ابن محمد بن عبد الحميد بنقل هذا الكتاب الى الفارسية من نسخة ابن المقفع نفسها ، فأغرب فيها وتنوق ، فجـدد الترجمة بعـده المولى حسن الكاشفي

سهيلي وسماها أنوار السهيلي

وأمر نوح بن منصور الساماني شاعره الدقيـقي بنظم الشاهنامة في تاريخ الفرس ومفاخرهم وأيامهم ومبلغ عظمتهم. فنظم شيئاً منها وقتل، وأهمل أمرها وزالت دولتهم. ومن الغريب ان السلطان محمود الغزنوي التركي بذل جهده في اتمامها، فنظمها له الفردوسي في ستين ألف بيت ابتعد فيها عن الالفاظ العربية كل الابتعاد. وهي عندهم قرآن اللغة الفارسية في الفصاحة. وهكذا كان ملوك المشرق من غـير الفرس كالدولة الغزنوية والسلجوقية أشد عصبية وانتصارا للفارسـية من أهلها، ولعلهم كانوا يتحببون بذلك الى رعاياهم، اذ كان جلهم من الفرس، والتركية يومئذ ليست لغـة علم ولا أدب. فما زالت سلجوقية المشرق وملوك خوارزم يعملون على احياء الفارسـية وآدابها ونقل العلوم اليها حتى أوشكت تزاحم العربية قبيل غارة التتار،

فلما خرج هؤلاء من صحراء المغول اكتسح سيلهم في طريقه أثر العربية وهاض الاسلام الى مابه، وأحرقوا الكتب، وقتلوا العلماء فكان ذلك آخر العهد بامتداد سلطان العربية السياسي بالمشرق، وبقي لها بعض السلطة الدينية والعلمية بين العلماء خاصة حتى عصرنا هذا

وأما الامر الثاني (وهو أغراضها) فقد بقيت كما كانت في أواخر القرن الماضي أكثر من نصف قرن مدة عظمة الدولة البويهية والسامانية أو زادت اذ كانت الاولى منهما تدخل في حوزة بعض ملوكها بغداد والعراق وأكثر الجزيرة وهي بلاد عربية. والثانية تدخل في حوزتها بخاري ومدن خراسان

العظيمة ، وكانت آهلة بأهل العلم . وكانت ملوك هاتين الدولتين يباهى بعضهم بعضا بتعضيد العلم وترغيب العلماء والادباء والمؤلفين والاطباء وكل ذى براعة فى صناعة فى خدمتهم نفاسة على خلفاء بغداد ومصر ان تستأثروا بمنقبة تُرغِّب فيهم أهلَ الفضل فوق منقبة النسب

ولما خَفَتَ صوتُ هاتين الدولتين فى المشرق ، وورثتهما الغزنوية والسلجوقية وهما تركيتان متصبغتان بصبغة الفرس ، وكان أمر خلفاء بغداد ومصر قد هان ووهن وأحس الرعايا من الفرس والترك باستقلال جنسهم ورفع يدى خلفاء العرب عن السيطرة عليهم وتولى زعامتهم السياسية والدينية ، فشت بالتدريج العصبية الجنسية بين هذه الامم بسعى الملوك وأهل السياسة المتعصبين ، فتناقصت أغراض اللغة العربية وموضوعاتها فى الآداب ، وزادت فى العلوم ، اذ كانت الاولى فى غير حاجة الى مواضعة واصطلاح ، والثانية لا تستقل بها لغة الا بعد مدارسة ومواضعة وعناء كثير عدة قرون

فنشأ فى هذه المدة كثير من شعراء الفرس وأدبائهم نظموا القصائد الطنانة والمقطعات الجميلة بلغتهم ، وثنّوا بترجمة كثير من كتب الآداب والحكمة والاخلاق بلغتهم وخاصة ما كان منها فارسى الاصل

وزادت موضوعات العلوم على العصر الماضى علوم السياسة والعمران وتدبير الممالك والمنازل والاقتصاد وفنون الحرب وآلاته ، وتعددت رحلات العلماء والسُّيّاح فكتبوا كثيرا من أخبار المسالك والممالك ، وفره بذلك علما الجغرافيا والتاريخ ، وشرحت العلوم الدخيلة وفصلت وكملت ، وأضيف اليها

كثير من استنتاج علماء المسلمين ، وتألفت شوارد الكيمياء وصارت علما متميزا ، فتقدم بهذه الاعمال العظيمة الطب والفلك وعلوم الحكمة والكلام والمنطق وألفت فيها كتب كثيرة ، وكان للفارابى وابن سينا والرازى فى أواخر العصر الماضى وأوائل هذا العصر أبقى أثر فى ذلك كما سيأتى بيانه

أما العلوم اللسانية والشرعية فلم يحدث فيهما وضع جديد الا تكملة بعض الفروع واختلاف فى المذاهب وكان أوفرها نصيبا من عناية الباحثين علما البلاغة لا المعانى والبيان ، فقد صارا علمين مستقلين فى هذا العصر باجتهاد عبدالقاهر الجُرجانى والسَّكّاكى والزمخشرى . وتفرعت مباحث علم الاصول والتفسير

والخلاصه أن حظ العلم فى الممالك المشرقيه بعد القرن الاول من هذا العصر كان أعظم من حظ الادب ، لان العلوم صناعات ذات أثر عملى سريع فى تقدم الممالك واستيفاء عدتها ومرافقها ، فكانت أولى بالعناية والتأييد ، ويضاعف فى هذه العناية قيام كثير من دول المشرق فى آن واحد أو فى أزمان متتاليه ، وكل دولة جديدة تحتاج فى تأييد حضارتها وملكها الى اصطناع أهل الذكر فى العلوم الصناعيه

أما الآداب فآثارها نفسيه تكفى فى بَثِّها لغة الوطن ، بل ربما فضلت غيرها فيه

ولولا بسطه الاسلام ونشر لوائه وعلومه وقرآنه على هذه الارجاء للحقَ لغةَ العلوم مالحق لغة الادب

وأما الامر الثالث (وهو المعانى الفكرية والخيالية وغيرها) فقد بقيت كما كانت عليه فى العصر الأول مطردة فى طريق النظام والترتيب والاختراع والتوليد فى كل شئ علما وأدبا أكثر من نصف قرن لنضج بقية ما غرس فى العصر الماضى ، ولتنافس الممالك المتشعبة فى الاختصاص بالعلماء والأدباء، ولينع العلوم اللسانية والشرعية والعقلية (من العلم الرياضى والطبيعى والالهى والمنطق) والعلوم العمرانية (من التاريخ والجغرافيا والسياسية وتدبير المنزل والاقتصاد) مما كان له أبلغ تأثير فى ترقية الفكر والخيال والوجدان ورقة معانى اللغة فى مبدأ هذا العصر ، وجعل لها ميزانا وقياسا يعرف به صحيحها من فاسدها ويستنبط معلومها من مجهولها ، ولما استنبطه مجتهدو المذاهب وابتدعه علماء الكلام والفلاسفة والأطباء كالباقلانى وامام الحرمين والغزالى والفخر الرازى والفارابى وابن سينا وأبى بكر الرازى، وابتدعه المتنبى وأبو العلاء المعرى فى الشعر واخترعه ابن العميد والصابى والبديع والخوارزمى والحريرى فى الكتابة. كل أولئك كان ثمرة ذلك الغراس. ثم تقاصرت الهمم فى العلوم والأدب وقلت عناية الملوك والرؤساء باستجادتها ،وشغل الناس عنها بتفاقم الفتن وانتشار الهرج فى الشرق الاقصى واغارة الصليبيين بالشرق الادنى، فخمدت جذوة العقول، وفترت حركة الخيال، ووقفت الاستزادة فى العلوم بالابتكار والاختراع ،واعيا الادباء من الكتاب والشعراء تصور المعانى الفخمة ، فأربوا على من سبقهم فى المبالغة الممقوتة ، وراقهم زبرج اللفظ حين فاتهم شرف المعنى

وأما الامر الرابع (وهو لفظ اللغة وأسلوبها) فقد هجر استعمال الغريب

بالتدريج وزاد استعمال الألفاظ الفارسية فى أوائل هذا العصر، ثم دخل اللغة كثير من الألفاظ التركية، ونسيت بالتدريج الاساليب البليغة والعبارات الحصيفة، وزاد استعمال الصناعة اللفظية البديعية، فكان للسجع والطباق والجناس والاستعارة الغلب على كل مقال خطابة وترسلا وشعرا، بل تتطرق الى كتب العلم. وازداد الترسم للالقاب والعنوانات واصطلاح العلوم والدواوين ونحو ذلك، وغلب على العلماء استعمال العبارت المنطقية أو الجدلية فاضطروا الى اختصار البرهانات والأقيسة، واعتاصت عبارة العلم على الناشئين بل على الشداة ولا سيما علوم الكلام والاصول والفلسفة

النثر

لغة التخاطب أو العامية

كانت لغة تخاطب الخاصة من الخلفاء والرؤساء والعلماء وسطا بين الفصيحة وعامية زمانهم لقلة أخذهم باللغة الفصيحة من صغرهم، إذ كان القيّم على الخليفة وأهل بيته من الديلم أو الترك أو النساء وأ كثرهن من جوارى القصر، ولان أ كثر الرؤساء كان من الأعاجم الذين لم يغلبوا على السلطان الا بالقوة والاغتصاب لا بعلم ولا حسن تربية. والناس على دين ملوكهم

وكانت لغة تخاطب العامية فى شرق خراسان وفارس الى مسقى دجلة اللغات الأعجمية الوطنية لهذه الارجاء، وأهمها الفارسية الحديثة لانقراض العناصر

العربية من بين العامة باندماجها فى غيرها وفشو الجهل فيها المبيد لكل عصبية والمنسى لكل منقبة

وقد قصد أبو الطيب المتنبى عضد الدولة بفارس فما هو الآن زايل بغداد حتى وقع فى عجمة لا افصاح معها ، فذلك حيث يقول

مغانى الشّعب طيباً فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربىّ فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جِنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

الخطابة

قد أهمل شأن الخطابة منذ أواسط العصر الأول ، وقصرت على خطب الجمع والعيدين والنكاح أو قراءة كتب الفتوح والمناشير على الجمهور ، ومع اضمحلال أمر الخطابة فى أواخر العصر الماضى كان كثير من الخلفاء وأفاضل الولاة يلون خطب الجمعة والعيدين بأنفسهم الى زمن الخليفة الراضى المتوفى ٣٢٩ هـ فكان آخر خليفة خطب كثيرا على منبر وآخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة جالس العلماء وكان نظامه فى ملكه وبيته على نظام الخلفاء السابقين . فلما استولت الديالم على بغداد بعد موته بقليل كفوا يد الخلفاء عن كل شئ ، وقصروهم على منازلهم ، وتولى كثير من الاعاجم الولايات ، فلم يكن لهم ان يلوا الخطابة بأنفسهم ، فعهدوا بها و بالامامة الى العلماء القادرين عليها ، وجرى على ذلك سلاطين السلجوقية ، ولذلك لم يكن يليها منهم الا أدباء العلماء

و بلغائهم . واشتهر من هؤلاء كثيرون غلب عليهم اسم الخطيب كخطيب الرى والد الفخر الرازى والخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد والخطيب التبريزى وغيرهم

الكتابة

سارت الكتابة على نحو ما وصفنا فى العصر الماضى الى قبيل انصرامه ، فأخذت تنحو بالتدريج مَنحىً خاصا فى كل شئ من تنوع عباراتها بتنوع موضوعاتها وترسم آثار النظام والتقسيم والتفصيل فيها وترجيح كفّة اللفظ على المعنى ، وذلك بعد ان نضجت العلوم و وضعت اصطلاحاتها وتميزت مسائلها واضطلع بها كثير من ناشئ الاعاجم وقلت المراقبة عليها من العناصر العربية سامة وعلماء . اذ كانت العناصر الفارسية شرعت فى الاستقلال بحكومتها وعاداتها ونزعاتها ، فأثر ذلك فى الكتابة تأثيرا ظاهرا اشتد أمره باستيلاء الديالم ثم السلاجقة على ما بقى فى يد خلفاء العرب من النفوذ فصار لكل علم كتابة خاصة تباعدت عن غيرها كلما طال الزمان .

ولما كانت الكتابة الادبية من الرسائل والاخبار والقصص مثارا للخيال ومظهرا لحركات الوجدان والشعور ومرآة لما يجيش في الانسان من الرغبة والميل والاخلاق اختلفت كل الاختلاف بجميع المؤثرات التى أحدقت باللغة . وما جاء العصر الثانى حتى كان لها صبغة تختلف كل الاختلاف عن صبغتها فى أوائل العصر الماضي وخاصة كتابة الرسائل

كتابة الرسائل

كانت كتابة الرسائل فى هـذا العصر ببغداد ومـدن العراق وممالك المشرق الاسلامية جميعها باللغة العربية الا قليلا من أمارات القاصية فى أواخر هذا العصر فقد استعملت فيها الفارسية أو التركية بحروف عربية

وكان فى كل مملكة جملة من أفاضل الوزراء والـكتاب ورؤساء الدواوين يلقب كل منهـم (بالشيخ) فى شرق خراسان وخوارزم و (بالاستاذ) أو (الرئيس) بفارس وما يليها

ومما امتازت به كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازا ظاهراً لزوم السجع القصير الفقرات لاسيما الرسائل السلطانية ، واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع من غير افراط ، واستخدام معانى الشعر وألفاظه فيها بحـل الابيات السائرة والحـكم المأثورة حتى كادت الرسائل تكون شعرا منثورا . وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والامراء والتهويل بشأنهم ، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الافذاذ من أبيات الشعراء . ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم هـذه الطريقة من الفرس وهم أميل الناس الى الحلية اللفظية والغـلو فى عبارات التمجيد والتعظيم . فنقلوا طرق الفرس الى العربية ، وحاكاهم فيها كتاب سائر الاقاليم حتى الأندلس وسرت عـدواها من الرسائل الديوانيـة الى كتب التأليف ، فكتب العتبى تاريخـه اليمينى سجعا وحاكاه العماد الـكاتب من كتاب دول الجزيرة والشام

فى تاريخ . السلجوقية والفتح القدسى كما سيأتى

ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه وحسن استعماله فى مواضعه وجمال أسلوبه ، غير أن هذه القيود والاغلال التى كبلت بها الكتابة عاقتها أن تمثل للقارئ اغراض الكاتب واضحة جلية كاملة نافذة الى خاطره من أقرب الطرق وأقومها كما هو الشأن الطبيعى فى الكتابة ، وتتجلى هذه الطريقة بأكمل صفاتها فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ومقامات الحريرى

وكانت هذه الطريقة تكون غير منهكة لقوى البلاغة لولم يستشر داؤها ويسوء استعمالها بعدعصر الذين انتحلوها ، اذ لم يكن من بعدهم على مثل سننهم فى الاحاطة باللغة وعلومهاوتربية ملكتها ، فاخطئوا التقليد فى اللفظ كما حرموا الاجادة فى المعنى

ومما زاد فى اسلوب كتابة الرسائل فى هذا العصر العدول عن ذكرصريح أسماء الخليفة والرؤساء والقابهم الى الكناية عنها فيكنون عن الخليفة (بالحضرة المقدسة النبوية) أو (السدة النبوية) أو (الخدمة الشريفة) أو (الديوان الشريف) أى ديوان الانشاء ونحو ذلك ويكنون عن الوزراء (بالحضرة الوزيرية) ونحوها ناسبين الى نفس الالقاب . وأول من سن ذلك أبو الحسن على بن حاجب النعمان الكاتب وشاعت هذه الطريقة بعده في سائر الممالك وازالت بهجة البلاغة العربية

ومن الامور التى زادت على موضوعات كتابة الرسائل فى هذا العصر احلالها محل الشعر فى المناقضة والمفاخرة والمهاجاة والملاحاة والمعاياة وكان

البديع والخوارزمى فيها فرسى رهان

كتاب الرسائل

كان كتاب الدولة البويهيـة فى بغـداد وفارس ولواحقها من أفضل كتاب الارض مثل الصابى وابن العميد وابن عباد . و يعد فى زمرة هؤلاء بعض من اختلف في التصرف بين الدولة البويهية والسامانيـة ثم الغزنوية مثـل الخوارزمى و بديع الزمان والعتبى

ونذكر بعض أخبار هؤلاء الـكتاب فنقول

ابن العميد

هو الاستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم والملقب بالجاحظ الأخير

وهو فارسى الاصل من أهل مدينة (قُمّ) وكان أبوه كاتبا مترسلا بليغا تولى ديوان الرسائل لنوح بن نصر السامانى ملك بخارى

ونشأ له أبو الفضـل شغوفا بتحصيل العلوم العقلية واللسانية ، فبرع فى علوم الحكمة والنجوم ونبغ فى الادب والـكتابة نبوغا جعله واحـد عصره . فـكان يقال (بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد)

ولما صلبت قناته ، وكملت أداته ، لم تتسع بخارى له ولأبيه ، فأقام ببلاد الجبـل من ملك آل بويه ، وتقلد شريف الاعمال فى دولتهـم ، وما زال

تترقى به الحال من حسن الى أحسن حتى تولى وزارة ركن الدولة بن بويه الديلمي أبي عضد الدولة بعد موت وزيره أبي على القُمّى سنه ٣٢٨ هـ فساس دولته ووطّد أركانها ، وتشبَّهَ بالبرامكة ، ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وكان له مشاركةٌ معهم فى كل شيءٍ ، ما عدا الفقه (ولذلك كان يتهمه الفقهاء بأنه كان يرى رأي الأوائل من اليونان) فانتقل اليه أهل الأدب من بغداد والشام ومصر وكان ممن قصده أبو الطيب المتنبى بعد صدوره عن كافور الاخشيدى ، فمدح عضد الدولة ومدح ابن العميد بقصيدته المشهورة التي أولها

بادٍ هواكَ صبرتَ أم لم تصبِرا ... وبكاكَ ان لم يجر دمعُك أوجرى

وفيها يقول

مَنْ مبلغ الاعرابِ انى بعدَها ... شاهدتُ رسطاليس والاسكندرا
ومَلِلْتُ نحرَ عِشارها فأضافنى ... من ينحرُ البِدَرَ النضارَ لمن قرى
وسمعتُ بطليموس دارسَ كتبه ... متملّكا متبدياً متحضرا
ولقيتُ كلَّ الفاضلينَ كأنما ... ردّ الالهُ نفوسهم والاعصرا

وكان الصاحب بن عباد ممن ينتجعه ويلازم صحبته فى أول أمره وبذلك لقب الصاحب وله فيه مدائح طنانه

وما زال فى وزارته نجعة الرائد وقبلة القاصد حتى توفى سنة ٣٦٠ هـ

منزلته فى الكتابة — يعتبر ابن العميد فى الرسائل البديعية المسجوعة عميد رُفقته وضليع حَلْبته، وكلهم كارع من حياضه، قاطف من رياضه ، ان لم يكن

باقتباس منه فبالمشاكهة له . غير أنه كان أقلهم التزاما المسجوع ، وأقربهم الى الارتجال المطبوع . وكان كثيرا مايجعل فقر رسائله أبياتا منثورة ، ويلمح فيها الى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة ، فكان له منها فصول سائرة ومعان نادرة . ويكفيه فضلا وشرفا أن يكون الصاحب بن عباد من جملة مادحيه وفى عداد متخرجيه

فمن رسائله الى عبد الله الطبرى

كتابى اليك وأنا بحال لولم ينغصها الشوق اليك ، ولم يرنق صفوها النزوع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح ، لكن مابقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك . وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظم لشمل أنسى ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما ، فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك . فان كان كذلك والا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى

وله رسائل مطولة جدا يضيق المقام بنا عن ذكر بعضها

الصاحب بن عبّاد

هو كافى الكفاة أبو القاسم اسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه وكاتبهم واحد المذيعين للسجع والجناس بين الناس

ولد سنة ٣٢٦ هـ بطالقان قزوين . وكان أبوه عباد الملقب بالامين عالما معتزليا دينا خيّرا مقدما فى صناعة الكتابة . ونشأ على مذهبه ومذهب آل بويه فى التشيع لعلى كرم الله وجهه الى حد الغلو . ولما جرى قلمه بالكتابة اتصل بابن العميد شابا فلزم صحبته وأخذ الأدب عنه ، ولم يكن يرى رأيه فى اعتقاد مذاهب الأوائل ومزاولة كتب الفلسفة والنجوم ، فولاه ابن العميد كتابة خاصته . ولما استَحصفت صناعته وقَوِيت شكيمته ، ترقّت به الحال حتى كتب لمؤيّد الدولة ، وهو يومئذ أمير ، وأحسن خدمته . فلما وُلّىَ الملك استوزره بعد قتل وزيره أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد ، فحكمه فى أموره وأمواله حتى مات مؤيد الدولة وولى أخوه فخر الدولة مكانه ، فأقر الصاحب على وزارته . وبقى مُبَجّلاً عنده نافذَ الأمر حتى مات بالرّى سنة ٣٨٥ هـ ونقل الى أصبهان ودفن بها (١)

منزلته فى الكتابة — : يعد ابن عباد ثانى ابن العميد فى حلبته ، وأبلغ

(١) قدمنا ترجمة الصاحب على ترجمة الخوارزمي مع تأخر وفاة الصاحب لمابين ترجمتى الوزيرين من التناسب والمشابهة

من سلك طريقته غير انه أولع بالسجع والجناس، وكانَ تّياها شديد العُجْب بنفسه . ومجلسه آخر مجلس لوزير جمع بين العلماء والقراء والكتاب والمصنفين والمتكلمين والشيعة ، وكان لهم منه حظ موفور ، ولسان شكور

وله جملة مصنفات منها كتاب فى اللغة سماه المحيط فى سبع مجلدات ، وكتاب الأمالة ، وكتاب الكشف، عن مساوي المتنبي ، وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول وكتب أخرى كثيرة

وله فصل من رسالة بعث بها الى ابن العميد جوابا عن كتابه اليه فى وصف البحر

وصل كتاب الاستاذ الرئيس صادرا عن شطّ البحر بوصف ماشاهده من عجائبه ،وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتْها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب النـاس أشباحها ، والخوف برأىً ومسمع ،والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهُلك ، اذا فكروا فى المكاسب الخطيرة ، هان عليهم الخطَر ، واذا لاحت غرَرالمطالب الكثيرة ، حُبب اليهم الغرَر ، وعرفت ماقاله من تمنيه كونى عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحرالاستاذ كيف يَزخَر بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يَعْتِب على الدهر فيما يُفيتهُ من منظار البحر ، ولا فضيلة له عندى أعظم من اكبار الاستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لاشئ أبلغ في مفاخره ، وأنفس فى جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فانى قرأت منه الماء السّلسال لا الزّلزال والسحر الحرام لا الحلال . وقد

علمت انه كتب ولم يخطر بفكره صحة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا ينفصل عن التبرض، وثمدا لا يكثر عن الترشف

وكم من جبال جئت تشهد انك ا جبال و بحر شاهدانك البحر

أبو بكر الخوارزمى

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر العالم اللغوى الأديب النحوى الاخبارى ، الرحالة فخر خوارزم و بليغ المشرق وصاحب الرسائل المشهورة

أصل آبائه من طبرستان ، وولد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها. وكان بحرا زاخرا فى كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ودخل الأمصار فى طلب العلم والادب ، وتقلب فى خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، ولقى سيف الدولة وخدمه بالشام ، ثم شرّق الى بخارى ونيسابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فكان من جملة المختصين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصدر عنه بالأموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، وأقام بها للاملاء والتدريس، فنُكب نكبة سجن فيها ، وفر الى ابن عباد ، ثم عاد الى نيسابور ، قال الثعالبى (وطاب عيشه بها الى أن رمى فى آخر أيامه بجحر من البديع الهمذانى وبُلىَ بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، وأعان البديع عليه قوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وأنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديدا، وكسف باله، ولم يحل

عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ

ومنزلته فى الكتابة لا تنكر ، ويمتاز عن ابن عباد بجزالة اللفظ وفخامته وكثير من الناس يفضله على ابن عباد ، وذلك ما أراه ، ويمتاز البديع عنه برقة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، وله فى ذلك رسائل بديعة ، وله ديوان رسائل طبع فى الاستانة وغيرها فراجعه أن شئت الاطلاع على رسائله البليغة المطولة

ومن قصار رسائله ما كتبه الى تلميذ له

ان كنت أعزك الله لاترانا موضعا للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزاره ، وان كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيحُ الطبيب بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تُعيّره عزله ، ولولم تزرنا الا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلا صائبا ، وفى القياس واجبا

بديع الزمان الهمذانى

هو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيي بن سعيد الهمذانى الكاتب المترسل والشاعر المبدع حافظ عصره وذكى دهره وقدوة الحريرى فى انشاء المقامات وقريع الخوارزمى فى المبادهات والمكاتبات

نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره وورد على

الصاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالادب فاقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامه فى الجد والهزل نحلها أبا الفتح الاسكندرى محدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته واحتذى حذوها ، واعترف بفضل السبق له ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريحه وبعد صيته ، اذ لم يكن فى الحسبان أن أحدا يجترئ على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهذا قوم وتعصب لهذا آخرون ، واتفق ان مات فى أثناء ذلك خصمه ، فخلا له الجو عند الملوك والرؤساء ، وتجول فى حواضرهم

فلم يبق بلد فى خراسان الا دخله الى أن ألقى عصاه فى هراة ، وصاهر أحد أعيانها من العلماء ، فطاب عيشه ونعم باله ، ولكن المنيه عاجلته وهو فى سن الاربعين سنة ٣٩٨

قيل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسَّكْتة ، وعجل دفنه ، فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل . وانه نُبش قبره فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات من هول القبر

منزلته فى الكتابة — : كان البديع أسرع أهل زمانه بديهة ، وأكثر شعره وكتابته مرتجل وكانت عبارته سهلة لينة قصيرة السجع ، تشهد عذوبة لفظها وتدفق جملها بان صاحبها قالها طبعا من غير أن يكدح خاطرا أو يتعمد صناعة ، ولا غرو فقد قيل : انه كان يلقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعرا الى العربية ، وكان لجريان طبعه وتوقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد أن

يكتب الكتاب الذى يقترح عليه ، فيبتدئ بآخر سطوره ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شئ وأصلحه

ومن رسائله يعزى بعضهم اخوانه عن أبيه

ويحذره التبذير والتقتير

وصلت رُقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغىّ ، وقد مات الميت فليحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد موّلك بما ألف بين سُراه وسَيرِه ، وخلّفك فقيرا الى الله غنيا عن غيره ، وسَيَعْجم[1] الشيطانُ عودك ، فان استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أُتلفَ بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحَباب[2] والاحباب ، والعيش بين الاقداح[3] والقداح[4] ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فان أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغدا فى الخراب ، واليوم واطرابا للكاس ، وغدا واحربا من الأفلاس ، يامولاى ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقرًا ، ويسميه العاقل فقرا ، وكذلك المسموع فى الناى هو الآن فى الآذان زَمْر ، وغدا فى الابواب سمر[5] فان لم يجد الشيطان مغمزا فى عودك من هذا الوجه ، رماك بقوم يمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرسك ،

(١) سيجرب (٢) فقاقيع الخمر (٣) جمع قدح وهو للخمر (٤) جمع قدح وهو للميسر (لكل آلة لعب له) (٥) اقفال وتسمير للابواب

وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ، ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلا عن الفريقين لا منع ولا اسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وانما يبخل المرء خيفة ماهوفيه ، فليكن لله فى مالك قسط ، وللمروءة قِسم ، فصل الرحم ما استطعت ، وقدر اذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير ، خير لك من أن تكون في جانب التبذير .

أما مقاماته فهى مطبوعة مشهورة فارجع اليها ان شئت وله أيضاً ديوان شعر صغير مطبوع فى مصر

أبو اسحاق الصابي

هو أبو اسحق بن ابرهيم بن هلال بن ابرهيم بن اهرون بن حبون الحرّانى الصابي صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع وأكتب كتاب العراق(١) في زمانه

أصل أجداده من حران من بلاد الشام على دين الصابئة(وهو اسم تسموا به زمن المأمون ، ومذهبهم منتزع من عقائد القدماء من السريان واليونان فى الكواكب ووثنيتها)وكانت صناعة آبائه ببغداد الطب والترجمة من السريانية ، وكان أبوه هلال من أطباء بغداد ، وربى أبا اسحق فى صناعته على غير رغبة منه ، اذ كان ميالا للأدب من صغره ، فغلب عليه

(١) كان فى وقته يطلق على ما بين النهرين من بغداد الى البصرة

الأدب وترك صناعة أبيه ، وعمل فى ديوان الخلافة، وما زال يترقى به الحال
عند الوزير المهلبى حتى وزر المهلبى لعز الدولة الديلمى المتغلب على خليفة
بغداد من آل بُويه . فولاه ديوان الرسائل ، وكان يخلفه فى أعمال الوزارة
عند غيبته ، وصدرت منه العهود والمنشورات والمراسيم والكتب البليغة
المسهبة عن الخليفة وعز الدولة ، وكان يعرض بتصغير عضد الدولة فى الكتب
التى تصدر عن الخليفة اليه ويوجمه ، فحقدها عليه حتى تغلب على بغداد
وقبض عليه وأمر بسجنه ، فشفع فيه ، فقال : قد سوّغتُه نفسه ، فان عمل كتابا
فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع فى محبسه فى عمل كتاب التاجى ، فسعى
بعضهم به الى عضد الدولة بأنه زاره فى السجن ، فرآه فى شغل من التعليق
والتسويد والتبييض ، فسأله عما يفعل ، فقال : أباطيل أُنمّقها ، وأكاذيب
أُلفّقها ، فأمر بالقائه تحت أرجل الفيلة ، فترامى عظماء الكتاب على أقدامه ،
وشفعوا فيه ، حتى أمر باستحيائه ، واستصفاء أمواله ، وتخليد سجنه ، الى أن
تخلص فى أيام صمصام الدولة بن عضد الدولة ، وبقى بعد خروجه من
السجن الذى لبث فيه بضع سنين متعطلا لا يعمل لاحد أنفةً منه حتى مات
سنة ٣٨٤ هـ وكان الصاحب ممن يديم صلته . وبقى أبو اسحق على دينه يتشدد
فيه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم ويوليه الوزارة فلم يفعل ، وكان يحسن حفظ
القرآن ويكثر من اقتباسه فى رسائله والاستدلال به ، وكان يحسن عشرة
المسلمين ويصوم معهم شهر رمضان

منزلته في الكتابة — كان أبو اسحق أحد كتاب الدنيا ، وكان الصاحب يقول كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة ، الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو اسحق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع (يعني نفسه) أما الترجيح بينه وبين الصابي في الكتابة فقد خاض فيه نقدة زمانهما، ومن أشفِّ ماقيل فيهما ان الصاحب كان يكتب مايريد ، والصابي يكتب مايراد ، (أي مايؤمر به) والصابي من طوال النفس في الكتابة، وذلك ما كان زمانه يقتضيه من الاطالة في التفخيم والتعظيم والتهويل وتكرير الوعد والوعيد، وبالصابي ختم تاريخ الفحول من كتاب الدواوين

وخلف من بعد ذلك خلف جعلوا همهم البديع اللفظي وطرحوا المعاني جانبا، ويعتبر الصابي في مقدمة الكتاب الذين التزموا السجع في الرسائل السلطانية فكان ذلك من أقبح آثارهم

ومن رسائله كتاب لبعض أصحابه في الشكر

وصل كتابك مشحونا بلطيف برك ، موشحا بغامر فضلك ، ناطقا بصحة عهدك ، صادقا عن خلوص وُدّك ، وفهمته وشكرت الله تعالى على سلامتك شكر المخصوص بها ، ووقفت على ماوصفته من الاعتداد بي ، وتناهيت اليه من التقريظ لي ، فما زدتَ على أن أعرتني خلالك ، ونحلتني خصالك ، لأنك بالفضائل أولى ، وهي بك أحرى ، ولو كنت في نفسي ممن يشتمل على وصفه حدي اذا حددت ، أو يحيط بكماله وصفي اذا وصفت، لشرعت في بلوغها ، أو القرب منها ، لكن المادح لك متفرغ لك وسعه ، وقد

بحسك، ومستغرق طوقه وقد نقصك، فابلغ مايأتى به المثنى عليك ، ويتوصل اليه المطرى لك ، الوقوف فى ذلك دون منتهاه ، والاقرار بالعجز عن غايته وقراه

التدوين والتصنيف

في المشرق

بقى التدوين سائرا فى منهج التقدم فى هذا العصر على نحو ماوصفنا فى العصر الماضى ، بل وَفرَ عدد المتوفرين عليه وتعددت أغراضه وموضوعات علومه، وتنوعت أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة ووسائط بينهما معتدلة ، ورغّب العلماء والمصنفين فى الافادة والاستفادة وجود عدة دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص أن تفوق الأخرى فى احراز وسائل القوة وعتاد الملك وترفيه العيش ، ولا يكون ذلك الا بتأثيل الحضارة وتعضيد العلم ، وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء وتنافسوا فى ضمهم الى مجالسهم ، وأغراهم هؤلاء بتأليفهم الكتب باسمائهم واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم، فكثرت الكتب والمصنفات فى العلوم التى وضعت فى العصر الماضى وفى علوم أخرى اشتقت منها كعلوم الأخلاق وآداب الملوك وسياسة الملك وقيادة الحرب وتعبئة الجيوش واستعمال الأسلحة وتدبير المال وتصرف وجوه الكسب فى التجارة وتدبير المنزل والبحث فى معرفة أسباب

العمران واتسع مجال البحث فى الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الحيل . والمنطق والكلام وعلم النفس وسائر العلوم الحكمية والدخيلة ، فثبتت أصولها، وتشعبت فروعها، وتعددت المذاهب، وأصبحت بعيدة الشبه باصولها اليونانية، وانصبغت بصبغة اسلامية ، وامتزجت بكل فن حتى الشعر. واستفحل أمر اختراع الاساطير والاسمار الخرافية وقصص الشجعان ، واستمر الحال على ذلك فى الدول البويهية والسامانيه والغزنونية حتى جاءت السلجوقية فكان لها أيضا على عصبيتها مساعدة للعلم بانشاء المدارس الخاصه بالتدريس وتوظيف الوظائف والجرايات للعلماء والطلاب وتخصيص كل عالم بعلم ومرتبة . وكان التدريس قبل في المساجد على غير نظام محدود أو جراية دائمه ، وحا كتهم فى ذلك الممالك المجاورة ، وأول مدرسة من هذا النوع هى المدرسة النظامية ببغداد ، شرع فى بنائها نظام الملك أبو على الحسن بن على الطوسى سنة ٤٥٧ وافتتحت للتدريس سنة ٤٥٩ ثم كان له ولغيره مدارس أخرى على هذا النمط بالرى وَنيسابور وَهراة وبخارى ، وكان يكون غالبا بجانب هذه المدارس أربطة للصوفية والسابلة وكتاتيب لصغار المتعلمين ودور كتب عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب غير خزائن كتب الملوك والوزراء التى كانت تحوى مئات الألوف من المجلدات

ثم فترت هذه الحركة فى المشرق بضعف ممالكه واستعجام حكوماتها واستيلاء الجهل على رؤسائها قبيل اغارة التتار وأثناء غلبة الدولة الخوارزمشاهية، حتى اجتث سيل التتار الجميع، وطمس فى المشرق آثار العرب

والمتعر بين بابادة العلماء وتحريق الكتب

كتابة التصنيف

أما كتابة التصنيف والتدوين في العلوم اللسانية والشرعية فقد كان بعضها في أوائل هذا العصر يذكر فيه الروايات باختلاف طرقها واثبات أسانيدها وأشد ماروعى ذلك في الحديث والتفسير، ثم يلى ذلك كتب الأدب كالأغاني، ثم يلى هذا التاريخ

وفي أواسط هذا العصر وأواخره أهملت هذه الطريقة في كتب الادب وقل الاطناب، واكتفى من الروايات بذكر محصلها، واختصرت القواعد والأحكام وأدخلت تحت حدود وضوابط عامة وخصوصا كتب الفقه والاصول والنحو لاتساع دائرة العلوم وضيق العمر عن الاحاطة بالمطولات

أما العلوم الدخلية فقد كانت ترجمت وهذبت وصححت ونبغ فيها فطاحل تصرفوا فيها وتعمقوا في ايجاز عبارتها واخفائها على غيرهم من الفقهاء المنكرين عليهم حتى كادت كتب الحكمة والتوحيد يكون لها لسان قائم بنفسه، وبقيت هذه الطريقة مراعاة في كتبهما حتى سكنت ريح التأليف في العلوم العقلية أواخر القرن الثامن، غير ان جماعة من الحكماء ضجروا من كتم علوم الفلسفة واغماض عبارتها، فتآخوا على بث علومها وايجاد الصلات بينهما و بين مسائل الشرع وعقائد الدين، وألفوا بعبارة سهلة عدة رسائل فيها سموها رسائل اخوان الصفا، وأخفوا أسماءهم، وما لبثت ان عرفت وأقبل الناس عليها درسا

ومحاكاة وهى باقية الى وقتنا هذا مطبوعة بمصر والهند وأوزبا وغيرها، وترجمت الى كثير من اللغات . وظهر فى هذا العصر فى كل فن من العلوم اللسانية والدخيلة رسائل مكتبية لاحداث المبتدئين روعى فيها الاقتصار على أصول القواعد بعبارة سهلة فكانت أفضل وسائل نشر العلم فى هذا العصر

العلوم الاسلامية فى المشرق

العلوم اللسانية

نبدأ هنا بذكر علم الأدب كما بدأنا به فى العصر الأول فنقول

علم الأدب

انقضى العصر الأول وقد فرغ العلماء والرواة من جمع أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور، وانضم اليها أخبار الفتوح والمغازى وسير الخلفاء والقواد والبلغاء ، فينعت بها قرائح الأدباء، ولهجت بها ألسنة الندماء والسمار ، وفاضت أقلام الكتاب ، وبقيت أخبار المحدثين وبلاغة المولدين ونوادرهم وأشعارهم وجدهم وهزلهم مجالا لعناية مصنفى الأدب من أهل عصرهم ، وتلك سلسلة لا تنقطع مادام للغة حياة، وللأمة سلطان وحضارة، وللقرائح حرية، وللعلماء والأدباء مكانة ، و بعض ذلك قد كان بالمشرق فى مبدأ هذا العصر الى أواسط القرن الخامس

ولا غرو أن جاء هذا العصر وللأدب أقلام سيالة في أيدى كتاب هم

ثمرة العصر الماضى ونقلة آثاره للعصور الخالفة ضموا ما كتبه سلفهم من كتب أو حدثوه من روايات الى ماعرفوه وشاهدوه وسمعوه وأودعوا الجميع كتبا مطولة جامعة لكثير من فنون الأدب المتنوعة أو رسائل قاصرة على فن منه

وكثير من الكتب المطولة لم يكن لجامعيها كتابة كثيرة فيها فوق الربط بين العبارات المنقولة والشواهد الموردة ككتاب الأغانى وأكثر كتب أبي منصور الثعالبي وكتاب الفرج بعد الشدة وكثير من كتب الأمالى والمجالس ومنها ماهو ابتداع بحت ككتب المقامات للبديع والحريرى والزمخشرى وكتب نقد الشعر والموازنة بين الشعراء وكتب الأدب الممزوجة بمباحث البلاغة .

الاسمار والخرافات

ومن ملحقات كتب الأدب المبتدعة كتب الأسمار والخرافات والأساطير والقصص الحكمية المحكية على ألسنه الحيوان وسير الأبطال والشجعان ، وابتدأ الأدباء يعنون بوضعها أو ترجمتها منذ صارت المنادمة والسمر صناعة فريق عظيم منهم أى منذ زمن الواثق الى آخر الدولة حين استبد الجند من الأتراك ثم الديالم من بعدهم على الخلفاء وآل العباس وكفوا أيديهم عن العمل فى شؤون المملكة وقصروهم على المقام فى قصورهم وقلت العناية بتربيتهم فلم يجدوا مايقضون به أوقاتهم ويخففون عنهم ضجر بطالتهم غير مجاذبة أسباب اللهو والجلوس الى الندماء والسمار ومطالعة القصص

والخرافات واللعب بالشطرنج أو النرد ونحوها ،و بذلك وجد كثير من هـذه الكتب فى العصر الماضى،واتسعت دائرتها فى هـذا العصر ،وصار كل سامر ونديم يزيد فى أصل كل قصة نادرة طريقة أو شعرا يناسبها ويزخرفها بانواع الغرائب والتهاويل وأخبار الجن والسحرة ونحوها وأفعال الشجعان التى تخرج عن الطوق.وقد ذكر ابن النديم في فهرسته عددا وافرا من هـذه الكتب فليراجعه من أراد التبسط فى هذا الموضوع

كتاب ألف ليلة وليلة

ومن كتب الاسمار التى ترجمت فى المشرق أواخر العصر الماضى، وفرهت بما أضيف اليها فى هذا العصر وما بعده الي وقتنا هذا كتاب ألف ليلة وليلة. وأصـله من وضع الفرس وكان يسمى بلغتهم (هزارافسان) أى كتاب اللهو والخرافات،ولا يعلم أصل مترجمـه وابتعـد بما أضيف اليـه من الحـكايات البغدادية والمصرية من أصله ولا يزال عليه بعد مسحة فارسية

وراق الأوربيين هذا الكتاب فترجموه الى جميع لغاتهم محافظـين على أصله أو متصرفين فيه،ويسمونه الليالى العربية،ويعدونه من أجمل الآداب العربية وهو عند العرب من أسخفها ووصفه ابن النديم قبل ادخال كثير من الحـكايات والمصرية فيه فقال : انه « غث بارد » وكذلك هو عند ذوى الذوق السليم من أدباء العرب،ولا يلهو به فى زمننا غير العامة والصبيان وأهل البطالة،وفيه كثير من الألفاظ والعبارات العامية لاجيال مختلفة،ويشتمل فوق هذا على كثير من العادات والأخـلاق والآداب والخيالات والتصورات

لطبقات العوام فى القرون المتوسطة الاسلامية، فهو من هاتين الوجهتين يصح أن ينظر فيه الأديب اللغوى والمؤرخ الاجتماعى

هذا وقد نبغ من مصنفى الأدب فى صدر هذا العصر جماعة ممن أدرك طرفا من العصر الماضى، واستقى من معينه، منهم أبو الفرج الأصبهانى وأبو حيان التوحيدى والحسن بن بشر الآمدى . ونبغ فيه ممن نشأ فى دوله على اختلاف أزمانها جماعة . منهم أبو على المحسن التنوخى وأبو منصور الثعالبى وأبو هلال العسكرى . ومحمد بن النديم والشريف المرتضى والحريرى وأكثر هؤلاء عراقيون أو من جالية العراق الى المشرق

ونكتفى فى هذا المختصر بترجمة الاصبهانى والحريرى اذ كانا أبقى الجميع بيننا أثرا وأطول على أهل الأدب عائدة

أبو الفرج الاصبهانى

هو الكاتب الشاعر الراوية النسابة العلامة المصنف أبو الفرج على ابن الحسين بن محمد المروانى النسب، الشيعى المذهب، صاحب كتاب الاغانى ديوان العرب

ولد سنة ٢٨٤ باصبهان ونشأ ببغداد فروى عن أكثر من لقيه من أئمة زمانه وأدبائه وشعرائه وظرفائه وندمائه وجمع من علم هؤلاء وآدابهم مالايجتمع لغيره وظهر فضله والشرق يتنازعه جملة دول وأمارات تنازع الخليفة فى الملك وينازع بعضهم بعضا فى السلطة فسوغ لأبى الفرج علمه وفضله أن يستدر

ضروع هؤلاء الخصوم، ويحملهم على المنافسة فى استلحاقه بهم، ولم يكتف بسيب ملوك الشرق حتى أفعم غربه من خلفاء الغرب، فكان يؤلف الكتب للاموية بالاندلس سرا، ويشايع الشيعة بالشرق جهرا، وكان من أكثر محبيه ومؤثريه الوزير المهلبي وزير معز الدولة بن بويه واتخذه من أخص ندمائه

أخلاقه — : كان أبو الفرج على علمه وفضله وبلاغته سليط اللسان، موجع الهجاء، يتقى الملوك والرؤساء لسانه لسعة علمه بالانساب ومثالب القبائل وأصول البيوتات

وكان قذرا وسخا لا يعرف لشيء من ثيابه غسلا، ولا يطلب منه فى مدة بقائه عوضا، وكان الوزير المهلبي مع تنطسه وعزوف نفسه وتقذره كل شيء يحتمل منه كل هذا لموضعه من العلم

والظاهر ان تشيعه كان مداراة وأن ذلك كان سنة فى أهل بيته حيث نشئوا فى أصبهان عش الشيعة، ونشأ هو فى بغداد والأمر لبنى بويه، وهم أول من أحدث المنادب والمناح فى عاشوراء على الحسين رضي الله عنه، ولم يكن آل حمدان ملوك الجزيرة وحلب ينقصون كثيرا عنهم فى التشيع فلوا انحازوا الى مذهب الاموية والعثمانية بين هؤلاء الشيعة لقطع دابرهم فسمى . أبوه الحسين وسمى هو عليا . ودليل هذا انه لم يختلف أحد ممن ألم بذكر كتبه فى انه ألف كثيرا منها لخلفاء الاندلس كان يبعثها اليهم سرا ويأتيه عليها الانعام، وأكثرها فى نسب عبد شمس والقبائل التي نزحت الى الاندلس وجهلت أخبارَ سلفها ومفاخرها

علمه — : كان أبو الفرج أعرف أهل زمانه بعلم وأدب وأخبار وأحاديث ونسب ، ولم ير فى عصره أحفظ منه ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها النحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك . وفاق هل زمانه فى معرفة الاغانى والمغنين، وفى ذلك صنف كتابه الاغانى الكبير .

كتاب الاغانى

أجمع أهل الادب والمؤرخون على أن كتاب الأغانى لم يصنف فى بابه مثله ، وانه حوى من مادة الأدب ما جعل كل كتاب بعده فى الادب عالة عليه . وقد ألفه فى خمسين سنة، ونسخه مرة واحدة ، وحمل هذه النسخة الى سيف الدولة ابن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر اليه

ويحكى عن الصاحب بن عباد انه كان فى أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الادب ليطالعها ، فلما وصل اليه كتاب الاغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها . وكذلك كان يفعل عضد الدولة فلا يكاد يفارقه سفرا ولا حضرا

وقال الأديب المؤرخ الرحالة ياقوت الرومى بعد أن أثنى عليه بما هو حقيق به (وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مرارا، وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ، ونقلت منه الى كتابى الموسوم باخبار الشعراء، فا كثرت، وجمعت تراجمه ، فوجدته يعد بشىء ولا يفى به في غير موضع منه كقوله فى

أخبار أبي العتاهية » وقد طالت أخباره هاهنا وسنذكرخبره مع عتبة فى موضع آخر » ولم يفعل وقال فى موضع آخر « أخبار أبي نواس مع جنان اذ كانت سائر أخباره قد تقدمت » ولم يتقدم منها شيء الى أشباه لذلك ، والاصوات المائة هي تسعة وتسعون وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان غلب عليه والله أعلم)

وقدذكرذلك أيضاابن مكرم فى كتاب أخبارالحسن بن هانئ (أبي نواس) ولا يزال الكتاب كما وصفاه

وجملة القول ان هذا الكتاب هوالكنز الذى حفظ فيه الادب العربى وان ضم بين دفافه كثيرا من الاخبار الموضوعة على الخلفاء و روايات المجّان والخلعاء والمستهترين ممن لا يبالون بما يقولون صدقا أم كذبا ، فلا يعتبر من هذه الوجهة مصدرا للتاريخ الحقيقى لمنافاة أخباره لكثير من كتبه الصادقة ولمناقضة بعضها لبعض

ولم يكن أبو الفرج يقصد من ذلك الى أكثر من نقل الاخبار على علاتها أسوة كثير من رواة الاخبار والسير والاسمار

وقد اختصر أبو الفرج بنفسه كتابه فى مُجَرّد فُقد مع غيره من كتبه، واختصره بعده كثيرون،منهم ابن مكرم صاحب لسان العرب وغيره،ويطبع مختصره فى مصر . وطبع كتاب الاغانى بمصر في عشرين جزءا ثم عُثِر على جزء آخر فطبعه المستشرق رودلف برونو سنة ١٨٨٨ لا كما قال بعض من يتعاطى التأليف فى عصرنا انه طبع فى مدينة برونو اذ ليس ثمة مدينة بهذا

الاسم وانما هو نصف اسم المستشرق الطابع

ولأبي الفرج كتب كثيرة طبع منها غير الاغانى كتاب مقاتل الطالبيين في مدينة طهران سنة ١٣٠٧ وأ كثر كتبه مفقودة . ومات أبو الفرج سنة ٣٥٦ ببغداد وكان قد خلط قبل وفاته رحمه الله

الحريري

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريري البصرى اللغوى النحوى الكاتب الشاعر صاحب المقامات المشهورة والبدائع المأثورة

وهو عربي صميم من بنى حَرَام ولد سنة ٤٤٦ بَمشان البصرة (قرية قريبة منها كثيرة النخل وكان له فيها ١٨ ألف نخلة) ونشأ بالبصرة وانقطع لتعليم العربية من اللغة والنحو والادب حتى صار نادرة زمانه فى كلها ولاسيما الانشاء ، فجارى البديع فى اختراع مقامات مُتَخيَّلَةِ القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها. واتفق أن أعرابيا فصيحا يسمى أبا زيد قدم البصرة من سَرُوج (بلدة بالجزيرة) فأعجب أهل البصرة به ،فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويها الحرث بن همام يريد نفسه آخذا من الحديث (كلكم حارث وكلكم همام) فالحارث الكاسب والهمام كثير الاهتمام

وأول مقامة صنفها هي المقامة الحرامية الثامنة والاربعون

وعدة المقامات خمسون مقامة صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد

هكذا وجد بخطه ، وقيل انه عملها الوزير أنو شروان وزير المسترشد أيضاً

وقد استعظمها عليه حساده ،وزعموا أنها لمغربي قدم البصرة ومات بها، فى كلام كثير ليس تحته طائل

ومن يطلع على مقاماته و يعرف مغازيها ومراميها و بلاغة عبارتها يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير

وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت الى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها وَحدَةُ مغزاها وأن أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشّحَاذَةِ والاستجداء

وللحريرى العذر فى ذلك لانه فرض روايتها عن الاعراب ـ وهم كانوا لا يقدمون المدن الامتجعين مستجدين ـ يجعل خيال الحريرى مقبولا

وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيرا دميما، بولع بنتف لحيته

وله ديوان رسائل وشعر جميل وتآليف شريفة، منها درة الغواص في أوهام الخواص ،وَمُلْحةُ الاعراب فى النحو وهما والمقامات مطبوعة مشهورة

العروض والقافية

لم يزد علم العروض فى هذا العصر شيئاً الا ما ذكرناه فى العصر الأول عن أبى نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى صاحب الصحاح من ارجاعه البحور الى اثنى عشر بحرا باعتبار تداخل اوزانها ،وقد آثرنا توضيح ذلك هناك توفية للمقام فراجعه

واذا اعتبرنا ان مباحث الوزن والتقفية على غير ما أثر عن العرب مما يدخل علمه فى مباحث العروض والقافية جاز لنا أن نقول انه زاد فى علم العروض والقافية مباحث الوزن والتقفية للموشحات والسلسلة والدوبيت والزجل وغيرها مما استحدث فى هذا العصر . على أن أدباء المشرق لم يعنوا من هذه الا بالدوبيت ،

النحو

بقيت العناية بالنحو وتحرير قواعده وتكميل ضوابطه وشروطها ديدن العلماء بالممالك الشرقية كما بقيت بالممالك الغربية ، ولذلك كان له فى المشرق في هذا العصر من فحول الرجال ومفصلات الكتب وملخصات العدد العظيم . فنهم ابن درستويه المتوفى ببغداد سنة ٣٤٧ وأبو على الفارسى المتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ وأبو سعيد السيرافي المتوفى ببغداد سنة ٣٦٨ وأبو الحسن الرمانى المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ وأبو الفتح بن جنى المتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ وعلى بن عيسى الربعي المتوفى ببغداد سنة ٤٢٠ وأبو القاسم جار الله محمود الزمخشرى المتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨ وأبو السعادات الشريف ابن الشجرى المتوفى ببغداد سنة ٥٤٢

فترى ان أكثر هؤلاء كان من علماء بغداد وانما كانوا يختلفون الى فارس اجابة لترغيب ملوكها ووزرائها لهم فى المقام لديهم ، وكان أكثرهم

اقامة بفارس أبو على الفارسى

وكان أكثر تصنيفاتهم شروحا لأمهات الكتب القديمة أو مختصرات للناشئين أو تقريب مأخذ من حسن تقسيم وتفصيل وتبويب وتسهيل عبارة

وكان أصعبهم عبارة وأقربهم الى مناحى المناطقة فى أقيستهم وتعليلاتهم أبا الحسن الرمانى وكان أسهلهم أبا سعيد السيرافى

وقلما كان نحوي من هؤلاء يتفرد بمذهب كوفى أو بصرى وانما كان مذهب البصريين هو الاساس المعتمد عليه فى دراسة مشوبا بشيء من مذهب الكوفيين

اللغة

لعلماء المشرق فى هذا العصر أعظم فضل فى تدوين متن اللغة وتنسيق معاجمها وتمييز صحيحها من غيره

سبقهم الى ذلك أبو منصور محمد بن أحمد بن الازهر طلحة المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى سنة ٣٧٠ فانه صنف معجمه الكبير (تهذيب اللغة) فى نحو عشر مجلدات . وجرى فيه على ترتيب كتاب العين من ترتيب المواد حسب مخارج الحروف وتوجد منه فى مكاتب الاستانة وبعض أجزاء بالمكتبة الخديوية

ثم صنف بعده الوزير الصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ كتابه (المحيط) فى نحو سبع مجلدات منها جزء فى المكتبة الخديوية

ثم صنف فى عصره أبو الحسين أحمد بن فارس الرازى المتوفى سنة ٣٩٠

كتابه (المجمل) مرتباً على حروف المعجم وجمع فيه المستعمل المشهور من اللغة وحذف الشواهد. وشاع استعمال هذا الكتاب بين المتعلمين زمنا طويلا وتوجد منه عدة نسخ فى مكاتب أوروبا، وفى المكتبة الخديوية نسخة . ويحسن أن يطبع فيكون أفضل من المصباح

ثم صنف فى عصر هؤلاء الامام الحجة أبونصر اسمعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ كتابه (تاج اللغة وصحاح العربية) جمع جميع الكلمات الصحيحة النقل والرواية فقط وحذف ما عداها . وكان المؤلفون قبله يجمعون ألفاظ اللغة بجميع مراتبها منبهين على كل منها ، ورتبه على حروف المعجم باعتبار ان أواخر الكلم هى الابواب وأوائلها هى الفصول ، وجمع فيه أربعين ألف مادة فكان أفضل معجم وضع في الشرق الى زمنه ، ومات قبل أن يبيض مسودته و بيضها أحد تلاميذه فأخطأ فى بعض مواضع خطأ بينه النقاد ، ومع هذا لم ينل كتاب من اقبال الناس عليه والثقة به ما ناله الصحاح ، وبقى كذلك حتى زاحمه القاموس للفيروزابادى من أهل العصر التالى وكثير من الناس يفضل الصحاح عليه وان قل عنه بعشرين ألف مادة لسهوله عبارته وقرب مأخذه ، وطبع الصحاح مرارا فى مصر وغيرها

ثم صنف جار الله محمود الزمخشرى المتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨ كتابه (أساس البلاغة) وهو معجم وسيط مليح ، يمتاز بتوقيف الراجع اليه على استعمال الكلمة حقيقة ومجازا ، وهو مرتب على حروف المعجم باعتبار أوائل الكلم فقط وطبع فى مصر

ثم صنف الامام الكبير رضى الدين حسن الصغانى المتوفى ببغداد سنة ٦٥٠ والمنقول منها الى مكة حيث دفن بها كتابه (العباب الزاخر واللباب الفاخر) فى عشرين مجلدا ، ولم يكمله ووصل فيه الى مادة (بكم) وقد كان قبله ألف (تكملة الصحاح) وهى أكبر منه حجما ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد سماه مجمع البحرين

هذه أهم المعاجم التى دونت فى متن اللغة بالممالك الشرقية فى هذا العصر، وألف العلماء في اللغة غير المعاجم كتباً أخرى مرتبة بحسب أجناس الاشياء وموضوعاتها ككتاب فقه اللغة لأبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ وهو مشهور متداول مطبوع فى مصر وغيرها

علوم البلاغة

لم تصر علوم البلاغة فنا مفصلا ذا مباحث محصورة الا فى هذا العصر ولا سيما المعانى والبيان فذكر أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ فى كتاب الصناعتين جملة فصول فيهما ، وجاراه غيره الى أن جاء الامام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ فوضع كتابه ، (دلائل الاعجاز) فى المعانى ، وكتابه (أسرار البلاغة) فى البيان فكانا أول كتابين حافلين فى هذين الفنين ، واقتفى أثره مَن بعدَه حتى جاء فارس الحلبة العلامة سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى المتوفي سنة ٦٢٦ فألف كتابه (مفتاح العلوم) في النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض فانتهى اليه الاجتهاد في هذا الفن ، ولم يأت بعده من زاد عليه شيئا من أصول

البلاغة ،فتناوله من بعده شرحا واختصارا، وأشهر مختصرات قسم البلاغة منه تلخيص جلال الدين الخطيب القزوينى

وله شروح كثيرة وهو مرجع كل طالب للبلاغـة ،وللزمخشرى فى الـكشاف وغيره وللباقلانى فى اعجاز القرآن مباحث جليلة تحسب من أهم فصول البلاغة

ويعتبرفن البلاغة من الفنون العربية التى لم تنضج ولم يتم الاجتهاد فيها ، لما دهى العرب والعربية من غلبة الاعاجم على عناصرها قبل اتمامها . ومن الغريب ان جل من تعاطى التأليف فيها كان من العجم أو المستعجمين الذين تنازعت ألسنتهم ملـكات لغاتهـم الاصلية ، فحسبوا أن البـلاغة تجرى مع المنطق والفلسفة فى مضمار ، فخلطوا مباحثها بمباحثهما اذ كان هَمُّ علماء المشرق فى العصور المتأخرة الانكباب على دراسة كتب الحكمة وتطبيقها على أصول القواعد العربية ، فكتبوا بأساليبها كتب البلاغة ، فازدادت تعقيدا وابهاما ، وبدلا من أن تكون مساعدة على تربية ملـكة الفصاحة والبـلاغة وحسن الانشاء ، كانت عائقة عن نموّها

أما البديع فأكثر من ألف فيه بعد العصر الاول أدباء الممالك الغربية وسنذكر ذلك فى موضعه

العلوم الشرعية

﴿ التفسـير والحـديث ﴾

انتهى العصر الأول وتفسير القرآن الـكريم لا يزيد على جمع الروايات

المنقولة عن الصحابة والتابعين فى بيان معانى الآيات وتحقيق هذه الروايات ونفى الاكاذيب عنها، وامام المفسرين فى ذلك أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى

ثم نسج فى العصر الثانى على منواله مع اختصار الاسانيد الامام أبو الليث نصر السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٥ فى تفسيره

ثم لما ضعفت ملكة فهم الكلام العربى البليغ من نفوس أهل العلم، صار مجرد تفسير الاية بمعناها من غير تعرض لاعرابها و بلاغتها ووجوه استخراج الاحكام والعقائد الدينية منها غير كاف للطالب المستفيد، فعنى العلماء بادخال أحكام علوم العربية والشرع فضلا عن القصص ضمن مباحث التفسير، وصار كل مؤلف مبرز فى علم يكثر من مسائله فى تفسيره كتفسير الامام المفسر المشهور أبى اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧ الذى سماه (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) ويغلب عليه القصص، وتفسير تلميذه الامام أبى الحسين على بن احمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ الذى سماه (البسيط) ويغلب عليه النحو، وتفسير الكشاف للزمخشرى ويغلب عليه البلاغة والاحتجاج لمذاهب الاعتزال بمناحيها فيه، وتفسير الامام أبى عبدالله محمد فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ بهراة المسمى (مفاتيح الغيب) ويغلب عليه الكلام والاصول، وهذه هى أمهات كتب التفسير

وكان أصحاب هذه التفاسير لا يَعدُون ما ورد عن السلف من تأويل الآي، ثم لما صارت العلوم صناعة وتشعبت مذاهبها تجردت طائفة الى التفسير بالرأى والقياس، فأصبح التفسير قسمين سلفيا وفنيا . ثم خلط المتأخرون بعد

هذا العصر بينهما

أما الحديث فلم تزد روايته بعد الكتب الصحاح التى دونت فى العصر الماضى شيأ جديرا بالذكر، وكان جل اهتمام المحدثين فى العصر الثالث حفظ ما جمعه شيوخهم السالفون وتبيين مراتب الحديث ولكنهم توسعوا فى علوم رواية الحديث ومصطلحه وغريبة ومعانى شكله ونحوذلك وجمعوا بين صنفى التأليف من المختصرات المشتملة على طائفة من الحديث فى موضوع خاص، ومن المطولات الجامعة للكتب الستة وغيرها بترتيب وبغير ترتيب كما قدمنا

ومن كبار محدثى المشرق فى هذا العصر الحافظ أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ وتلميذه الحافظ أبو بكر أحمد بن على البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ وغيرهما

الفقه والاصول

قد كان هـذا العصر عصر تبحر فى هذين العلمين فى البلاد المشرقية، ونبغ فيهما كثير من مجتهدي المذاهب ومجتهدى الفتيا وكان الشرق وقتئد مجال نضال فيهما بين الشافعية والحنفية وألفت فيهما الكتب النفيسة

غير أن اشتغال أمم الفرس والترك بفقه أبى حنيفة والتزامهم التأليف فيه باللغة العربيةعلى غيرأ لسنة كثيرة بهاجعل عبارة بعض مؤلفيها معقدة ركيكة بل مشوبة ببعض تركيب فارسية

وقد ذكرنا استطرادا عند الكلام فى نشأة هذين العلمين فى العصر

الأول مجمل أحوالها فى هذا العصر فراجعه ان شئت

علم الكلام

لم يأت العصر الثاني حتى ظهرت فيه طريقة الاشاعرة فى اثبات العقائد، وعضدَها بعد الاشعرى القاضى أبو بكر محمد بن الطيب البلاقلانى البصرى المتكلم المشهور المتوفى سنة ٤٠٣ ببغداد، ثم أبو المعالى عبد الملك بن محمد الجوينى امام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ بنيسابور

ثم اختلط الكلام بالرد على الفلاسفة فتعرضوا لشرح أقوالهم فى المعقولات وأصول الحكمة . وأول من فعل ذلك في كتبه الامام أبو حامد محمد بن محمد حجة الاسلام الغزالى المتوفى بالطابران (قصبة طوس) سنة ٥٠٥ ،وأعظم من أيد هــذه الطريقة الشيخ أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازى المتوفى بهراة سنة ٦٠٦ وتبعهما فى ذلك المتأخرون

علوم أخرى

ومن العلوم التى عنيت بشأنهـا الأمة العربية غير اللسانيـة والشرعية مستنبطة مباحثها من قرائح علمائهـا أو مستمدا بعضها من الامم السالفة علم التاريخ والجغرافيا والاخلاق وسياسة الممالك وغيرها

ونذكر هنا كلمة فى التاريخ والاخلاق اذ كان مادتهما فى هذا العصر من القرائح العربية، ونرجئ غيرها الى مبحث العلوم الدخيلة لأن استمداد مسائلها الدقيقة كان من كتب الاوائل

التاريخ

ذكرنا فى العصر الأول ان التاريخ عند العرب كان يشمل عـدة فنون مثل السـير والمغازى وفتوح البـلدان وطبقات الرجال وفن النسب وتاريخ المالك وقصص الانبياء وغـير ذلك . وانه ألف في هـذه الفنون فى العصر الأول مئات الـكتب، منها المنفردبفن، ومنها الشامل لعدة فنون، حتى كان الامام ابن جرير الطبري هو القدوة في تأليف التواريخ العامة الجامعة لأكثر هذه الفنون ، وتبعه من بعده من مؤرخى العصر الثانى فى ذلك ، وزادوا عليه وأدخلوا فى تواريخهم كثيرا من المبـاحث الاجتماعية والسياسـية والطبيعية والجغرافية والادبية. وأشهرهم في ذلك المسعودى شيخ مؤرخى هـذا العصر المتوفى سنة ٣٤٦

ومن أشهر أصحاب التواريخ العامة أبو على أحمد بن محمـد بن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ صاحب كتاب تجارب الأمم ، ويطبع الآن فى أوربا على قوالب منقولة عن الصورة التى عثر عليها منه بالتصوير الشمسى فى ستة أجزاء كبار طبع منها جزء ،وذيله الوزير أبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨

وكان أكثر مؤرخى هذا العصر يذيلون التواريخ الكبار لمن قبلهم بأذيال مطولة ضنا بالوقت أن يضيع فيما فرغ منه سلفهم،فذيل ثابت بن سنان الحرانى تاريخ الطبرى وبلغ به الى السنة ٣٦٣ ، ثم ذيل هذا الذيل ابن اخته هـلال ابن المحسن الصابى المتوفى سنة ٤٤٨ بكتاب كبير طبع بعض الجزء الثامن منه ملحقا بكتابه تاريخ الوزراء بمطبعة اليسوعيين ببيروت و بلغ به الى سنة ٤٤٧

ثم تلاه ولده غرس النعمة بذيل بلغ به الى سنة ٤٧٠ ثم داخله ابن الهمداني وتممه الى بعض سنة ٥١٢ وكمله أبو الحسن الراغونى الى سنة ٥٢٧ وزاد عليه العفيف صدقة الحداد الى سنة نيف وسبعين وخمسمائة ، ثم كمل عليه ابن الجوزى الى مابعد سنة ثمانين ، ثم كمل عليه ابن القادسى الى سنة ٦١٦ ، ثم لخص خاتمة مؤرخى هذا العصر أبو الحسن على بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ تاريخه الكامل من الطبرى ومن هذه الذيول وبلغ به سنة ٦٢٧ وهو من أهل الجزيرة

هؤلاء هم أصحاب التاريخ العام ، ونبغ فى هذا العصر غيرهم كثير من مؤرخى التاريخ الخاص كأصحاب تواريخ بعض الممالك مثل أبي اسحاق الصابى صاحب تاريخ التاجى لآل بويه ، وأبى النصر محمد بن عبد الجبار العتبي المتوفى سنة ٤٣١ صاحب كتاب اليمنى فى تاريخ الدولة الغزنوية وخاصة سيرة محمود ابن سُبكتكِين وطبع بشرحه للمنينى الدمشقى بمصر ، وقد ألف هذا الكتاب بعبارة بليغة مسجوعة جعلته أدخل فى باب الادب منه فى باب التواريخ

وأصحاب طبقات الرجال كأبى البركات عبد الرحمن محمد بن الانبارى صاحب طبقات الادباء النحويين المطبوع بمصر ، وأبى سعيد السيرافى صاحب طبقات النحاة البصريين ، وأبى بكر الصولي وهلال بن المحسن صاحبى تاريخى الوزراء ، وأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد وعلمائها وكأبى منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر وغيرهم من أصحاب المئات من كتب طبقات أصحاب الحديث والفقه والتفسير

ممن لا يحصون عددا

وقـد اهتم المسلمون بتاريخ طبقات الرجال اهتماما كانوا به أسبق الأمم لتدوين تواريخ الرجال ووضع المعاجم لذلك

علم الاخلاق ٧

وهو من العلوم التى عنى بها العلماء في هذا العصر ، وكتبوافيه كتبامختلفة النزعة لاختلاف منازع مؤلفيها . فمنهم من جنح الى مذاهب الحكماء الأوائل فى النفس وتهذيبها مثل ابن مسكوية في كتابه تهذيب الاخلاق، ومنهم من مال الى مذهب الصوفية كالغزالى فى كثير من أبواب الاحياء . ومنهم من ذهب مذهب أهـل الآداب كابى الحسن الماوردي صاحب كتاب أدب الدينا والدين ، وفى كثيرمن كتب ابن سينا والفارابى وأبى حيان التوحيدى مباحث نفيسة فى الاخلاق فوق رسائلهم الخاصة بذلك

العلوم الدخيلة ٢

فى المشرق

علوم الحكمة الألهية والطبيعية والرياضية

بعد أن ترجم المسلمون فى زمن المأمون كتب الأوائل برعوا فى علومهم وأ كلوا ما نقصهم فكانوا فى هذا العصر أعلم أهل الارض بها وأ كثرهم انتفاعا منها وأصبح لهم فى كل فن منها كتب لاتحصي

وكان النابغ منهم في بعضها لا يعوزه كثيرمن سائرها ،بل كان لكثير

منهم قدم راسخة فى الادب واللغة فوق رسوخه فى الهندسة والكيمياء ، وهذا مما لم يتفق لامة من الامم، وماذاك الا لأن الكاتب باللسان العربى لاينشب أن يصبغ بصبغة الادب مهما نأى عنه بصناعته

ومن أقطاب العلوم الدخيلة فى المشرق أبو النصر محمد بن طرخان الفارابى الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون والمتوفى سنة ٣٣٩ ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب الكيميائى الشهير المتوفى سنة ١٣٦٤ على التحقيق ، والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو الحسن بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ وأبو الريحان أحمد بن محمد البيرونى الفلكي الرياضي المقوّم المتوفي سنة ٤٣٠

ونبغ فى عصر هؤلاء و بعدهم كثير من الحكماء والرياضين كان لهم ولأولئك الاعلام عظيم فضل فى جعل اللغة العربية تتسع لجميع علوم الدنيا كما اتسعت لعلوم الدين ، ومن كتبهم وكتب حكماء المغرب اقتبست أوربا أصول مدنيتها الحديثة

الشعر

فى المشرق

قدمنا ان عناية ممالك المشرق كانت باجادة العلوم أكثر منها بالأدب لاستحيائهم آداب لغتهم ولذلك لم يمض على قاصية خراسان قرن من هذا العصر حتى لم يكن بها شاعر عربى يذكر فى عداد فحول الشعراء وامحى أثرهم فيها جملة فى أواخر هذا العصر وبقى الشعر فى بلاد فارس والجبل لتناقص الرغبة فى

الشعر العربي وشعرائه ؛ حتى لحق بالقاصية أخريات هذا العصر . ولم يعد يقوله الا العلماء المتأدبون تفكها

أما بغداد فبقيت زاخرة بالشعراء الى سقوطها لتوسطها بين بلاد عربية ولتأثل العربية بها، وان لم يظهر بها و بأقاليم العراق نابغة منذ أختل أمر الخلافة غير الشريف الرضى ومهيار الديلمى

ولم تتغير حالة الشعر من حيث أغراضه وفنونه وخياله ومعانيه ولفظه وأساليبه وأوزانه وقوافيه وضروبه الا قليلا

فأما أغراضه فقد ازداد استعمال الشعر فى ضوابط العلوم ونظم متونها كما ازداد استعماله فى التصوف ، ونشأت فيه طريقة الشعر الصوفى الرمزى فرمز بقصائد النسيب والتشبيب والخمريات وغيرها عن أصول مواجد الصوفية وفنائهم فى حب الله

ولما هان أمر الدين والسياسة وفشت البطالة ببغداد ظهر فيها طائفة من شعراء الهزل والخلاعة والسخف والمجون والطنز بالناس ليُضحكوا أهل اللهو والفراغ من الرؤساء ، وسابق حلبتهم فى ذلك أبو الحسن عبد الله الحسين بن الحجاج الشاعر الكاتب المتوفى سنة ٣٩١ ، وأبو الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى العباسى المتوفى سنة ٣٨٥ ،وكان يقال ببغداد فيهما « ان زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخى جدا » وتبعهما أبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالبارع المتوفى سنة ٥٢٤ ، والشريف أبو يعلى بن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤

وأما معانيه وخيالاته فزادت بنسبة ما نستدعيه زيادة أغراضه

وأما أسلوبه فجنح كثيرا الى السهولة والتباعد عن الغريب

وأما أوزانه وقوافيه فزاد فيـه كثير من أوزان الموشحات والازجال وغيرها غير أن الغالب على شعر المشارقة كان وزن الدوبيت . وأكثر قائليه ممن كان ينظم باللغتين الفارسية والعربية ، وغلوا فى ذلك حتى صار يجمع من الدوبيت دواوين حافلة

[illegible] الشعراء

اشتهر بالشرق فى هذا العصر غير من ذكرنا كثير من الشعراء وكان جلهم من أهل بغداد ومدن العراق

فمن شعراء بغداد

(١) أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى المتوفى سنة ٣٩٣

(٢) أبو النصر عبـد العزيز بن عمر الشهير بابن نباته السعدى المتوفى سنة ٤٠٥

(٣) الشريف الرضى وسنأتى على ترجمته

(٤) مهيار الديلمى وسنذكره بعد

(٥) أبو الفتح محمد بن عبيد الله سبط التعاويذى المتوفي سنة ٥٨٤

﴿ ومن شعراء جرجان وخوارزم وأقصى خراسان ﴾

(١) أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى المتوفى سنة ٣٨٣

(٢) القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٩٢

(٣) أبو الفتح على بن محمد البستى المتوفى سنة ٤٠٠

(٤) أبو المظفر محمد بن احمد الابيوردى المتوفى سنة ٥١٥

(٥) القاضى أبو بكر ناصح الدين الارجانى المتوفى سنة ٥٤٤

(٦) أبو اسمعيل الحسين بن على مؤيد الدين الطغرائى المتوفى سنة ٥٥٧

الشريف الرضى

هو الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى شاعر قريش ونقيب الطالبين وجامع نهج البلاغة

ولد سنة ٣٥٩ ببغداد فى بيت الدوحة النبوية ، ودرس العلم فى طفولته وقال الشعر وعمره لا يزيد كثيرا عن عشر سنين ، وفصح فيه وتزوّد من العلوم اللسانية والشرعية والعقلية حتى صار عين أعيان بغداد نبلا وشرفا وفصاحة ووجاهة ، وكان أبوه متوليا نقابة الطالبين والنظر فى المظالم والحج بالناس ، فتنازل له عن كل ذلك فى حياته ، وبقى فى هذه الاعمال مدة حتى تغير عليه الخليفة القادر بالله بسبب اتهامه عنده بميله الى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عن أعماله

وكان به أنفة وعلو همة فمن ذلك قوله يخاطب القادر

مهلا أميرَ المؤمنين فاننا ... فى دَوْحة العلياء لا نتفرّق

ما بيننا يوم الفَخار تفاوتٌ ... أبدا كلانا فى المفاخر مُعْرِق

الا الخلافة ميَّزتك فاننى ... أنا عاطل منها وأنت مُطوَّق

فقال القادر على رغم أنف الشريف

منزلته فى الشعر :— وشعر الشريف الرضى جار على أساليب العربية الفصيحة ومناهج الشعراء المتقدمين من جزالة اللفظ وفخامة المعنى ، ويقرب من شعر البُحترى، غير أن شعره يغلب عليه الحماسة والتباعد عن عبث البحترى ومجونه ،

وللشريف مصنفات عدة ، منها ما جمعه من كلام على رضى الله عنه فى كتابه الذى سماه نهج البلاغة، وأكثر الناس على أنه موضوع صنعه الشريف، لما فيه من التعرض لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاذى والهُجر مما يَجِلّ عنه أبو الحسن ، والظاهر أن الشريف جمع ما وقع له مما ينسب اليه ، وفيه الصحيح والمشوب والذي وضعه غلاة الشيعة ، شأن من يستكثر فى الجمع ويصرفه الحب عن القصد ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير والادب وديوان رسائل وديوان شعر مشهور طبع فى مصر وغيرها

ومات الشريف سنة ٤٠٦ ببغداد ولم يحضر أخوه المرتضي جنازته حزنا عليه ، ورثاه الشعراء من زمانه ومنهم المعرى

ومن بديع قول الشريف فى الشيب

١ غالطونى عن المشيب وقالوا لا تُرَع انه جِلاء حسام

٢ أيها الصبح زل ذميا فما أظلمَ يومى من بعد ذاك الظلام

٣ أرمضت شمسك المنيرة فَوْدَىّ فمن لي بظل ذاك الغمام

٧ قلت ما أمنُ مَن على الرأس منه صارم الحدِّ فى يد الأيام

وقوله يصف سوداء

أحبكِ يا لون السواد لأننى رأيتكما فى القلب والعين توءما
سكنتِ سوادالقلب اذ كنت شبهه فلم أدرِ من عزٍّ مَن القلب منكما

مهيار الديلمى

هو أبو الحسين مهيار بن مَرْزَوَيْه الشاعر الكاتب أحد الشعراء المطبوعين والفحول المجيدين

كان مجوسيا وأسلم على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج فى نظم الشعر ووازن كثيرا من قصائده،وعلى منواله نَسج،حتى أنه يُخيِّل لقارئ الديوانين أن ناظمهما واحد ، غير انه يلاحظ فى كلام مهيار سهولة وجنوحا عن الغريب ، ويُرى فى كلام الشريف بُعد تصور ودقة خيال .فهو يلى الشريف فى طريقته وفيهما تحقق معنى التلميذ والاستاذ

سكن بغداد وأقام بها يخدم بالكتابة فى ديوان الخلافة ومات سنة ٤٢٨

ومن شعره

بَكرَ العارضُ تحدُوه النُّعامي (١) فسقاك الرى يا دار اماما
وبجرعاء الحمى قلبي فعُج بالحمى واقرأ على قلبى السلاما
وترجل فتحدث عجبا أن قلبا سار عن جسم أقاما
قُلْ لجيران الغضى آهاً على طِيبِ عيش بالغضى لو كان داما

(١) العارض السحاب والنعامي ريح الجنوب أو بينه وبين الصبا

يَصِلُ العامُ ولا ينسا كمو   وقُصارى الوجد أن يسلخَ عاما
حمّلوا ريح الصَّبا من نَشركم   قبل أن تحمل شِيحاً وخُزامى
وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى   إن أذِنتم لجفونى أن تناما

وهى طويلة.

وله فى القناعة

تلحى على البخل الشحيحَ بماله   أفلا تكونُ بماء وجهك أبخلا
أكرمْ يديك عن السؤال فانما   قدرُ الحياة أقلُّ من أن تَسألا
ولقد أضمّ إلىّ فضل قناعتى   وأبيت مشتملا بها مُتزمّلا
فأُرِى العدوّ على الخصام بشاشةً   تصف الغنى فيخالنى متمولا
واذا امرؤ أفنى الليالى حسرة   وأمانيا أفنيتهنّ توكلا

وله ديوان شعر كبير يقع فى أربعة أجزاء طبع منها الجزء الأول ببيروت.

الطغرائى (١)

هو مؤيد الدين الاستاذ العميد فخر الكتاب أبو اسمعيل الحسين بن على بن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم.

وهو أصبهانى الاصل ، برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه ، ولم ينبغ فى المشرق بعده من يضاهيه وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق حتى كان وزيرا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقى بالموصل . ولماقهره

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فوق البسملة بخط خاص (يسمى الهمايونى الان) فيها نعوت السلطان والقابه.

أخوه السلطان محمود كان أول من اعتقله الاستاذ أبو اسمعيل الطغرائى. فدس بعض حسدته من رؤساء الكتاب الى محمود انه ملحد فقتله ظلما سنة ٥١٣ وله ديوان شعر مطبوع فى الاستانة . ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر وقد كان قالها ببغداد أثناء عطلة له من التصرف وهي مشهورة مشروحة بشروح كبار وصغار أكثرها مطبوع

ومن رقيق شعره

يا قلب مالك والهوى من بعدما طاب السلو وأقصر العشاق
أو ما بدالك في الافاقة والألى نازعتهم كاس الغرام أفاقوا
مرض النسيم وصح والداء الذى تشكوه لا يرجى له افراق
وهدا خفوق البرق والقلب الذى تطوى عليه أضالعى خفاق

حالة اللغة العربية

﴿ فى الممالك الغربية ﴾

ونعنى بها (بلاد الجزيرة والثغور والشام ومصر) وأفردناها بكلام خاص لأن حالة اللغة العربيــة فيها تباين حالتها فى الممالك الشرقية اذ كان حكامها وشعوبها القاطنون بها اما سلائل عرب أو مستعربين لم يعــد للعجمة أثر بينهــم ، ولان معظم هــذه الممالك كان يكون تابعاً لصاحب مصر فى غالب الأحيان فالحوادث التى تؤثر فى أحوالها واحدة

ولمــا غلب متغلبو الفرس والترك على خلفاء بنى العبــاس لم يجد أمراء

العرب وجهاً لخضوعهم لهؤلاء المتغلبين ، فاستقلوا هم أيضاً بالجهات التى كانت تنزلها قبائلهم ، ووجد الخلفاء الفاطميون بالمغرب انهم أولى من هؤلاء الديالم والاتراك ،فا كتسحوا مصر والشام و بعض الجزيرة واستولوا على الحجاز وأسسوا دولة عربية ضخمة بقيت نحو ٢٧٠ سنة ثم ضعف أمرهم بغارة الصليبيين ومنازعة مواليهم و وزرائهم لهم فى السلطان على مثل ما كان فى الدولة العباسية ، حتى أبادهم صلاح الدين الايوبى ، وأسس هو وأولاده وأولاد أخيه وأحفادهم دولا كردية النسب عربية اللسان والنزعة ، و بقيت دولهم حتى انتزعها منهم مواليهم من التركمان وسقطت أثناء ذلك الدولة العباسية

أما أمراء العرب الذين استقلوا ببعض الامارات فى أواخر العصر الاول الى أواسط الثانى ، فهم بنو حمدان بالجزيرة وحلب ثم بنو عقيل و بنو منقذ فى هذه البلاد أيضاً ، و بنو أسد بالحلة وكان أكثرهم فصحاء شعراء يجزلون عطايا الشعراء و يكرمون الادباء

ولهذا بقيت العربية زاهية زاهرة فى هذه الممالك غالبة على لسان أهليها، ولبثت الآداب من الشعر والخطابة والكتابة متمكنة من ملكات أدبائها الى عصرنا هذا ، على حين أنها انقرضت من ممالك المشرق منذ أواسط القرن السادس ، ولكن قرب الجوار أعداها ببعض ما اعترى اللغة من الصبغة الفارسية في العصر الأول والثاني

وكان اشتغال قطان الممالك الغربية بالادب يربو على اشتغال قطان المشرق حتى بغداد ، كما كان انكباب هؤلاء على العلوم العقلية واستخراج

دقائقها لا يعادلهم فيه أحد

وكانت أساليب اللغة العربية فى الممالك المغربية ترق وتسهل فى الزمن الذى فيه فى المشرق ترك وتصعب ، وخاصة الشعر

النثر

« اللغة العامية « أو لغة التخاطب » »

لا يعد هذا التفاوت الذى ذكرناه الا شيئاً يسيرا فى جانب ان لغة عامة الشعوب فى هذه الممالك كانت فى هذا العصر ولا تزال عربية الصبغة وهى فى ممالك المشرق أعجمية

والمتتبع لما أثر عن عوام مصر والشام من لغتهم فيما حفظ فى بعض المواويل والازجال التى عثرنا عليها يظن ان نسبتها الى الفصيحة كنسبة عامية المتعلمين فى زمننا اليها أى ان نحو ثلثى ألفاظها صحيح البناء وأن أواخرها مطلق من الاعراب

الخطابة

قلما كانت الخطابة فى هذه الممالك تستعمل قبل الحروب الصليبية فى غير خطب الجمع والعيدين والزواج . فلما دهم المسلمين مادهمهم من غارة أوربا الصليبية ظهر بينهم كثير من الوعاظ والخطباء والمحرضين على الجهاد ، ولكن

هذه الخطب لم تكن باللسان البليغ الذى لا يفهمه الا الخاصة ، بل كانت باللغة الفصيحة العادية

ولم يعد من بلغاء الخطباء الا خطباء المساجد الجامعة فى كبار المدن

ومن أشهر خطباء هـذا الزمن الامام البليغ الخطيب المصقع أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسمعيل بن نباته خطيب سيف الدولة الحمدانى بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ صاحب ديوان الخطب المشهور المطبوع ببيروت

والامام أبو المعالى محمد بن على محيى الدين المعروف بابن ذكى الدين الدمشقى خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد فتحه من يد الصليبيين وتوفى سنة ٥٦٤

وأبو اسحق ابراهيم بن منصور بن المسلم المصرى المعروف بالعراقى خطيب جامع الفسطاط المتوفى سنة ٦١٣

الـكتابة

كتابة الرسائل

كانت فى النصف الاول من هذا العصر على مثل ما كانت عليه فى المشرق ، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع ، أى مدة بنى حمدان والفاطميين

وكان آخر من نسج على هـذا المنوال العماد الـكاتب الاصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧

ولما نبه شأن القاضى الفاضل فى أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكى كتاب المشرق فى البديع ، فزاد عليهم وأربى ، واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمى (الطريقة الفاضلية) وذلك انه جارى من قبله من كتاب المشرق فى التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم ان استعمل فى رسائله أكثر أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ فى الشعر كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها، وأكثر من حل المنظوم ،واقتباس الآيات، وتضمين الامثال ومشهور الاقوال، وأمعن فى التشبيه والاستعارة ، مع قلة المبالاة بالمبالغة والاغراق فى ذلك، حتى جاءت معانى رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر في رسائله بقدر ما ظهر فى رسائل من خلفه فى دواوين الانشاء بمصر والشام، لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته فى اللغة ووفرة محفوظه من الادب . فلما جرى فى حلبته من ليس فى صفاته حسب أن البلاغة تملك ناصيتها بعشرات من أنواع البديع، فاسترسل في تكلفها تكلفا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة . ولم يظهر أثر ذلك جليا الا بعد سقوط بغداد وتراجع الرسائل العربية الى دواوين مصر والشام والمغرب

الكتاب

برع فى كتابة الرسائل الديوانية فى هذه الاقطار عدة بلغاء منهم

(١) ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن الاثير صاحب المثل السائر المتوفي سنة ٦٣٧

(٢) أبوالقاسم على بن منجب بن الصيرفى المصرى المتوفي بعد سنة ٥٥٠

(٣) موفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال كاتب المصريين وصاحب ديوان الانشاء المتوفى سنه ٥٦٦

(٤) الامير أبو المظفر أسامة بن مرشد الشهير بابن منقذ المتوفى سنه ٥٨٤

(٥) أبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الاصبهاني المتوفي سنة ٥٩٧

(٦) القاضي الفاضل ونذكر هنا ترجمته

القاضي الفاضل

هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضى الأشرف بهاء الدين أبي المجد على البَيْسانى اللَّخمِي كاتب الديار المصرية وصاحب الطريقة الفاضلية ،والكتابة البديعية ، ووزير صلاح الدين ومدبر مملكته فى الحروب الصليبية

وهو عربى الاصل من بيت علم وقضاء . وكان أبوه من أهل عسقلان قاضيا عليها، ثم تولى نيابة الحكم بمدينة بَيْسان من أرض فِلَسطين فنسب اليها

ولد القاضى الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ وتعلم على أبيه وغيره . ولما شدا العربية قدم مصر وهو شاب صغير لتعلم الكتابة والخدمة في الديوان فى أواخر الدولة الفاطمية ، وتوجه الى ثغر الاسكندرية للخدمة فى ديوان ابن حديد قاضى الاسكندرية وكاتبها ،فتعلم عليه ، وكانت كُتبه البليغة ترد بانشاء القاضى الفاضل الى القاهرة ، وظهر بها فضله ، فاستُقدم أيام الظافر الى القاهرة ودخل فى عداد كتاب ديوانه ، غير أنه لم يقنع بما حصّل بل لازم خدمة أكابر القضاة والكتاب فى الديوان ،وأخذ عنهم وحاكاهم ، مثل القاضي أبي الفتح

محمود بن قادوس وموفق الدين يوسف بن الخلال وغيرهما من رؤساء دواوين الانشاء ، فمهر في الكتابة ، وطوح به استقلاله الى توليد طريقة غريبة أخذ أصولها من بعض كتاب الشام والعراق و بعض كتاب الدولة المصرية، فجعل أصولها السجع والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح، وغالى جدا فى التورية والجناس، فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضة تجرى مع مناسبات الالفاظ أكثر من جريانها مع اصابة الغرض والبلاغة العربية

وكانت كتابة الفاضل مع كل هذه القيود مقبولة بليغة فى ذاتها لطول باعه فى اللغة و كثرة اطلاعه على صنوف الكتابة وسرعة بديهته وصفاء خاطره، الا أن طريقته خدعت بعده كتاب مصر والشام وغرّبت الى الاندلس ، فجاراه فى كتابته كل قليل البضاعة من الادب معتمدا على تعمل البديع الذي لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا من أساليب الكلام. وظهرت سيئات هذه الطريقة مجسمة فى القرن السابع والثامن فى دولة المماليك فضُربت بها الكتابة ضربة لم تنتعش منها حتى فاجأتها ضربة أشد وأنكى بجعل اللغة الرسمية هى التركية زمن العثمانيين

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى القاضى الفاضل وزارة صلاح الدين وكان يتردد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية ودبر المملكة أحسن تدبير وصدرت عنه مكاتبات بين مصر والشام و بينهما و بين دار الخلافة في العراق مما لو أحصى لبلغ مجلدات، ولا تزال كتب التاريخ والأدب ملأى بكثير منها و بقى في وزارة صلاح الدين حتى مات ، فوزر لابنه العزيز على مصر،

ثم وزر من بعده لأخيه الملك الأفضل ثم نازع الملكُ العادل أخو صلاح الدين ابنَ أخيه وملك مصر، فمات القاضي الفاضل في يوم دخوله القاهرة سنة ٥٩٦

وكان القاضى الفاضل خيراً ديناً محسناً وفياً محباً لجمع الكتب وبلغ عدد كتبه التى جمعها من أقطار الارض مائة ألف مجلد، ووقف أوقافا على مدارسه التى بناها للشافعية والمالكية وفكّ رقاب الاسرى . وله رسائل كثيرة مطولة

ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عَيذاب الى صلاح الدين يتشفع له فى توليه خطابة الكَرَك وهى

« أدام الله السلطان الملك الناصر[1] وثبّته، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوّه قائلا أو بيّته، وأرغم أنفه بسيفه وكَبَته

خِدْمَةُ المملوكِ هذه واردةٌ على يد خطيب عَيذاب. ولمّا نَبَا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التى طبّق الارضَ ذِكْرُها، ووجب على أهلها شكرُها، هاجرَ من هَجير عيذاب ومِلْحها، ساريا فى ليلة أمل كلّها نهار فلا يسأل عن صبحها، وقد رغب فى خَطابة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالمملوك فى هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر الى الشام وعن عيذاب الى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولُطْفُ الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام

وله شعر بديع وفى رأيى أن شعره أرق من كتابته وأبلغ

---

(١) لقب صلاح الدين

التدوين والتصنيف

في الممالك الغربية

كان اشتغال علماء الجزيرة والشام بتدوين العلوم الادبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء المشرق ، غير ان استيلاء بني حمدان و بني عقيل و بني منقذ والفاطميين على هذه الممالك أكثر من ثلثمائة سنة ، والجميع شيعة غالية جعل قرائح علمائها تنصرف الى تدوين فقه الشيعة والتفنن فيه وفي عقائدهم . وكان هؤلاء الخلفاء والامراء أولى شغف عظيم بالحكمة والنجامة وسائر العلوم العقلية والطبيعية . فدون لهم علماؤهم فيها وفي فقهم وعقائدهم ألوف الكتب وجمعوا في دور كتبهم وخزائنهم منها ومن كتب غيرهم مئات الالوف من المجلدات في مصر القاهرة وطرابلس الشام ودمشق وحلب وغيرها. فلما توالت المحن والمصائب على بلاد الجزيرة والشام بالثورات الاهلية و بغارة الصليبيين وأحرقت المدن وخربت انقرضت الكتب وعفت آثارها . ويقال ان دار الكتب التي أحرقها الصليبيون بطرابلس الشام كانت تحتوي على ثلاثة آلاف ألف مجلد ، ولو قدر ان هذا العدد مبالغ فيه الى عشرة أمثاله لكان البقية شيئا جما . وعقب هذا ماقام به صلاح الدين الايوبي من تبديد كتب الفاطمية و بيعها للوراقين وأصحاب المواقد تعفية لآثارهم وتدميرا على عقائدهم ، ففقد مع كتبهم شئ خطير من كتب غيرهم ، وبقيت الكتب الادبية والتاريخية

اقتناها واحتبسها منها لنفســه القاضي الفاضل ، ومن خزانته انتشرت فى بقاع الارض

وفى عصر الدولة الايوبية كانت حركة التدوين منصرفة الى تنويع كتب الحديث وتجديد فقه الشافعية والمالكية وتأييد مذهب الاشاعرة فى الكلام وسير الابطال والغزوات بمعاضدة صلاح الدين وآل بيته . فألفت فى جميع ذلك كتب مختلفة لايزال كثير منها باقيا بعد

ومع كل هذا لم تصل عناية علماء هــذه الممالك بتدوين العلوم ولا سيما العقلية منها مبلغ عناية علماء المشارقة لتأثير عظمة بغداد والمدرسة النظامية فى الشرق ،ولاشتغال بال المسلمين فى الجزيرة والشام ومصر بالغارة الصليبية أكثر من مائتى سنة . وأعقبها غارة التتار المشئومة على الجميع ، ولله الامر من قبل ومن بعد

كتابة التصنيف

فى الممالك العربية

كانت كتابة التصنيف فى هذه الممالك على نحو ما كانت عليه فى المشرق من حيث النظام والتقسيم غير أنها كانت أقرب الى الفصاحة والسهولة ووضوح المعانى والاغراض وتحرير العبارة وأحكامها من كتابة المشارقة . ويظهر هذا الفرق كل الظهور فى كتب العلم وخاصة كتب فقه الشافعية أواخر هذا العصر . أما كتب المالكية فبقيت خالية من مزايا صناعة التأليف حتى أتى ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وعمل مختصره فكان من أجل كتبهم . وعلى هذا الاثر

درج علم الاصول

ونشير هنا لكلمات قليلة الى مجمل حالة العلوم فى الممالك العربية مراعاة للنظام وتوفية للمقام

﴿ مجمل حالة العلوم الاسلامية والدخيلة ﴾

الادب

كان الأدب فى الجزيرة والشام ومصر فاشيا فى كتابة الدواوين وقول الشعر وحفظ مادته ودراية أخباره ومحاضرته أكثر من فشوه فى صناعة التأليف فكان الادباء جلهم شعراء أو كتابا بحيث لم يغلب على أديب منهم التأليف فى الادب حتى نعده فى عداد كتابه فحسب ، بل ان كثيراً من العلماء والمؤرخين والمحدثين والنحاة كانت لهم كتب فى الادب كما كانت لهم فى فنونهم

ومن أفضل من صنف فى الادب من الشعراء أبو العلاء المعرى ومن الكتاب العماد الكاتب الاصبهاني والقاضى الفاضل وعلى بن ظافر صاحب بدائع البدائة المتوفى سنة ٦٢٣ وعلى بن منجب بن الصيرفى المصري المتوفى بعد سنة ٥٥٠ وابن الاثير نصر بن محمد المتوفى سنة ٦٣٧

ومن المؤرخين محمد بن عبيد الله المسبحي المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٤٢٠ والحسن بن ابراهيم بن زولاق المصرى المتوفى سنة ٣٨٧ والقاضى على بن يوسف القفطى ثم الحلبي المتوفى سنة ٦٤٦ وغيرهم

ودخل فى غمار كتاب الادب فى الجزيرة والشام ومصر أزمان الحروب

الصليبية جماعة صنفوا قصصاً حماسية تتضمن سير الشجعان ومكايد الحروب ويرجع أكثرها الى أصول تاريخية بولغ فيها . منها قصة عنترة بن شداد وزاد فيها القصاص على طول الزمان أشعارا ووقائع ، ويغلب على عبارتها السجع وقصة ذات الهمة، وأظن أن مؤلفها لم يتمها . وكثير غيرهما من كتب من القصص التى حوى بها كتب المغازى وفتوح البلدان، وهى محشوة بالمبالغات ومكتوبة بعبارة منحطة عن كتابة أصحاب المغازى. والتبس أمرها على بعض من يتعاطى التأليف فى زماننا فذكرها فى عداد كتب الواقدى وابن اسحق وغيرهما لان بعض الناسخين نحلها هذه الاسماء كما نحلوا رواية قصة عنترة الاصمعى، وعدوه ممن عمر وأدرك الجاهلية والاسلام

النحو

أما النحو فى هذه الممالك فكانت حالته في الجملة أشبه بحالته فى المشرق أو تنقص قليلا ومن أفاضل النحويين فيها

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد بن النحاس المتوفى غرقا فى النيل سنة ٣٣٧

(٢) أبو عبد الله الحسين أحمد بن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠

(٣) أبو الحسين يحيى بن معط نزيل مصر والشام صاحب الفية ابن معط المتوفى سنة ٦٢٨

(٤) أبو محمد عبد الله بن برى المقدسى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢

(٥) أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر الشهير بابن الحاجب صاحب

الشافية فى الصرف والكافية والامالى فى النحو أفضل هذا العصر وتوفى سنة ٦٤٦

اللغة

أما اللغة فليس لهذه الممالك فيها طول هذا العصر من عمل كبير أهم من كتاب كتاب النهاية شرح غريب الحديث لابى السعادات المبارك بن محمد المشهور بابن الأثير الجزرى اللغوى المحدث المتوفى سنة ٦٠٦ وطبع فى مصر مرتين في أربعة أجزاء وهو من أمهات كتب اللغة

علوم البلاغة

لم يزد علماء هذه الممالك في البلاغة على ماوضعه علماء المشرق غير البديع فقد زاد فيه عبد العظيم بن أبي الاصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ أنواعا كثيرة أوصالها الى تسعين نوعا في كتابه تحرير التحبير. واذا اعتبرنا ان كثيرا من مباحث كتاب المثل السائر لأبي الفتح ضياء نصر بن محمد بن الأثير الكاتب المتوفى سنة ٦٣٧ من صميم علوم البلاغة عددناه من خير كتبها لولا عجب في صاحبه

التفسير والحديث

أما هذان الفنان فقد كانت الطريقة فيهما هى طريقة المشارقة بعينها ولم يظهر فيها تأليف عظيم أفضل مما ألفه هؤلاء، وانما زادت العناية فى هذه الممالك بقسم طبقات الرجال ونقدهم

ومن أفضل محدثي هذا العصر الامام الحافظ أبوا القاسم على بن الحسن المعروف بان عساكر ان الدمشق المتوفى سنة ٥٧١ والامام أبوطاهر أحمد بن محمد السلفى محدث الاسكندريه المتوفى سنة ٥٧٦

الفقه والاصول

كان هذا العصر عصر تحرير الفقه والاصول وتنقيحهما ولكن ذلك لم يتم فى مصر والشام الافى أخرياته لمزاحمة فقه الشيعة من الفواطمية والاسماعيلية لفقه أهل السنة فى حين ان المشرق كان فى شغل شاغل به . ولما قطع صلاح الدين دابر الفاطمية بذل جهده فى نشر فقه أهـل السنة وخاصه فقه الشافعية وأكثر هو و وزراؤه من بناء المدارس وحبس الجرايات عليهاوتيسير الطلب على أهل العلم.

وممن ربى فى احضان هذه الدولة من العلماء تقى الدين أبو عمرو عثمان ابن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ وشيخ الاسلام أبو ذكريا النووى.

الكلام

كان لعقائد الشيعة والباطنية فى هذه الممالك رواج في مدة الدولة الفاطمية ثم ساد مذهب الاشعرى فيها بعد هلاكهم ،و بقى كذلك الى الآن. ومعظم علمائه هم علماء الفقه والاصول

العلوم الرضية

راجت هذه العلوم بأنواعها فى مدة الدولة الفاطمية وكانت خزانة كتب العزيز ودار الحكمة والمرصد اللذان أنشأهما الحاكم أعظم مظهر لذلك

وممن نبغ فى هذا العصر من الحكماء والفلكيين والرياضيين ابن يونس الفلكى المصرى وابن الهيثم الرياضى نزيل مصر وابن رضوان الطبيب وابن البيطار صاحب المفردات وغيرهم

التاريخ

زادت عناية المؤرخين فى هذا العصر بالتاريخ الخاصة بالممالك وكبار المدن والسير وتاريخ الرجال

ومن أكبر مؤرخيهم

(١) أبو عمر الكندى المصرى المتوفى سنة ٣٥٥ صاحب قضاة مصر وفضائل مصر وتاريخ مصر

(٢) وأبو محمد الحسن بن زولاق المتوفى سنه ٣٨٧ المقتفى أثر الكندى فى تكميل كتبه والنسج على منواله

(٣) والامير محمد بن عبيد المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب أكبر كتاب لتاريخ مصر

(٤) وأبو عبد الله محمد القضاعي صاحب خطط مصر المتوفى سنة ٤٥٤

(٥) والامام الكبير المحدث أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن

عساكر الدمشقى المتوفى سنة ٥٧١ صاحب تاريخ دمشق العظيم فى ثمانين مجلدة كبارا

(٦) وأبو عبد الله محمد الملقب عماد الدين الكاتب الاصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ صاحب كتاب خريدة القصر فى طبقات الشعراء الصليبية وكتاب الفتح القدس والسيل على الذيل ذيل به ذيل السمعانى على تاريخ بغداد وكتاب أخبار آل سلجوق

(٧) والقاضى بهاء الدين يوسف بن شداد المتوفى سنه ٦٣٢ صاحب سيرة صلاح الدين وغيرهم من المؤرخين

الشعر

فى الجزيرة والشام ومصر

نكتفى فى وصف حالةشعراء الشام وما يقاربها من أرض الجزيرة بملخص وجيز من كلام أبى منصور الثعالبى فى يتيمته وهو من فحول أدباء هذا العصر وأهل البصر بالشعر قال

لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والاسلام ، والكلام يطول فى ذكر المتقدمين منهم ، فأما العصريون ففيما أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدمهم

والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة

ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم . ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم، ومامنهم الا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم فى الاجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . وما نبغ فحل من أدباء المشرق الا استقى من معين أدباء الشام والجزيرة ، اما بالاصالة منهم أو بالاخذ عمن أخذ عنهم وانكب على حفظ أقوالهم ومدارسة أدبهم ، ومن هؤلاء أبو بكر الخوارزمى والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى والصاحب بن عباد وكان له دفتر خاص بأدب أهل الشام لا يزال ينظر فيه و يعجب به، انتهي ببعض تصرف

وبقيت حالة الشعر على ما وصفه الى قبيل انتهاء هذا العصر ، وفى القرن الاخير شاركت مصر الشام والجزيرة ، ونبغ فيها كثيرون فى أزمان الحروب الصليبية

وكانت اغراض الشعر وموضوعاته عين ما كانت عليه فى الشرق الا ما كان من شعر أبي العلاء فى اللزوميات ، فانه تعرض لاغراض شتى من فلسفة واجتماع وغيرهما ، ولكن معانى الشعر وخيالاته وتصوراته اختلفت كثيرا عن مثلها فى شعر الشرق بما أدخله أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعرى من الحكم والامثال وشرح الحقائق الطبيعية والفكرية وغيرهما . وأما أسلوبه فكان الى

متصف هـذا العصر متينا رصينا ، ثم دخلته المحسنات البديعيـة بالتدريج مع السهولة والرقة

الشعراء

أما الشعراء الذين نبغوا فى هذا العصر فى الجزيرة والشام ومصر فكثير لا يحصون . فمنهم

(١) ملك الشعر وحكيمه أبو الطيب المتنبى وسنترجم له بعد

(٢) وأبو فراس الحمدانى وسنذكره أيضا

(٣) وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالوأواء الدمشقى المتوفى سنة نيف وتسعين وثلثمائة

(٤) والسرى بن أحمد الكندى المعروف بالرفاء المتوفى سنة ٣٦٣

(٥) وأبو الفرج عبد الواحد الببَّغاء المتوفي سنة ٣٩٨

(٦) وأبو العباس محمد النامى المتوفى سنة ٣٩٩

(٧) وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان ـ توفى أبو بكر سنة ٣٨٠ وأبو عثمان فى حدود سنة ٤٠٠ وكل هؤلاء من شعراء سيف الدولة

(٨) وشيخ المعرة وزاهدها وحكيمها أبو العلاء المعرى وسنذكره

(٩) وأبو على الامير تميم بن المعز الفاطمى المتوفى سنة ٣٧٤

(١٠) وأبو حامد أحمد بن محمد الانطاكى المعروف بأبى الرقَعمَق المتوفى سنة ٣٩٩

(١١) وعبد المحسن بن محمد الصُورى المتوفي سنة ٤٧٣

(١٢) وأبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣

(١٣) وأبو عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقى المتوفى سنة ٥١٧

(١٤) والقاضى أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الاسكندرى المتوفى سنة ٥٣٢

(١٥) ومهذب الدين محمد بن منير الطرابلسى المتوفي سنة ٥٤٨

(١٦) والقاضى الرشيد أبو الحسن المعروف بابن الزبير الغسانى الاسوانى المقتول سنة ٥٦٣

(١٧) والقاضى السعيد هبة الله بن جعفر الملقب بابن سناء الملك المتوفى سنة ٥٩٢

(١٨) وخاتمة الشعراء أبو المحاسن محمد بن الحسين بن عُنَين المتوفى سنة ٦٣٠

أبو الطيب المتنبي

هو المثل السائر والفلك الدائر الشاعر الحكيم أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجُعْفى الكندي الكوفى المتنبى خاتم ثلاثة الشعراء وغاية ما بلغه الشعر من الارتقاء

منشؤه ومرباه: — وهو عربى صميم من جُعفىّ بن سعد العشيرة احدى قبائل اليمانية . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ فى محلة كندة فنسب اليها وليس بكندى ، ونشأ بها ، وأكب على تعلم العربية من صباه . وكان نادرة فى الحفظ

يحفظ كل ما يقرؤه. فنبغ في اللغة نبوغا جعله يحيط بغريبها وحُوشيها، وكان لايسأل عن شئ الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل أن الشيخ أبا على الفارسى قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فِعلى؟ فقال المتنبى فى الحال(حجلى وظربى) قال أبو على (فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد)

وكان أبوه فيما يقال سقاء ، فخرج به الى الشام . ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون الا بالمعيشة فى البادية . فخرج الى بادية بنى كلب، وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ، ويأخذ عنهم اللغة، اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية ، فعظم شأنه بينهم،ونفذ أمره فيهم . وكان الاعراب الضاربون بمشارق الشام شديدى الشغب على ولاتها، فوشى بعضهم الى لؤلؤ أمير حمص من قِبل الاخشيدية بأن أبا الطيب ادعى النبوة في بنى كلب، وأنه تبعه منهم خلق كثير بحيث يخشى على ملك الشام منه. فخرج لؤلؤ وحارب بنى كلب وقبض على أبى الطيب وسجنه طويلا، ثم استتابه وأطلقه

وهذا ما أراه، وهو المقبول، اذ لا يعقل أن صبيا في هذه السن يغوى قبيلة مسلمة فصيحة، ويخرجها عن الاسلام بهذيان يقوله من الاسجاع التى يروون أنه ادعى نزولها عليه مثل (والنجم السيار، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفى أخطار . أمض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين وضل عن السبيل)

مع أن أقل صعلوك فى بنى كاب يرتجل خيرا منها . ولعل وجود أبى الطيب فى عصر كله فتن وخوارج على الخلفاء ، وكل من قدر على اقتطاع أرض بالقوة ملكها ، أطمعه ان يخرج الى البادية ، ويعيش فيها مدة يتخذ له فيها أنصارا يغير بهم على أطراف العراق والشام . ولذلك نجد فى كلام من يروى حكاية تنبئه ادعاءه انه شريف علوى. وما ذاك الاطمعا فى اقامة دولة بين قوم يجهلون حقيقة نسبه . والافكيف يدعى نسبته الى محمد صلى الله عليه وسلم ويخرج عليه بدين آخر

وخرج أبو الطيب من السجن وقد لصق به اسم المتنبى مع كراهته له وشدة جحوده وانكاره ما نسب اليه . والظاهر أن مما روج هذه الاشاعة وسهل قبولها علو همة أبى الطيب وشدة تعاظمه وتكبره وأنفته وميله الى أن يكون أميرا أو واليا، وتذرعه لذلك بتعلم الفروسيه وحضور المعارك مع سيف الدولة وصبره فى مقام الطعن والضرب . فرأوا أن من تكون هذه همته بعد خذلانه لا يبعد أن تكون سمت به الى مقام النبوة، والعصر عصر قرامطة وباطنية يسوغ فيه استماع مثل هذه الأراجيف

ولما خرج أبو الطيب من السجن لحق سنة ٣٣٧ بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة والثغور ، فمدحه بمدائح خلدت وخلّدت اسمه أبد الدهر .وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم،وحدث فى واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة، وتشتت جنده، وهلكت أتباعه، وثبت فى ستة نفر أحدهم أبو الطيب، فاخترقوا صفوف العدو ونجوا . و بقى أثيرا عند سيف الدولة

مقدما على جميع حاشيته و بطانته مع صلفه وتيهه، فحسده بطانته، فوشوا به اليه وكان أشدهم فى ذلك ابن خالويه النحوى، فجرت مناظرة بينه و بين أبى الطيب في مجلسه، فضرب به ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجه، ولم ينتصف منه سيف الدولة، فخرج الى مصر سنة ٣٤٦ مغاضبا لسيف الدولة ، قاصدا كافورا الاخشيدى، ووعده هذا أن يوليه، فطمع أن تتم فى مصر أمنيته، وصاحبها أسود خصى ، فمدحه بقصائد سنية . ولما رأى كافور تعاليه في شعره وسموه بنفسه ، خافه . وعوتب فيه فقال : ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور ؟ فحسبكم. فأدرك أبو الطيب نيته وعاتبه عتابا أمضه ، واستأذنه فى الخروج من مصر ، فلم يأذن ، وماطله خوفا من هجائه . فاستغفله فى ليلة عيد النحر وخرج من مصر سالكا طريق صحراء طورسينا وبادية الشام حتى خرج الى الكوفة ودخل بغداد، ولاقى بها الادباء والرؤساء . ثم خرج الى عضد الدولة فمدحه ومدح ابن العميد ، ورجع من عندهما بالاموال الطائلة والذخائر والاعلاق النفيسة الى أمواله التى جمعها بحرصه وبخله ، فعاد الى بغداد ، وخرج منها الى الكوفة ، فخرج عليه أعراب بنى ضبة ، وفيهم فاتك ابن أبى جهل، وكان قد هجاه هجاء مُقذِعا. فقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل هو وابنه مُحسَّد وغلامه مُفلح ، وقيل : انه لما رأى الغلبة عليه همّ بالفرار ، فقال له أحد غلمانه : لايتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل

فالخيل والليـل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال : قتلتنى قتلك الله ! وكر راجعا وقاتل حتى قتل سنة ٣٥٤

أخلاقه وصفاته: — كان المتنبي بعيد الهمة، قوى الشكيمة، شجاعا صنديدا، يتشبه بالملوك، ولا يمشى ولا يدخل على الملوك الا وهو متقلد سيفه، وقلما ينشدهم الا جالساً ويركب فى موكب من مماليكه مدججين بالاسلحة، وكان عفيفا قليل المزاح، لم يشرب النبيذ الا مرة واحدة، وكان مع كل هذه الصفات بخيلا شديد الحرص، ولعله كان ينتظر أن يكون له من ماله دولة تحقق أطماعه

منزلته فى الشعر: — لا خلاف بين جميع من كتب فى الشعر العربي أنه لم ينبغ فى الشعر بعد المتنبي من بلغ شأوه أو داناه، والمعرى على بعد غوره، وفرط ذكائه، وتوقد خاطره، وشدة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية، يعترف بأبى الطيب ويقدمه على نفسه وغيره. وانما الخلاف فى أى الثلاثة أشعر؟ أأبو الطيب أم أبو تمام أم البحترى؟ والمنصفون يخرجون البحترى من موضوع الخلاف كما أخرجه أبو الطيب، ويقولون انه هو الشاعر الحقيقى، وأن كلامه أرق من كلامهم وخياله خيال شاعر، ويجعلون موضوع الخلاف كلام أبى تمام والمتنبي لانهما شاعران حكيمان، أى أنهما غلبا جانب المعنى والحكمة على جانب اللفظ، ولهم فى الموازنة والمفاضلة بينهما كلام عريض. والنتيجة التي يرضاها كل من تتبع كلامهما ان أبا تمام ألين كلاما وأقرب الى الاساليب الشعرية من المتنبى، وأن المتنبي أغزر حكمة وأسير مثلا وأدق معنى

وللمتنبى من الحكمة والامثال ما يربو به على كل شاعر تقدمه، وقد

أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه ، ومامن كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس الا وله من حكم المتنبى مدد أيما مدد

ولثقة المتنبى بنفسه فى اللغة والنحو وقلة حفله بعلماء زمانه وتكبره وصلفه جعل غايته من شعره ابراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة ، على أى لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له ولو لم يجر على مشهور القياس ، أو ينطبق على وجوه البلاغه والاساليب الشعرية السهلة ، ولذلك تجد فى كلامه كثيرا من الغرابة ومن التعقيد المعنوى واللفظى ، ولكنه طرح التورية والجناس الشائعين فى زمنه جانبا ، ولولا شذوذه وميله الى الغريب ، ومخالفته لذوق بعض أهل زمانه ، لم يكن لحساده مطعن عليه ، وقد ولا تعدم الحسناء ذاما

وقد قال المتنبى الشعر فى كل غرض من أغراضه وأجاد فى وصف المعارك والعتاب ، أما مدائحه فهى أكثر بضاعته ، وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه

وللمتنبى ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وشرح بأكثر من أربعين شرحا ، منها شرح العُكبَرِى فى جزأين كبيرين ، وهو مطبوع مشهور فى مصر وشعره مشهور محفوظ نكتفى منه بذكر بعض حكمه وأمثاله .

أبيات متفرقة للمتنبى

وكل امرئ يولى الجميل محبب ... وكل مكان يُنبت العز طيب

فى سَعة الخافِقَين مضطرَبٌ ... وفى بلاد من أختها بدل

---

٧ من يَهُن يسهل الهوانُ عليه ... ما لجُرح بميّت ايلام

الحب ما منع الكلامَ الألسُنَا … وألذُّ شكوى عاشق ما أعلنا

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن … يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وأتعب من ناداك من لا تجيبه … وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته … وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا … مضر كوضع السيف فى موضع الندى
وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهمُ … ومن لك بالحرّ الذى يحفظ اليدا

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى … بأصعبَ من أن أجمع الجَدَّ والفهما

يخفى العداوة وهى غير خفية … نظرُ العدو بما أسَرَّ يبوح

والأمر لله ! رُبَّ مجتهد … ما خاب إلا لأنه جاهدْ

اليك ! فانى لست ممن اذا اتقى … عِضاض الأفاعى نام فوق العقارب

وليس يصح فى الأذهان شئ … اذا احتاج النهار الى دليل

وقد يتزيا بالهوى غير أهله … ويستصحب الانسان من لا يشاكله

ما كل ما يتمنى المرء يدركه … تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى … عدواً له ما من صداقته بد

واذا كانت النفوس كبارا … تعبت فى مرادها الأجسام

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا   فأفعاله اللاتى سَرَرْن ألوف

اذا أتت الاساءة من لئيم   ولم أَلُمِ المسىء فمن ألوم

واذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

واذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

ومن الخير بطء سيبك عنى   أسرع السحب فى المسير الجَهام

أبلغ ما يطلب النجاح به الطّبع   وعند التعمق الزلل

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين ادراك المعالى رخيصة   ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ومكايد السفهاء واقعة بهم   وعداوة الشعراء بئس المقتنى

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه   ويسومها طلبَ المحال فتطمع

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله   ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

واذا خفيتُ على الغبى فعاذرٌ   ألا ترانى مقلةٌ عمياء

واحتمال الأذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الاجسام

اذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن أن الليث يبتسم
أعيذها نظرات منك صادقةً   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره   اذا استوت عنده الأنوار والظلم
يامن يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كلَّ شئ بعدكم عدم
ان كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح اذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفةٌ   ان المعارف فى أهل النهى ذِمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم   ويكره الله ما تأتون والكرم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   ألا تفارقهم فالراحلون هم

اذا نلت منك الودَّ فالمال هين   وكل الذى فوق التراب تراب

فما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

فان تفق الأنام وأنت منهم   فان المسك بعض دم الغزال

فان يك سيار بن مكرم انقضى   فانك ماء الورد ان ذهب الورد

فان تكن تَغلِب الغَلْباء عنصرَها   فان فى الخمر معنى ليس فى العنب

وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمى أنه بعض الأنام

أتى الزمان بنوه فى شبيبته   فسرهم وأتيناه على الهرَم

رمانى الدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت اذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وما أخصك من برء بتهنئة اذا سلمت فكل الناس قد سلموا

تجاوز قدرَ المدح حتى كأنه بأحسنِ مايثنى عليه يعاب

خير أعضائنا الرءوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

وما الحسن فى وجه الفتى شرفاله ولكنه فى فعله والخلائق

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عماتشتهى النفس وُجده

لحى الله ذى الدنيا مُناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

ومازلت حتى قادنى الشوق نحوه يسايرنى فى كل ركب له ذكر
واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْر

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وما كل هاد للجميل بفاعل وما كل فعال له بمتمم

انما تنجح المقالة فى المر ء اذا صادفت هوى فى الفؤاد

واذا الحلم لم يكن فى طباع　　لم يُحَلِّمْ تقادمُ الميلاد

وجائزة دعوى المحبة والهوى　　وان كان لايخفى كلام المنافق
ومايوجع الحرمانُ من كف حارم　　كمايوجع الحرمان من كف رازق

من أطاق التماس شئٍ غلاباً　　واقتسارا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى　　أن يكون الغضنفر الرئبالا

لولا المشقة ساد الناس كلهم　　الجود يفقر والاقدام قتال
وانما يبلغ الانسان غايته　　ما كل ماشيةٍ بالرحل شِملال
انا لفى زمن ترك القبيح به　　من أكثر الناس احسان واجمال

يرى الجبناء أن الجبن حزم　　وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة فى المرء تغنى　　ولامثلَ الشجاعة فى الحكيم
وكم من عائبٍ قولاصحيحا　　وآفته من الفهم السقيم

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله　　وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعَم
لا يخدعنك من عدو دمعه　　وارحم شبابك من عدو ترحم
لايسلم الشرف الرفيع من الاذى　　حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد　　ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوي　　عن غيه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه　　ومن الصداقة مايضرُّ ويؤلمُ

أرى كلّنا يبغى الحياة لنفسه | حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى | وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد | الى ان ترى احسان هذا لِذا ذنبا

من اقتضى بسوى الهندى حاجته | أجاب كل سؤال عن هلٍ بلَم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة | بين الرجال وان كانوا ذوى رحم
هوّن على بصر ما شق منظره | فانما يقظات العين كالحلم
وكن على حذر للناس تستره | ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم

الرأى قبل شجاعة الشجعان | هو أولٌ وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة | بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه | بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم | أدنى الى شرف من الانسان

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه | فما طلبى منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلتَ تغيرا | تكلف شئ فى طباعك ضده

وأحسن وجه فى الورى وجه مُحسن | وأيمن كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف همةً | وأكثر اقداما على كل معظم
لمن تطلُبُ الدنيا اذا لم تُرد بها | سرورَ محب أو مساءة مجرم

فؤاد ما تسليه المدام | وعمر مثل ما تَهَب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار | وان كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
فشبه الشئ منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو صين الحفاظ بغير لب تجنب عنق صيقله الحسام
ولو لم يعل الا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
واذا الشيخ قال أف فمامل حياة ولكن الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى

سالم أهل الوداد بعدهم يسلم للحزن لا لتخليد
فما يرجى الخلود من زمن أحمد حاليه غير محمود

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب
سبقنا الى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتى تملك سالب وفارقها الماضى فراق سليب

وما منزل اللذات عنى بمنزل اذا لم أبجل عنده وأكرم

وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
أزالت بك الأيام عتبى كأنما بنوها لها ذنب وأنت لها عذر
وشكيتى فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء

وان أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

ومن قوله

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى ... أن الكواكب فى التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رَضوى على أيدى الرجال يسير
خرجوا به ولكل باك حوله ... صَعَقاتُ موسى يوم دُكّ الطور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه ... فى كل قلب مُوَجَّدٍ محفُور
كَفَل الثناء له برد حياته ... لما انطوى فكأنه منشور

أبو فِراس الحمدانى

هو الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى، أمير الشعراء، وشاعر الأمراء، وأحد صناديد تغلب الغلباء، وآخر من مثلت فى شعرهم حماسة العرب العرباء، وهو ابن عم سيف الدولة بن حمدان، وكان من أكبر قواده وأعزهم عليه، وأقطعه مرّة مدينة مَنْبِج مكافأة له على احسانه فى شعر قاله

وحضر مع سيف الدولة أكثر وقائعه مع الروم فأسر مرتين وأدرك فى احداها مثخنا بالجراح وحمل الى خرشنة ثم الى القسطنطينية، وبقى بها أربع سنوات نظم فى خلالها قصائد ومقطعات بليغة يستعطف بها سيف الدولة ورؤساء قومه سميت بالروميات، حتى وقع الفداء بين المسلمين والروم . ومات سيف الدولة وخلفه ابنه أبو المعالى ابن أخت أبى فراس، فأراد أبو فراس أن يضم اليه مدينة حمص، فنهد له أبو المعالى وجرت بينهما موقعة قتل فيها أبو فراس وعمره لم يزد على ٣٧ سنة وذلك سنة ٣٥٧ هـ

منزلته فى الشعر: — كان أبو فراس آخر أمير بدوى حاكى فى غزله ونسيبه وعتابه وحماسته فصحاء الاعراب . وكان بذلك يمتاز عن شعراء أهل زمانه لمكان الملك والفتوة .

وكان أبو الطيب يجله ويعترف بتقدمه فى الشعر ويتهيبه ولا يجترئ عليه في مناضلة ولا مناقضة، وكان شعره يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة ولم تجتمع هـذه الخلال إلا لابن المعتز قبله ، وشعر هذا أدخل فى الطبع من شعر ابن المعتز

ومن شعره فى السلو والشكوى

أراني وقومى فرّقتنا مذاهب ... وان جمعتنا فى الأصول مناسب
فأقصاهمُ أقصاهمُ من مساءتى ... وأقربهم مما كرهت الأقارب
غريب وأهلى حيث ما كرّ ناظرى ... وحيد وحولى من رجالى عصائب
نسيبك من ناسبت بالود قلبه ... وجارك من صافيته لا المصاقب
وأعظم أعداء الرجال ثقاتها ... وأهون من عاديته من تحارب
وما الذنب الا العجز يركبه الفتى ... وما ذنبه ان حاربته المطالب
ومن كان غير السيف كافل رزقه ... فللذل منه لا محالة جانب

وقال فى طعنة أصابت خده

لما رأت أثر السنان بخده ... ظلت تقابله بوجه عابس
خلَف السنانُ به مواقع لثمها ... بئس الخلافة للمحب البائس
حسن الثناء بقبح ماصنع القنا ... يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال

عرفت الشر لا للشـ ـر لـكن لتوقيـه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيـه

أخذه من قول عمر رضى الله عنه وقد قيل له فلان لايعرف الشر فقال ذلك أحرى أن يقع فيه

وكتب الى بعض مواليه من سجنه بالقسطنطينية

ياليـل ما أغفل عمابي حبائبي فيـك وأحبابى
ياليل نام الناس عن موجع ناء على مضجعه نابى
هبت له ريح شآميـة متت الى القلب بأسبابى
أدت رسالات حبيب بها فهمتها من بين أصحابى

وتنسب اليه القصيدة التى يتغنى بها الآن وأولها

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليـك ولا أمر

وديوان شعره مشهور مطبوع فراجعه ان شئت

أبو العلاء المعرى

هو أبو العـلاء أحمد بن عبـد الله بن سليمان المَعَرِّى التَنُوخى الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد صاحب التصانيف المشهورة والرسائل المأثورة. وهو عربى صميم من تَنُوخ احدى بطون قضاعة و بيته بيت علم وقضاء وفضل

منشؤه: — ولد بمَعرة النعمان من شرقى الشام سنة ٣٦٣ ﻫ وجُدِر فى الثالثـة من عمره، فغشى يمنى عينيه بياضٌ وذهبت اليسرى جملة . نشأ بين

أهله بالمعرة فتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه ، وخرج آية فى الذكاء وحدة الحفظ، وكان يحفظ كل ماسمعه من مرة واحـدة ، ولذلك كان يجلس فى دكاكين الوراقين فيحفظ كل مايسمعه، وكان بطرابلس الشام دار كتب عظيمة موقوفة على أهل العلم فقرأ كثيرامنهاووعاه (وهى دارآل عمار التى حرقهاالصليبيون عند استيلائهم عليها) وقال الشعر وعمره احدى عشرة سنة

ودخل بغداد سنة ٣٩٨ ه ودخلها ثانية سنة ٣٩٩ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ،وأقبل عليه السيد المرتضى اقبالا عظيما، ثم جفاه وأبعده من مجلسه. قيل لأنه جرى ذكر المتنبى بحضرته فغض منه. فقال أبو العلاء: لو لم يكن له الاقوله

لك يامنازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

لـكفاه فأمر بطرده ثم قال: أفطنتم لما يريد هذا الأعمى؟قالوا: لا. قال: يريد قوله فى هذه القصيدة

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشـهادة لى بأنى كامل

فتعجب الناس من كليهما

ولما رجع المعرى الى بلده أقام ولم يبرح منزله ونسك وسمى نفسه رهن المحبسين محبس العمى ومحبس المنزل، فوفد عليـه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفة وكاتبه الوزراء والعلماء، وبقى فى منزله مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعا بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عقار له الى أن مات سنة ٤٤٩ ه بالمعرة وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبى علىّ م وما جنيت على أحد

لأنه عاش عزبا

اعتقاده ومذهبه : — وللمعرى كثير من الشعر يناقض بعضه بعضاً في حقيقة العالم والشرائع والمعبود، فتارة يجارى المؤمنين، وطورا ينحرف الى اعتقاد الملاحدة والدهريين ، وكان لا يذبح الحيوان ولا يأكل ذا روح ولا ما يخرج منه، واكتفى بالنبات والفاكهة والدّبس وسئل فى ذلك فقال أرحم الحيوان واني فقير

وللناس فيه أقوال كثيرة ، فبعضهم يقول انه كان لكلامه باطن وظاهر كالصوفية وتأولوا الموهمَ الزيغ منه،وبعضهم يقول ان أعداءه وحساده دسوا عليه كل هذه الاشعار الضالة ، وبعضهم يقول أنه كان كافرا يرى رأى البراهمة ، وبعضهم يقول انه كان شاكا متحيرا، وأنا أميل الى ذلك

منزلته فى الشعر — : كان أبو العلاء أحكم من رأى الناس بعد أبى الطيب ، وكان يزيد عليه فى الغريب والخيالات الدقيقة ، ويتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع البشرى وعادات الناس وأخلاقهم ومكرهم وظلمهم ونظام الحكومات والقوانين. فهو من هذه الوجهة يمتاز عن المتنبي . ولذلك يفضله متأدبو الفرنجه ومستعربوهم عليه وهو فى هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم فى الملة أحد غيره فيها

وله شعر كثير وعدة دواوين . منها ديوانه سقط الزند ، وفيه أشعاره الادبية والمدائح ، ومنها ديوان فى وصف الدّرع ،ومنها ديوان لزوم مالا يلزم فى جزأين كبيرين التزم فيه حرفا قبل الروى وضمنه (اعتقاداته وأفكاره) فتقيد بقيود حبست أفكاره وأنهكت معانيه ، فجاءت ألفاظه غريبة وأساليبه معقدة

وعندى أن هذا أمقت شذوذ له. والا فما للفيلسوف والقيود . وقد كان له فى نظم الأفكار التى لم يخطر على قلب أحد سواه غنيةوشهادة على براعته وسبقه، ولله فى خلقه شؤون . وله ديوان رسائل مطولة وكتب أخرى مطبوعة فى مصر وغيرها، ويقال أنه ألف كتابا سماه الأيك والغصون، ويعرف بالهمز والردف خفى أثره . وشرح ديوان المتنبى وسماه اللامع العزيزى . واختصر ديوان أبى تمام وسماه (ذكرى حبيب) وديوان البحترى وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) ومن مختار أشعاره قوله فى مرثيته المشهورة

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيّ اذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ ـأرض الا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـ ـد هوانُ الآباء والأجداد
سر ان اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أحسا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمُدلج فى سواد
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجب الا من راغب فى ازدياد

ان حُزْنا فى ساعة الموت أضعا ف سرور فى ساعة الميلاد

خلق الناس للبقاء فضلت أمــة يحسبونهــم للنفاد

انمــا ينقلون من دار أعما ل الى دار شـقوة أو رشاد

وهى طويلة ومنها

بأن أمر الاله واختلف النا س فداع الى ضلال وهاد

والذى حارت البرية فيــه حيوان مستحدث من جماد

فاللبيب اللبيب من ليس يغتر م بكون مصـيره للفساد

ومن قوله الموهم من لزومياته

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولـكن لا يعاد لنا سبك

ومن قوله فى اللزوميات

كم بودرت غادة كعوبٌ وغودرت أمها العجوز

أحرزها الوالدان خوفا والقــبر حرز لها حريز

يجوز ان تبطئ المنايا والخلد فى الدهر لا يجوز

وجيده كثير فراجعه فى ديوانه ان شئت

ابن الفارض[١]

هو أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين عمر بن على بن المرشد بن على المشهور بابن الفارض أشعر الصوفية وأشهر من كلف بتكلف المحسنات البديعية

(١) الفارض الذى يكتب الفروض للنساء

رأصل آبائه من حماة . وولد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ وطلب العلم والأدب وحفظ من اللغة ما قل أحد من أهل زمانه أن يحفظه . ثم دخل فى طريقة الصوفية وأهل الشطح والمواجد فتقدم فيها وفتحت له أسرارها ، فنظمها ووصف مقاماتها بشعر جمع فيه بين صنعة عشاق الجناس والطباق، وبين معانى القوم الرقاق ورموزهم الدقاق ، ومن العجب اجتماع الحالين ، وشتان ما بين الطريقين .

وكان ابن الفارض على تواجده جميل الهيئة حسن الشارة دقيق الاشارة ظريف المحضر محمود العشرة . جاور بمكة مدة ثم رجع مصر . وبقى مرضى الطريقة حتى مات سنة ٦٣٢ هـ ودفن بسفح المقطم وضريحه مشهور مزور .

ومن شعره قصيدته التائية التى جمعت جميع مراتب القوم بطريقة الرمز والكناية عن مقامات التقرب والرضا ، بذكر أحوال العشاق وفتياتهم وحانات شربهم . وتبلغ هذه القصيدة نحو ستمائة بيت وأكثر شعره على منوالها بل أرق منها وأولها .

نعم بالصبا قلبى صبا لأحبتى ... فياحبذا ذاك الشذا حين هبت

تذكرنى العهد القديم لأنها ... حديثة عهد من أهيل مودتى

ومن رقيق شعره قوله من قصيدة

أعد ذكر من أهوى ولو بملام ... فان أحاديث الحبيب مدامى

كأن عذولى بالوصال مبشرى ... وان كنت لم أطمع برد سلام

طريح جوى صب جريح جوارح ... قريح جفون بالدوام دوامى

صحيح عليل فاطلبونى من الضنا ... ففيها كما شاء النحول مقامى

وديوان شـعره كله على النمط وهو مطبوع مشهور وشروحه كثيرة مطبوع بعضها فراجعها ان شئت

ابن النبيه

هو كمال الدين على بن محمد بن الحسن المصرى أبلغ مُدّاح بنى أيوب وأغزلهم وأطبع عشاق البديع وأمثلهم .

نشأ في مصر وخدم فى ديوان الانشاء وتأدب بكبار رؤسائه مثل القاضي الفاضل وغيره .

ولما انتزع الملكُ العادل أبو بكر أخو صلاح الدين مُلكَ مصر من الملك المنصور ابن ابن أخيه اتصل ابن النبيه بخدمته ومدحه بعدة قصائد .

ولما ملك الشام والجزيرة وأرمينية وقسم البلاد بين أولاده أعطى ولده الملك الأشرف موسى بلاد نصيبين وأطراف أرمينية فأكمل فتحها، ولقب بشاه أرمن، وجعل ابن النبيه فى بطانته واتخذه كاتب انشائه وحظى عنده ومدحه بقصائد قلما مدح بعده بمثلها ملك من بنى أيوب

وسكن ابن النبيه نصيبين و بقى بها بقية حياته حتى مات سنة ٦١٩ هـ عن نحو ٦٠ سنة

وكان ابن النبيه ممن مشى تحت لواء القاضى الفاضل فى سلوك الطريق البديعية فى شـعره ونثره الا أنه لم يكن يحاكيه فى الجناس ولا التورية ولا يعتد بهما كثيرا . وأكثر ما كان يولع به فى شعره الطباق بأنواعه والاقتباس والتلميح والاستعارة البـديعة . وكان يمتاز فوق هـذا كله بالرقة والسـهولة

والانسجام وتصور المعانى البديعة والتشبهات الجميلة . وكانت تصل به مبالغته فى وصف ممدوحيه الى حد المقت

ويعد ابن النبيه من أرق أصحاب الغزليات والخمريات ، وقصائده ومقطعاته فى ذلك كانت علما لمن سلك هذه الطريقة بعده مثل التلعفرى والبهاء زهير وابن نباته وغيرهم ، كما انه يعد ممن يجيد المراثى .

فمن خمرياته المشوبة بالغزل قصيدته المشهورة التى مدح بها أمير المؤمنين الخليفة الناصر . ومنها :

باكرْ صبوحك أهنا العيش باكرُهُ ... فقد ترنّم فوق الأيك طائرُهُ
والليل تجرى الدرارى فى مَجرّته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلّق تملأُ الدنيا بشائره
فانهض الى ذوب ياقوت لها حَبَب ... ينوب عن ثغر من تهوى جواهره
حمراء فى وجنة الساقى لها شَبَه ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوّن من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودّت غدائره

وكلها على هذا النحو

ومن بديع قصائده قصيدته التى مدح بها الملك الاشرف والتى يقول فى أولها .

من سحر عينيك الأمانْ الأمانْ ... قتلت رب السيف والطيلسان
أسمرُ كالرمح له مقلةٌ ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد اذ أشكو له قسوةً ... ولو شكوتُ الحبَّ للصخر لان

وختم مدحها بقوله

دمتم بنى أيوب فى نعمة ٍ   تجوز فى التخليد حدَّ الزمان

والله ما زلتم ملوك الورى   شرقا وغربا وعلىَّ الضمان

ورثى ولدًا لابن الخليفة الناصر بقصيدة تعدّ من عيون المراثى . ومنها :

الناس للموت كخيل الطراد   فالسابقُ السابقُ منها الجواد

والله لا يدعو الى داره   الا من استصلح من ذى العباد

والموتُ نقّادٌ على كفه   جواهرٌ يختار منها الجياد

والمرء كالظل ولا بد أن   يزول ذاك الظلُّ بعد امتداد

لا تصلح الارواحُ الا اذا   سرى الى الأجساد هذا الفساد

ومنها   دفنت فى الترب ولو أنصفوا   ما كنت الا فى صميم الفؤاد

وله ديوان شعر لطيف يظهر انه جمعه من مختار شعره وهو مطبوع مشهور

البهاء زهير

هو الشاعر الكاتب الوزير أبو الفضل زهير بن محمد بن على المهلبى الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع والغزل الرقيق والعتاب الرفيق .

ولد بوادى نخلة قرب مكة فى ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ ونشأ بمصر وأجاد فنون العربية فبرع فيها نظما ونثرا وخطا، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ،وخرج معه فى خدمته الى بلاد الشام والجزيرة، حتى نكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك . فقبض عليه واعتقله بقلعة الكرك، فحفظ البهاء عهد صاحبه ولم يخدم غيره، وأقام بنابلس حتى تقلبت الأحوال، واسترد الصالح ملك الديار المصرية.

فقدم اليها فى خدمته واتخذه وزيره وموضع سره وأحله منزلة لم تكن لغيره لحسن وفائه ورياضة أخلاقه ودماثة سجاياه . ونفع بخدمته خلقا كثيرا . وبقى أثيرا عند الملك الصالح حتى مات فلزم داره . وحدث بالقاهرة فى شوال سنة ٦٥٦ هـ وباء مات به ودفن بالقرافة . وهى السنة التى سقطت فيها بغداد فى يد التتار .

وكانت سهولة طباع البهاء تفوق سهولة شعره . وان كان الشعر يشف عن اخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . واتفق أهل زمانه ومن بعده انه لم يوجد فى المحدثين أسهل نظما ولا أرق لفظا ولا أكثر تشريفا للمعانى المبتذلة منه . وأجود شعره ما كان فى المغازلة والمعابثة والمعاتبة . ولم تنفق له سوق كبير فى غيرها . وأكثر معانيه عادية عامية الا أنه كساها ديباجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها فى أعين اهل الذوق بالصناعة الى مرتبة أحرار المعانى

ومن غزله الرقيق قوله

تعيش أنت وتبقى   أنا الذى مت حقا
حاشاك يا نور عينى   تلقى الذى أنا ألقى
قد كان ما كان منى   والله خير وأبقى
ولم أجد بين موتى   وبين هجرك فرقا
يا أنعم الناس قل لى   الى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثا   يارب لا كان صدقا
حاشاك تنقض عهدى   وعروتى فيك وثقى
فما عهدتك الا   من أكرم الناس خلقا
يا ألف مولاى أهلا   يا ألف مولاى رفقا

لك الحياة فانى　　أموت لا شك عشقا
لم يبق منى الا　　بقيـة ليس تبقى

وقوله

غيرى على السلوان قادر　　وسواى فى العشاق غادر
لي في الغرام سريرة　　والله أعـلم بالسرائر
ومشـبه بالغصن قلـ　　ـبى لا يزال عليـه طائر
حـلو الحـديث وانها　　لحلاوة شـقت مرائر
أشكو وأشـكـر فعـله　　فاعجب لشاك منه شاكر
لا تنكروا خفقان قلـ　　ـبى والحبيب لدى حاضر
ما القلب الا داره　　ضربت له فيها البشائر
يا تاركى فى حبـــه　　مثـلا من الأمثال سائر
أبدا حـديثى ليس بالـ　　ـمنسوخ الا فى الدفاتر
يا ليـــل ما لك آخر　　يرجى ولا للشوق آخر
يا ليـل طل يا شوق دم　　إنى على الحالين صابر
لى فيـك أجر مجاهـد　　ان صح ان الليل كافر
طرفى وطرف النجم فيـ　　ـك كلاهما ساه وساهر
يهنيك بدرك حاضر　　ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبـين لناظرى　　من منهـما زاه وزاهر

وتنسب هذه القصيدة لابن الفارض وهى ليست من مشربه إلا فى كثرة المحسنات البديعيه وتلك شـبهة من نسبها له وهى مثبتة فى كل النسخ من ديوان زهير مع تعيين الزمان والمكان اللذين قيلت فيهما

﴿ فهرست مواد العصر العباسى ﴾

صحيفة

صحيفة

﴿تم﴾

تنبيه ـ أشير فى هذه المذكرة الى بعض المباحث الى مجمل أحوال اللغة والادب والعلم فى عصر بنى أمية ، لان الطلبة الذين كتبت لهم فوت عليهم دراسة أحوالها فى ذلك العصر تغير برنامج الدراسة

﴿ بيان الخطأ والصواب الواقع فى هذا الكتاب ﴾

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٣	٢٩	رفعة	رُقعة
١٦	٣٣	الكتابة	الكناية
٤	٣٤	مُعنًى	مَغْنًى
١٩	٣٦	الحزَّمي	الخُرَّمى
١٨	٤٠	فى ألقاب	فى الالقاب
١٠	٤٣	حوز	خوز
١٤	٤٥	المرقوية	المزقونية
١٥	٥٣	عندنا الاعتقاد	عندنا الاغتفار
٩	٥٥	أيام بعض الامين	بعض أيام الامين
٧	٥٩	غلمانه	غلمانه رقعة
١٦	٥٩	فى الوزارة	فى الوزراء
١٢	٦٢	من ابرهيم المهدى	منه ابرهيم بن المهدى
٥	٦٥	متعرضا	متعوضا
١١	٦٨	امام	أيام
١٨	٧٢	ن ينقلوا من الغربية الى	ان ينقلوا الى العربية من
١و١٧	٧٣	ذخرت	زخرت
١٣	٧٦	البيع	كتاب البيع
٢	٧٧	واستُحصِفت	واُستَحصَفت
٧	٨٠	طِوال	طَوال

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٨	٨١	الكامل الروضه	الكامل والروضة
١١	٨١	الجهشباری	الجهشیاری
٣	٨٤	٣٥٥	٢٥٥هـ
١٧	٨٤	الكسب	الكتب
٤	٨٨	بصحة النعمة	بصحبة النعمة
٢	٨٩	لعنايته	بعنانه
١٨	٩١	مستفعلن	مستفع لن
١٠	٩٢	هرون الاعرج	هرمز الاعرج
٨	٩٥	جماليه	جاليه
٤	١٠٧	وأنفذ	وأنفد
٨	١١٣	صحيحا	صحيحها
١٣	١١٧	عنه محمد	عن محمد
٩	١١٩	ستة	خمسة
٣	١٢٢	تجريد	تجديد
٨و٩	١٢٤	الطالبين	الطالبيين
٩	١٢٤	بالرّقه	بالرَّقة
٧	١٤٧	شبهه	أشبهه
٢	١٤٨	الكلماتِ	لكلماتٍ
٤	١٤٨	وراءها	وراءه
١٤	١٤٩	يتعاتبن	يتعابثن

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
٨	١٥١	فى	في الشعر
١٨	١٥٣	أنكر	أ بكر
١٩	١٥٣	رقي رواية	وفي رواية
٥	١٥٨	أي يومه	أي يوميه
٥	١٦٢	لهوى	الهوى
١٢	١٦٣	وليس	ليس
١١	١٦٧	الجودبها	الجوادبها
١٧	١٦٨	يطعها	يطعمها
٢١	١٦٩	الاغنياء	الاعياء
٢١	١٦٩	ملازمهاصارت	ملازمها حتى صارت
٧	١٧٢	قوضرين	قوصرتين
١	١٨١	ابات	آيات
١٦	١٨١	رأى	رأس
٣	١٨٧	يذرى	يزرى
٩	٢٣٨	لانهفرض	لان فرض
٧	٢٤٠	دراسة	دراسته
١٢	٢٦٦	العربية	الغربية
١٣	٢٧٠	ذكريا	زكريا



